المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

١

العدد الاول

مجلة

المؤرخ العربي

٢

رئيس التحرير
الدكتور حسين امين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

المحتويات

أخبار الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

ـ باسم المؤرخين العرب تتقدم الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بالشكر الجزيل لمجلس قيادة الثورة في الجمهورية العراقية ثم دعمه السخي بمبلغ (٢٠) عشرين الف دينار كدفعة اولى لتغطية نفقات الاتحاد وتعتبر هذه من المقومات التي ساعدت الاتحاد على انجاز مهماته القومية والعلمية.

ـ تقوم الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بالأعداد الى اقامة مؤتمر في مدينة بنغازي ـ ليبيا ـ لاحياء ذكرى الشهيد عمر المختار في شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٧٩ .

ـ تخطط الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب من اجل تنظيم مؤتمر يبحث عن الحضارة العربية . حاضرها ومستقبلها وذلك لأقامته في مدينة الموصل في ربيع ١٩٧٦ .

ـ قامت الامانة العامة بتوجيه الدعوة لعدد من المؤرخين العرب والاجانب لزيارة القطر العراقي ومقرها فيه للتعرف على نشاطات الاتحاد ومهماته العلمية .

ـ بناء على موافقة سمو امير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني فقد تقرر اقامة مؤتمر يبحث في موضوع الخليج العربي في مدينة الدوحة وذلك في شهر ديسمبر ـ كانون اول ـ ١٩٧٦ .

ـ ابلغت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بشكل رسمي عن التبرع المشكور الذي امر به صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني امير دولة قطر بـ (١٠) عشرة آلاف دينار عراقي . والامانة العامة لاتحاد المؤرخين

لا يسعها الا ان تقدم على لسان المؤرخين العرب جزيل شكرها وامتنانها لهذه البادرة الطيبة •

ـ قدمت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب طلبا الى الامانةالعامة لجامعة الدول العربية لقبول الاتحاد عضوا في المؤسسات الثقافية في جامعة الدول العربية •

ـ تقدمت الامانة العامة بطلب الى منظمة اليونسكو بقبول الاتحاد عضوا عاملا في المؤسسات التابعة للمنظمة •

سيعقد المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب في ١٨/١٠/٩٧٥ في مدينة بنغازي ـ ليبيا ـ وسيحضره كل اعضاء المكتب المذكور لبحث شؤون الاتحاد حسب قانونه •

البيروني
عالم ساهم في تقدم العلوم

الدكتور حسين أمين

ان تاريخنا العربي الاسلامي ، يزدحم بنخبة كبيرة ونابهة ، من العلماء الافذاذ الذين ساهموا بصدق واخلاص في تقدم العلوم بخاصة والمعارف الانسانية بعامة ، وان لمن مشاهير تلك النخبة العالم العربي الاسلامي محمد بن احمدوالمعروف بابي الريحان البيروني وهذهالمبادرات الكريمة التي نجدها في البلدان العربية والاسلامية والاجنبية لتكريم هذا العالم الجليل وتقييم ماقدم من نتاج علمي واسهامه الكبير في تقدم المعرفة الانسانية ، دليل واضح على المكانة المرموقة التي يحتلها هذا العالم الكبير الذي نحتفل به هذه الايام ونشيد بمساهماته البناءة فيتقدم العلوم وتطويرها .

ولد ابو الريحان البيروني في خوارزم سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م في عصر فيه نضجت العلوم واخذت امكنة التعليم في الانتشار وصار يتعلم المعارف التي اشتهرت في تلك الفترة وبخاصة علم الرياضيات والعلوم الطبيعية وانتهل من اساتذة عصره وعلماء زمنه المعلومات الوافرة في هذين العلمين الاساسيين وقد برز ابو الريحان البيروني علما ذا شهرة واسعة وساهم مساهمة فعالة وناجحة في تطوير العلم وازدهاره .

لقد امتاز البيروني بملكته وقدرته على استيعاب كبير لمواد العلم وفهم عميق لدقائق العلوم ، وقدرة على ايراد الحجج العلمية المقنعة في

اثبات آرائه وافكاره بالدلالة والبرهان ، كما امتاز هذا العالم الفذ بروح النقد المنبثقة من اساسات علمية تعتمد على فهم لاصول الواقع العلمي والمنتهجة مبدأ التحليل والتعليل ، ان هذه المقومات العلمية مؤشرات واضحة لما يتمتع به هذا العالم الجليل من ملكة على الدرس والفهم والاستيعاب ومن ثم الكتابة وتطبيق الافكار والآراء تطبيقا موضوعيا يستهدف الوصول الى الحقيقة العلمية التي تساعد على تثبيت القواعد الاساسية للمعرفة والتي تعمل على تطوير العلم وازدهاره .

خاض البيروني معظم معارف عصره وبرز في الادب والتاريخ والفلك والرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، ومما ساعده على الوقوف على علوم عصره وفهمها معرفته الجيدة المغة الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية اضافة الى تضلعه باللغة العربية والتي كتب معظم تآليفه بها ، وما من شك فان العلوم والآداب كتبت معظمها بتلك اللغات التي اتقنها البيروني فصار يغرف منها كل مفيد ونادر ويضيف اليها من مداركه الواسعة وثقافته الشاملة ما ساعد على تطوير تلك المعارف وتعميقها .

ان البيروني ترك تراثا ضخما من المعارف في شتى فنون العلم ، ولكن البيروني يختلف عن الذين سبقوه فيما كتب فالبيروني عالم اتبع الطريقة العلمية في عرض الموضوع مستقرئا جوانبه واستنتاج النتائج التي تعبر عن سعة افق وعظيم فهم لذات الموضوع .

كتب البيروني في موضوع التاريخ ، فمن يقرأ كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) . وكتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) نجد ان هذا العالم عندما كتب في هذاالموضوع اعتمد اساسا على فهم الجانب العلمي فجاءت المعلومات مقرونة بالارقام والاحصائيات المبنية على المشاهدة والممارسة فافادنا في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة : عن آراء الهنود وافكارهم الدينية والفلسفية ومدارسهم الادبية وما يسود هناك من نظم

وقوانين وما يتعارفه الهنود حول الفلك والتنجيم والجغرافية ووصف حياتهم الاجتماعية وعلاقاتها بمعتقداتهم بالله والموجودات الحسية المختلفة، كما صار يقارن بين ما هو سائد في الهند من معتقدات دينية • ان كتابي البيروني (الآثار الباقية ، وتحقيق ما للهند) من الكتب الممتازة ولا يسع المقام للتفصيل فيهما ، ولكن مما لا شك فيه أن هذين الكتابين يعتبران فتحا كبيرا في تقدمية العلم وازدهار المعرفة التاريخية ، ذلك ان البيروني اوضح ذلك في مقدمة كتابه الاثار الباقية مبينا الدوافع التي دفعته الى كتابة هذا الكتاب التي كانت غايته التوصل الى الحقيقة متبعا طريقة البحث المعتمدة في استقصاء الحوادث فذكر : (وابتدىء فاقول ان اقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة اخبار الامم السالفة وانباء القرون الماضية لان اكثرها احوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لاهل الكتب والملل واصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أسًّا يبنى عليه بعده ، ثم قياس اقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة لاكثر الخلق . والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة واشباه ذلك فان الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي الى حاق المقصود وأقوى معين على ازالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد ، على ان الاصل لذي أصّلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه ان يكون غير موصول اليه لكثرة الاباطيل التي تدخل جمل الاخبار والاحاديث وليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميّز وتهذب لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر بل قد يشاهد ، وشوهد في الاحوال الطبيعية ما لو حكى مثلها

عن زمان بعيد عهدنا به لثبتنا الحكم على امتناعها وعمر الانسان لايفي بعلم اخبار امة واحدة من الامم الكثيرة علما ثاقبا فكيف يفي بعلم اخبار جميعها هذا غير ممكن ، واذا كان الامر جاريا على هذا السبيل فالواجب علينا ان نأخذ الاقرب فالاقرب والاشهر فالاشهر ، ونحصلها من اربابها ونصلح منها ما يمكننا اصلاحه ونترك سائرها على وجهها ليكون ما نعمله في ذلك معينا لطالب الحق ومحب الحكمة على التعرف في غيرها ومرشدا الى نيل مالم يتهيأ لنا وقد فعلنا ذلك بمشيئة الله وعونه ويجب بحسب ما قصدنا ان نبين مادية اليوم والليلة ومجموعهما وابتداءه المفروض اذ هما للشهور والسنين والتواريخ كالواحد للاعداد منه تتركب واليه تحل وباحاطة العلم بهما يسهل السبيل الى درك ما تركب منهما وبني عليهما) •

بهذه المنهجية الواضحة بدأ عالمنا البيروني في تقصي الحوادث التاريخية وتنظيم بحثه العلمي ، انها حقا منهجية بناءة ورائدة كان لها الاثر الكبير في تطوير العلم وازدهاره ، وهذا هو ديدنه في كل ما كتب وصنف ، كتاب المسعودي الذي قدمه للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي والبيروني في هذا الكتاب يقدم للعلم حقائق جديدة ومهمة ، انه نجح ولاول مرة في التاريخ الى استعمال النسب المثلثية بمعناها الحديث وذلك بعد ان كانت الجداول تضرب في معامل ثابت هو ½ ٢ طبقا للنظام الهندي و ٦٠ لما كان معروفا في الرياضيات البابلية ، وفي هذا الكتاب توصل البيروني الى اكتشاف قوانين الاستكمال في صورتها المبسطة وهي التي نسبت الى العالم اسحق نيوتن الانكليزي المتوفي سنة ١٧٢٧ م عندما اوجد أن الفترات المتساوية بين الزوايا لاتقابلها تغيرات متساوية في الجيوب •

وقدم البيروني للمكتبة الانسانية كتابه تحديد نهايات الاماكن وهو من الكتب المهمة في علم الفلك والتي تعني باستخراج عرض المكان ومعرفة

حجم الارض وتعيير أطوال البلدان ، وقد حقق الكتاب المستشرق الروسي بولجاكوف بمساعدة الدكتور امام ابراهيم احمد •

ومن كتب البيروني المشهورة كتاب الجماهير في معرفة الجواهر ، وهذا الكتاب يبحث في موضوع الكيمياء والمعادن ويعتبر هذا الكتاب أقدم مؤلف في علم المعادن وضع في اللغة العربية ، وفي هذا الكتاب تتبين الجهد المبذول للمؤلف وافادته من المصادر التي استعان بها وبخاصة الكتب الهندية والفارسية والعربية القديمة • كما صنف البيروني كتابه الموسوم (التفهيم لاوائل صناعة التنجيم) وهذا الكتاب وان عني في موضوع الفلك فقد حوى فصولا في الجغرافيا والتاريخ ، وقد انتهى من تأليفه سنة ٤٢٠ هـ أي قبل وفاته بعشرين سنة وترجم الى الانكليزية سنة ١٩٣٣ •

والبيروني ساهم مساهمة فعالة في تطوير العلم بمواضيعه المختلفة فقد قدم لعلم الرياضيات ثروة رائعة ، فقد تتجلى فكرة الدالة عند ايجاده مساحة المثلث بدلالة اضلاعه الثلاثة في القانون التالي واضعا نصب عينيه النتائج التي حصل عليها كل من ارخميدس وهيرون بطرق اخرى والقانون المذكور هو Δ أي حـ = √ ح (ح — أ) (ح — ب) (ح — حـ) •
كما ابتكر البيروني برهانا لمساحة الشكل الرباعي الدائري على طريقة الهند بالقانون التالي : —

مساحة الشكل الرباعي الدائري أ ب حـ د = (ح — أ)
(ح — ب) (ح — حـ) (ح — د) حيث ح = ½ (أ — ب) (ح — حـ)
(ح — د) •

وللبيروني الفضل الكبير في ادخال الجبر الى ميدان الهندسة وهذا لعمري من المنجزات الكبيرة التي قدمها البيروني لعلم الرياضيات •

ولاول مرة اوجد طول ضلع المخمس المنتظم باتباعه طريقة الازدواج

بين الهندسة والجبر كما هو واضح في المعادلة التالية :

طول ضلع المخمس المنتظم = $\frac{\text{نق} + \text{٥ نق ٢}}{\text{٢}}$

وعند استخدام البيروني المعادلة اعلاه أوجد مقدار جا ١٨° وهـو ٣٠٩١٥ر٠ وفي جداول حساب المثلثات في العصر الحديث فان القيمة الحقيقية هي ٣٠٩٠ر٠ ، أي ان الفرق لايكاد يذكر اذ كان بنسبة ١٥ في المئة الف •

وقد برع البيروني في علم الكيمياء ، وجاء وصفه علميا لبعض المواد الكيمياوية مما يوضح منهجيته العلمية ، واعتقد انه اعتمد كثيرا في معلوماته الكيميائية على سلفه الرازي وما سجله في كتابيه الشهيرين (سر الاسرار) و (الحاوي) ، وقد برع البيروني في ايجاد الاوزان النوعية لبعض المواد والتي جاءت مطابقة أو مقاربة جدا لما هو مقرر في عصرنا الحديث ، ومن امثلة ذلك :

	ما اوجده البيروني	ماهو مقرر في العصر الحديث
البلور الصخري	٢ر٥٨	٢ر٥٨
الحديـد	٧ر٧٤	٧ر٧٩
زئبـق	١٣ر٥٩	١٣ر٥٩
زمـرد	٢ر٧٣	٢ر٧٣
لؤلؤ	٢ر٧٣	٢ر٧٥

ومن الجدير بالذكر ان البيروني هو اول من اخترع الجهاز المسمى اليوم (البكنو ميتر) لقياس الوزن النوعي للمعادن والفلزات •

والبيروني اشتهر شهرة واسعة في علم الفلك فقد دأب هذا العالم على دراسة الظواهر الطبيعية وامكانية الافادة من علم الفلك في تفسيرها

والتدليل عليها ، ويعتبر البيروني هو أول من اخترع الطريقة المعروفة اليوم (ترانسفرسال) Transversal فقد قاس البيروني الزاوية بين خط استواء الارض مع مستوى دورانها حول الشمس ، وحصل على قيمة ثابتة مستنتجا لاول مرة بان هذه الزاوية ثابتة وهي تساوي ٢٣ر٥ تتغير ببطء ، فتصبح ٢٤ر٥ درجة بعد ١٥٠٠ سنة ، بمعدل نصف ثانية في السنة ، ومن الجدير بالذكر فان الفلكيين المسلمين امثال الخجندي والخازن وابن سنان كانوا قد اوضحوا اسباب هذا الانحراف .

وللبيروني فضل كبير في بناء المراصد العلمية في بعض المدن الاسلامية والتي ساعدت على ان تكون تلك المراصد امكنة للتحقيق العلمي والوصول الى معلومات فلكية نادرة ، كما عمل البيروني على اعادة قياس خطوط العرض في عدة مدن في اقليم خوارزم باستعمال اجهزة مختلفة الحجوم ، ومن المعلوم تاريخيا ان المأمون الخليفة العباسي قام بقياس خطي طول وعرض مكة فاقبل البيروني على دراسة ذلك المجهود فوجده صحيحا وان الخطأ لا يتعدى درجة واحدة ، وهذا يدل على براعته واهتمامه العلمي الدقيق باستخراج جزئيات الدرجة لان تلك الجزئيات لها اثرها الكبير في الحساب الرياضي والنتائج العلمية الدقيقة والثابتة ، وان هذا الحرص والاهتمام جعلا البيروني في مقدمة الفلكيين الذين يعنون العناية الفائقة بهذا العلم .

وقدم البيروني معلومات قيمة في موضوع النبات ، ومن اشهر ما قدم في هذا الباب كتابه الموسوم (العقاقير) والذي تضمن وصفا شاملا لخصائص ومنافع الف عقار مستخرج من النباتات والاعشاب والحيوانات والمعادن . ان هذا الكتاب له شهرته الواسعة في القرون الوسطى كما يعتبر موسوعة علمية كبيرة تدل بوضوح على اهتمامات البيروني العلمية وتحقيقاته التي اتسمت بالروح الموضوعية وبالدقة المتناهية في ابراز النتائج النافعة للانسانية .

ان البيروني عالم واسع الافق دقيق الملاحظة غزير الانتاج ، خاض في مواضيع علمية متعددة وبخاصةفي الرياضيات والفلك والطب والصيدلة والنبات والجيولوجيا اضافة الى العلوم الانسانية كالتاريخ والجغرافيا ، وانه اتصف بالحرص الشديد والاخلاص الكبير للعلم ، وتميز بالدقة المتناهية وبروح النقد البناء الهادف من اجل الوصول الى نتائج علمية ثابتة والى جانب كل ذلك فقد كان هذا العالم الكبير موصوفا بارادته القوية في الدأب والسعي على البحث وبقدرته العالية على جمع الحقائق العلمية بالبحث والتنقيب ومقارنتها بعضها ببعض ووضعها بطريقة مرتبة وفق نظام علمي منسق •

وقد اعجب المستشرقون بهذه الشخصية العلمية النادرة واجمعت آراؤهم انه عقلية فذة خدمت الحضارة وقدمت للانسانية ثروة علمية كبيرة ، وقد اورد المستشرق (سخاو) أن البيروني يعتبر من وجهة نظر تاريخ العلوم أكبر ظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية • وقال (سارتن): ان البيروني سائح وفيلسوف ورياضي وفلكي ، وانه موسوعي وواحد من اعظم علماء الاسلام •

ان البيروني ابرز عالم شهدته الانسانية في القرنين الرابع والخامس الهجريين بعقليته النفاذة وروحيته العلمية الهادفة الى تحقيق اغراض العلم والوصول الى الحقيقة ، وكان شعلة وضاءة لدرب المعرفة ومثلا صادقا للشخصية المدركة لعظم المسؤولية التي يتحملها كأنسان عالم صادق ونزيه •

ان البيروني كتب العديد من المؤلفات في مواضيع متعددة وقد جاء بآراء علمية فذة خدمت العلم خدمة ممتازة وعملت على تقدمه وازدهاره، وان منهجيته المنظمة وروحيته العلمية وسعة معارفه والحرص على الدرس والبحث والنقد وعلو همته واحترامه لكل العلوم والثقافات بعيدا عن التعصب الديني او القومي • كل هذه الصفات الحميدة بوأته المكانة

العلمية المرموقة وصار عالمنا البيروني واحدا من ابـرز واشهـر علماء الانسانية ويشار اليه بالتقدير والاحترام كما اصبح البيروني كما اعتقـد اصدق مثل لتراثنا العلمي ، قدم للعلم خدمات ممتازة فخلدته الانسانيـة واعتبرته من اولئك الذين يتفانون من اجل الوصول الى حقائق المعرفـة خدمة للانسانية وازدهارا للثقافة ، وان ما نشهده من احتفالات تقديرية في العالم لهذا العالم الاسلامي الكبير دليلا على ما يتمتع به البيروني من التبجيل والتقدير ، وان ما قام بـه المجلس الاعلى للعلوم في الجمهورية العربية السورية بالاحتفاء بذكرى هذا العالم الجليل وما نشاهده مـن نشاط الباحثين والعلماء في اظهار مآثر البيروني ، عملا يستحق الاحترام.
وفقكم الله لاظهار مآثر الآباء والاجداد اولئك الذين برزوا في ميادين العلم والمعرفة وكانوا الرواد الاوائل واضعي صرح الحضارة وبناة تراثنـا الذي تتغنى به .

اللغة والحضارة

آراء في الوزن الحضاري للغة وتطبيقاتها على اللغة العربية

الدكتور خليل ابراهيم الحماش
أستاذ قسم اللغات الاوروبية
كلية الآداب - جامعة بغداد

اولا : المقدمة

١ ـ هدف الدراسة

تشارك عوامل كثيرة في تطور حياة الامم منها العوامل الاقتصادية والعوامل الجغرافية والمناخية والعوامل الاجتماعية • واللغة عامل أساسي من العوامل الاجتماعية • فلقد اجمع علماء لانثروبولوجيا على أن اللغة جزء لا يتجزأ من حضارة الامة • فاللغات تختلف فيما بينها كما تختلف حضارات الشعوب واللغة أيضا كحضارة الامة تكتسب بتعلم انماط سلوكية واسعة تقع في اطارها وتفسر على اساسها الاحداث الصغيرة المتفرقة • واللغة كالحضارة عرضة للتبدل نتيجة التراكم الضخم لتجارب الشعب الذي خلقها (Hoijer ص ـ ٢٦) •

تحتاج الامة في يقظتها ونموها وتطورها الحضاري الى لغة تعبر فيها عن ذلك التطور والنمو فيسهل عليها الامر نوعا ما اذا ما امتلكت في الاساس لغة عريقة مكتملة النضج وقد يتعثر النمو الحضاري للامة اذا ما افتقرت الى الذخيرة اللغوية الضرورية • وتعاني الشعوب التي استقلت حديثا من مشاكل جمه في هذا المضمار (Dil ص ٥٥) وقد يؤدي الامر

الى خلق صعوبات جادة تتطلب حلولا سريعة ومؤثرة ، وعند عدم توفر مثل تلك الحلول يتعثر النمو الحضاري للامة ويتعرض الى تعقيدات كبيرة • فما هي صفات اللغة العريقة ؟ وهل بالامكان التوصل الى معايير واضحة تحدد على اساسها درجة عراقة اللغة ومقدار قصورها من هذه الناحية ؟ اين تقف اللغة العربية من هذه المعايير ؟ وهل ان اللغة العربية لغة عريقة ولماذا ؟ تشكل محاولة الاجابة عن تلكم التساؤلات هدف هذه الدراسة وساحاول ان استجمع ما يمكن جمعه من الصفات المميزة للغات الكبرى في العالم محاولا وضع بداية اولية للمعيار المطلوب وساحاول تطبيقه على اللغة العربية معتمدا على القليل الذي اعرفة عنها تاركا استكمال التقصي لمن تستهويه مثل هذه الدراسة •

واود ان ابين قبل ان انهي هذه التوطئة بأنني لا أزال اتفق مع علماء اللغة بان اللغات الحية على درجة متكافئة من حيث القدرة والقابلية على التطور والامكانية في تلبية حاجات متكلميها ، وانه لايمكن تقسيم اللغات الى لغات متقدمة واخرى بدائية • فالمقصود هنا باللغة العريقة هو مقدار مساهمة اللغة في التفتح الحضاري للامة وفي مساهمتها (نتيجة لتراكم التجارب كما سبق ان ذكرنا) في الفكر الانساني عامة وفي حضارة البشرية قديمها وحديثها ، أي بكلمة اخرى مقدار وزنها الحضاري عامة •

٢ ـ تعاريف اساسية :

وردت في المقدمة السابقة تعابير ثلاثة تحتاج الى ايضاح وتحديد قبل ان ننطلق الى الحديث عن المسائل الاخرى •

آ ـ الامة : من اعقد المسائل التي يتعرض اليها علماء الاجتماع تحديد المقصود بالامة وتبيان صفاتها ويفسرها مختلف الباحثين بتفسيرات مختلفة ، وليس هذا مكان النقاش عن هذه الاختلافات ، بل اكتفي بتصور

مفهوم الامة من وجهة النظر اللغوية فقط • فالامة من وجهة النظر هذه مجموعة الاشخاص الذين يعتبرون انفسهم من متكلمي لغة واحدة (أي ان الاساس هو المعتقد وليس التطابق اللغوي) فقد تتكلم مجموعات من الناس لغات متشابهة جدا ولكنهم لا يعتبرون انفسهم متكلمين للغة واحدة وقد يختلف قوم في الاشكال اللغوية التي يستعملونها اختلافا كبيرا الا انهم يعتبرون ابناء امة واحدة طالما اعتقدوا انهم يتكلمون لغة واحدة وهذا بالطبع يتضمن وحدة في التاريخ وفي التقاليد الاخلاقية والادبية والمشاعر وقد يوحدهم نظام كتابي واحد • والايمان بوحدة اللغة يتضمن اقرارا لمعايير لغوية واضحة (Iraguistic norms) وموحدة يصبو الى الوصول اليها المتكلمون جميعا ((order) ص ٥٣)•

ب : الحضارة :

يوازي تعبير الحضارة « التعبير الانكليزي » (Culture) وهو يختلف عن (civilization) التي تعرف بالمدنية وان حضارة امة لا تعدو ان تكون مجموعة المفاهيم العامة التي يقبلها ويجمع عليها غالبية ابناء تلك الامة وقد تكون تلك المفاهيم موروثة او وليدة الظروف الراهنة وتؤدي المفاهيم تلك الى خلق نظام من الاساليب الواضحة والخفية من السلوك والعيش يتفق عليها الافراد المكونين للجماعة او الامة (Hoijer ص ــ ٢٦) •

ج : اللغة :

اللغة ظاهرة معقدة وتعريفها امر في غاية الصعوبة فهي من الناحية النفسية سلوك معين يسلكه الفرد استجابة لحوافز معينة وهي ايضا ظاهرة اجتماعية لانها تتضمن حوارا بين اكثر من شخص واحد فهي بهذا ايضا سلوك اجتماعي •

الا ان التفسير السلوكي المحض للغة لا يفي بالمرام لان السلوك

اللغوي يختلف عن انواع السلوك الاخرى كالمشـــي والنــوم والجلوس وغير ذلك لان السلوك اللغوي يتضمن مادة وحقيقة موضوعية موجودة فعلا فيقال : ان لغــة فلان نمــت واضمحلت او قويت ويقــال ان لغة الجماعة الفلانية تبدلت • فاللغة تختلف عن المشي اذ انها حقيقة موضوعية قائمة بذاتها اضافة الى وجود سلوك لغوي بينما المشي سلوك محض خال من المادة الموضوعية الموجودة خارجه •

اللغة في اساسها ومادتها نظام صوتي اجمع متكلموها على دلالات معينة له • ان مادة اللغة الاساسية الصوت وليس اي شيء آخر •وتخضع اصوات اللغة الى نظام يمكن اكتشافة وتحديده ووصفه كما يحصل مع بقية الانظمة الاجتماعية • والنظام اللغوي معقد متشابك تتطلب الاحاطة به الماما واسعا بالعوامل المختلفة المؤثرة فيه •

مع كل ما ذكر تبقى اللغة امرا اكثر غموضا من الحاجات الماديةالتي يمكن تحديدها موضوعيا ، وذلك يدفعنا في كثير من الاحيان لاستعمال التعابير المجازية لوصف اللغة كأن تقول ان اللغة «اداة» يستعملها الناس للتعبير عن حاجاتهم وما شاكل ذلك من التعابير •

ومن الصفات الاساسية للغة الحية التطور والتبدل فهي تتبدل عبر الازمنة المختلفة وتتباين صفاتها الدقيقة جغرافيا اي من منطقــة لاخرى كما تتباين اجتماعيا وسكانيا اي تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعيــة التي تستعملها والسؤال المهم هنا يمكن وضعه كما يلي : ما هو مقــدار التباين المسموح به ضمن لغة واحدة ومتى يؤدي التباين الى خلق لغتين متباينتين ؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في تحديدنا لمفهوم الامةحيث قبلنا بعنصر الاعتقاد والشعور بأن متكلمي لهجات مختلفة يعتقدون بانهم يتكلمون لغة واحدة والاعبرة بمقدار التباين بين تلكم اللهجات •

فالتباين داخل اللغة الواحدة يحدث على المستويات التالية :

١ ــ مستوى الاداء الفردي (idiolect) حيث يختلف متحدث عن آخر حتى ولو كانا يتكلمان نفس اللهجة وهما من نفس الطبقة الاجتماعية وفي نفس الحقبة الزمنية والبقعة الجغرافية •

٢ ــ مستوى التباين بين اللغة المكتوبة واللغة الدارجة (Patois) كما يسميها اللغويون الفرنسيون (Haugen ص ــ ٩٠) •

٣ ــ مستوى التباين بين اللهجات المختلفة ويضع علماء اللغة شرط وجود تراث ادبي واضح لاي شكل من اشكال اللغة قبل ان يصبح لهجة متميزة (Haugen ص ــ ٩٠) •

ومن شروط تماسك اللغة ووحدتها رغم ما ذكر من تباين وجود الفصحى (standard language) التي يعترف بها جميع المتكلمين ويلجأون لاستعمالها في مختلف المواقف الى جانب الاشكال الاخرى المتباينة عن بعضها البعض • والفصحى في اية لغة ترمى عادة الى تحقيق هدفين : اولهما ايجاد حد ادنى من التباين اللغوي وثانيهما تحقيق حد اعلى من تباين الغرض والفاعلية •

فاللغة الفصحى المثالية هي التي لا يختلف اثنان في نطقها وكتابتها وتحديد معانيها والتي تستطيع اضافة لذلك ان تعبر عن مختلف حاجات الناس (Haugen ص ــ ١٠٧) •

ثانيا : عناصر الوزن الحضاري للغة :

من الواضح انه كلما زاد عدد متكلمي اللغة زادت اهميتها وزاد الاحتياج الى تكلمها لدوافع مختلفة قد تكون منها دوافع تجارية او استراتيجية او غير ذلك • الا أن هذا وحده لا يعطيها وزنا حضاريا ولا يجعل منها بالضرورة لغة عريقة فقد تعتبر لغة ما لغة عريقة اذا كان عدد

المتكلمين صغيرا نسبيا الا انها تتمثل فيها كافة العناصر التي تعطيها وزنا حضاريا عاليا •

فما هي العناصر الاساسية التي تعطي اللغة وزنا حضاريا وتجعل منها احدى لغات العالم العريقة ؟ للاجابة عن هذا السؤال على الباحث ان يقلب ويتمحص صفات اللغات التي اجمع الناس على تسميتها باللغات العالمية العريقة وان يدون ما استطاع من صفاتها المختلفة ولما يمكن ان يعطيها بعدا حضاريا اعمق • لقد فعلت هذا وتوصلت الى قائمة من اثنى عشر عنصرا أذكرها فيما يلي وقد يكون قد فاتني ذكر بعضها او تفصيل بعضها الآخر بما يفي بالمرام •

ولا يمكن التفكير بالعناصر المذكورة هنا على انها صفات تحدد على قطبين فقط (موجودة وغير موجودة) بل هي في الحقيقة متغيرات كمية تختلف لغات العالم في درجة توفرها فيها • اقصد انه يجب الا نفكر لدى تطبيقنا لهذه العناصر ان اللغات المختلفة يمكن تصنيفها الى صنفين طبقا لكل منهما بل ان اللغات تتمايز على سلم متدرج من حيث توفر هذه الصفات فيها •

١ ــ مدى وضوح وثبات الصفات الاساسية للغة ، أقصد بالصفات الاساسية النظام الصوتي والنظام النحوي للغة • فكلما كانت الصفات الاساسية للغة واضحة المعالم اصبحت تتمتع بشخصية متمييزة وكانت اثبت في وجه الاعاصير والموجات المختلفة التي تزعزع كيان اللغات الضعيفة وتجرفها في تيار الاندثار والتلاشي • وهذا يعني ضرورة ان تكتسب الانظمة اللغوية رسوخا وقوة على الاستمرار في البقاء (codification) ومن الضروري لتحقيق هذه الصفة توفر الشرطين التاليين :

آ ــ وجود شكل فصيح واضح المعالم يعترف به كافة المتكلمين ويحترمونه ويصبون الى الوصول اليه (Haugen ص ــ ١٠٧) •

ب ــ استعمال الشكل الفصيح في مجال الكتابة بشكل واسع ليتم لمختلف قطاعات الامة ــ الاطلاع عليه واكتسابه والمحافظة عليه (Ramunjan ص ــ ١٥٩) •

٢ ــ مقدار حيويتها وقدرتها على التطور والوفاء بالحاجات المتطورة لمتكلميها على اختلاف مشاربهم ومهنهم وطبقاتهم • فالى جانب صفة الثبات والوضوح يذكر علماء اللغة انه من صفات اللغة الحية قدرتها على الاستجابة المرنة للتبدلات الحضارية في المجتمع Pride and Holmes ص ــ ٨) •

فاذا ما طغت صفة الثبات على نواحي اللغة كافة واغلقت أمام التبدلات المطلوبة ادى ذلك الى موتها ، اما اذا طغت صفة التبدل عليها انعدمت فيها الصفة المميزة واصبحت عرضة لان تبتلعها احدى اللغات القريبة منها لانها لغة لا شخصية لها ولا تثبت امام الاعاصير فالقاعدة الذهبية هي ان تظهر اللغة حدا ادنى من تنوع الشكل وحدا اعلى من تنوع الغرض • وبكلمة اخرى ان استطاعت اللغة ان تفي بكل الاغراض المختلفة التي يحتاجها المجتمع في تطوره الحضاري فذلك امر حسن والا فيستحسن الا يدخل في اللغة تطور في الشكل الا بالمقدار الضروري للوفاء بحاجات متكلميها •

٣ ــ وفرة المفردات اللغوية وشموليتها :

رغم قلة اهمية المفردات اذا ما قورنت باهمية النظامين الصوتي والنحوي للغة ، الا ان المفردات في سعتها وتنوعها ودقتها تعتبر من سمات اللغة العريقة فكلما كبرت ثروة الكلمات في اللغة كانت اكثر قدرة على الاستجابة لحاجات متكلميها المتنوعة وكانت اقدر على استيعاب مختلف التطورات في العلوم والفنون والاداب • فاللغة الانكليزية مثلا تحتوي على نصف مليون كلمة كما ترد في قاموس الاوكسفورد

(Corder ص ٢١٤) ولاجل الوصول الى تصور واضح لهذه المسألةعلينا ان نأخذ الاعتبارات التالية في الحسبان :

آ ـ صعوبة تحديد المقصود بالمفردات :

فليس هناك تصور واحد لمفهوم الكلمة وحدودها وليس هناك طريقة واحدة لحساب الكلمات فهل ان كلمة ذهب واحدة في « ذهب الرجل مسرعا » وفي « ذهب في ذلك مذهبا مغايرا لاسلافه » وهل ان يذهب ذاهب وغيرهما من ضمن كلمة ذهب أم انهما كلمتان جديدتان وكذا بالنسبة للغات الاخرى ولذا ارى ان يؤخذ ما يسمى بالمورفيم ("الوحدة اللغوية) اساسا لقياس ثروة اللغة من المفردات وليس الكلمة لصعوبة تحديد المقصود بالاخيرة •

ب ـ تقسم مفردات اللغة او وحداتها اللغوية اذا اخذنا بالرأي المقترح الى نوعين رئيسيين •

١ ـ المفردات النحوية الاساسية :

كالضمائر وادوات الربط وحروف الجر والافعال المساعدة في بعض اللغات والناقصة في العربية وادوات النفي والاثبات وادوات التنكير والتعريف والاعداد وادوات الاشارة وما شابهها وهي قليلة العدد عادة قد لا تزيد عن (٥٠٠) في معظم اللغات الا انها عظيمة الاهمية لانها العنصر الاساس في تحريك اللغة ، اذ بدونها لا يمكن اللغة ان تؤدي دورها ولذا سميت بالانكليزية (Function words) وهي تؤلف نصف ما نقوله او نكتبه والنصف الاخر يعود للنوع الثاني من المفردات وهي المفردات القاموسية • فلو اجرينا احصائية على اية مجموعة من المفردات المستعملة في الكلام أو الكتابة لتأكدنا من صدق هذه الملاحظة • ولنجرب ذلك على

الفقرة التالية المأخوذة اعتباطا من مقالة بعنوان « مشاكل البيئة من الناحية

الجيولوجية » للدكتور محمد يوسف حسن من مجلة **رسالة العلم** المجلد ١١ العدد ١ مارس / ٩٧٤ في الصفحة ١٥ .

« لم يعد مضمون مصطلح البيئة بالنسبة للانسان يقتصر على المعنى المعتاد من حيث انها مجموعة الظروف الطبيعية المحيطة بنا من هواء وماء وطبيعة ارضية وحسب . او حتى من حيث تأثرنا بالتوزيع السكاني والكثافة السكانية في المناطق المختلفة او ما استجد على كل هذا من دراسات وبحوث تتعرض الى ما يتطرق الى هذه العناصر من تلوث او فساد او اختلال وما يجب القيام به لاكتشاف هذه التغيرات وقياس معدلاتها باستمرار واجراء الابحاث المستمرة التي تكفل تطبيقاتها تدارك الفساد او ازالة التلوث او استعادة التوازن » .

فلو احصينا عدد الوحدات اللغوية (مورفيم) في الفقرة كلها وجدنا ان فيها ١٢٥ وحدة (مورفيم) وان منها ٦٢ وحدة لغوية من الوحدات اللغوية النحوية و ٦٣ وحدة قاموسية ونفصلها كما يلي :

١ ــ ادوات النفي	١
٢ ــ اداة التعريف	١٨
٣ ــ حروف الجر	١٥
٤ ــ الافعال الناقصة	١
٥ ــ الضمائر	١٢
٦ ــ ادوات العطف	١٥
المجموع	٦٢

ولاهمية المفردات التي هي من هذا النوع فالرأي السائد لدى علماء اللغة ان اللغات كافة لها من الذخيرة اللغوية قدر متساو بما يمكنها من اداء واجباتها الاساسية وليس هناك تمايز في كفاءة اللغات المختلفة في هذه الناحية .

٢ ـ المفردات القاموسية :

تؤلف هذه المفردات الجزء الاعظم من مفردات اللغة من الناحية العددية وتقسم الى نوعين .

آ ـ المفردات الخاصة بالعناصر الحضارية

التي تنفرد بها الامة وحدها وبذا تنفرد اللغة بمفردات تلك العناصر ولا تشاركها بها لغة اخرى .

ب ـ المفردات العامة :

وهنا يكمن التمايز في الثروة اللغوية في مفردات اللغات المختلفة وتقاس ذخيرة اللغة في المفردات على معيارين اثنين هما :

١ ـ مقدار الذخيرة الموروثة من المفردات .

٢ ـ مقدار ما اكتسب حديثا من التعابير والمصطلحات .

٤ ـ مدى تطور النظام الكتابي التابع للغة :

ليس تعلم الكتابة تعلم اللغة نفسها لان الكتابة طريقة نرمز بها للغة ونحاول تصويرها بها . فليس الحرف صوتا بل هو رمز للصوت وتتفاوت اللغات في مدى دقة التطابق بين اصواتها وحروفها فكلما كان التطابق دقيقا كان تعليم الكتابة اسهل واضمحل احتمال الوقوع في الاخطاء التي منشأها الاختلاف بين النطق والرسم .

واللغات على درجات ثلاث ، من هذه الناحية :

آ ـ اللغات التي لم يحاول اهلها تدوينها ولم يتبعوا نظاما كتابيا معينا لهذا الغرض .

ب ـ اللغات التي دونت بنظام كتابي مستعار من اقوام اخرى

وتختلف اللغات هنا في مدى تطويرها للنظام الكتابي المستعار بحيث تعبر عن حاجاتها بدقــة .

ج ـ اللغات التي اكتشف اهلها نظاما كتابيا خاصــا بها ووضعوه خصيصا لمطابقة حاجاتها وتختلف اللغات ايضا في مدى التطوير الــذي اجرى على النظام الكتابي وقبل ان انتقل الى نقطة اخرى من الضروري ايضاح المقصود بالنظام الكتابي فالانظمة الكتابية في العالم يمكن تقسيمها الى الانظمة التي تتبع الاسلوب الهجائي والانظمة التي تتبــع اساليب اخرى كالصينية مثلا وفي الانظمة الابجدية يمكن تحديد عناصر النظــام الكتابي كما يلي :

آ ــ حروف الهجاء وتقسم في الغالب الى نوعين النوع المستعمل في الطباعة والنوع المستعمل في الكتابة اليدوية ويكون الاخير عادة بسيط الشكل خاليا من كل ما يعيق سرعة الكتابة .

ب ــ الارقــام .

ج ــ ادوات التنقيط .

د ــ الرموز الاخرى المستعملة في الرياضيات والكيمياء وغيرهــا من العلوم .

هـ ــ الرموز الصوتية المستعملة في علم الصوتيات .

٥ ــ مدى تأثيرها على اللغات الاخرى :

من صفات اللغة العريقة ان تترك اثرا على اللغات الاخــرى سواء القريبة اليها ام البعيدة عنها وتتلخص النواحي الرئيسة لهــذا التأثير في النواحي التالية :

آ ــ اعارة المفردات على اختلاف انواعها .

ب ــ اعارة اساليب التعبير والتراكيب النحوية .

ج ـ اعارة النظام الكتابي او اجزاء منه •

٦ ـ مدى استفادتها من اللغات الاخرى دون ان تفقد شخصيتها :

من صفات اللغة الحية والعريقة ان تعير الى اللغات الاخرى وان تستعير منها • على انه من الواضح انه من الضروري في حالة استعارتها من اللغات الاخرى الا تفقد شخصيتها وكياتنها كلغة قائمة بذاتها فالقول بأن اللغة يجب الا يدنسها الدخيل من اللغات الاخرى امر مستحيل التحقيق لان لغات العالم تتبادل التعابير والمصطلحات كما تتبادل دورالعلم المطبوعات والنظريات الا آن المؤسسة الناضجة التكوين تستطيع ان ـ تستعير وان تهظم ما تستعير بحيث تخضعه للقواعد والاصول الخاصة بها (منتصر ص ٥) •

ومن خصائص اللغة الحيةايضا قدرتها على استيعاب ما يصدر في اللغات الاخرى عن طريق الترجمة اي ان تتوفر فيها امكانية ترجمة ما يصدر في لغات اخرى من علم وادب وفن خصوصا مما له اهمية في مضمار التخصيص الدقيق •

٧ ـ مدى التطور الرمزي للغة :

من الامور المسلم بها ان اللغة نظامدقيق ومعقد منالرموز الصوتية• فبدلا من آن يحمل المتكلم ما يريد طلبه او اصلاحه او اعارته وهذا امر مستحيل في كثير من الاحيان يرمز له بصوت او بعدد من الاصوات ليفهم من يحدثه قصده وغايته •

وقد توصل الانسان الى هذا بسبب رقي جهازه العصبي وسمو قدراته العقلية باستعمال الرمز بدل الشيء نفسه من الخصائص المميزة للانسان آلا ان الرموز اللغوية نفسها تحتاج في كثير من الاحيان الى الاختزال والاختصار فبدلا من استعمال كلمة طويلة او تعبير طويل معقد

نسبيا يرمز له بتعبير اقصر منه واسهل على اللسان • فيقال في اللهجة العراقية **ليش** بدلا **من لأي شيء** ويقال بالانكليزية bus بدلا من omnibus كما يقال won't بدلا من will not ويندر ان يشار الى مؤسسة معروفة باسمها الكامل بالانكليزية فيقال U.K بدلا من United Kingdom ويقال USSR بدلا من Union of Soviet Socialist Republics وهكذا .

ب ـ ومن سمات اللغات العريقة وفرة في الانتاج الادبي الذي يحمل السمات الرمزية بشكل او بآخر وما كليلة ودمنة في العربية و Gulliver's Travels في الانكليزية الا امثلة لذلك •

ج ـ تتطور حاجات الناس بتطور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وغيرها فتستحدث في الحياة اشياء يحتاج الناس للتعبير عنها بطريقة او باخرى فان استطاعت اللغة ان تعبر عنها بدقة واختصار نجحت في الوفاء بوظيفتها في المجتمع والا عافها الناس ولجأوا الى استعارة تعبير او تعابير من لغة او لغات اخرى على هواهم فلو فرضنا ان جهة ما قررت تسمية احدى المخترعات الحديثة بجهاز الاتصال السلكي فسوف يعاف الناس هذا ويلجأون الى تعبير التلفون بدلا منه • ولكن لو استعمل تعبير الهاتف لكان وافيا بالغرض بسبب سهولته وقصره ووضوحه نسبيا •

د ـ واخيرا نستطيع اعتبار تطور الاساليب البلاغية في اللغة وقدرتها (بسبب وجود امثلة جيدة في التراث اللغوي) على كسر القواعد النحوية بالاساليب البلاغية الجميلة من السمات المميزة للغة العريقة ان هذا دليل نضج اللغة وعراقتها •

٨ ـ مدى تعرض اللغة نفسها للبحث والتمحيص :

ان اللغات العريقة عادة لغات مشبعة دراسة وبحثا وتتوفر عنها دراسات قديمة وحديثة بسبب اهميتها للفكر الانساني ، وليس هناك حدود لما قد يكتب عن اللغة الا انني ارى ان الانواع التالية من الدراسات

هي التي تعطي اللغة ، على الاقل في عصرنا هذا ، بعدا حضاريا واضحا : ـ

آ ـ **الدراسات الصوتية** وتشمل :

١ ـ تحليل الانظمة الصوتية لكافة اللهجات المهمة فيها •

٢ ـ التوصل الى تحديد الرموز الصوتية للاصوات والصفات الصوتية المستعملة في اللغة •

ب ـ الدراسات النحوية :

وتشمل الدراسات عن التراكيب والصرف والاشتقاق وغير ذلك وتشمل كذلك تحليلا للظواهر النحوية والصرفية لكافة اللهجات الرئيسة •

ج ـ **الدراسات الخاصة بالمفردات** وتشمل عادة

١ ـ المعاجم الدقيقة سواء اكانت وحيدة اللغة او ثنائية اللغة على ان تشمل هذه نواحي اللفظ والمعنى والاشتقاق وغير ذلك من نواحي المفردات •

٢ ـ الدراسات الخاصة بمقدار تردد الكلمات والمسمات (Frequency counts) وفائدة هذه الدراسات تحديد اهمية كل كلمة او مصطلح عن طريق حساب يحدد المرات التي يتكرر فيها استعمال تلك الكلمة في مليون كلمة مثلا •

د ـ الدراسات المقارنة

من صفات اللغة العريقة نظرا لاهميتها خضوعها للمقارنة باللغات الاخرى سواء منها المهم او الثانوي الاهمية وقد تشمل مثل تلك المقارنات ناحية لغوية معينة او اكثر • وهدف مثل هذه الدراسات تحديد نقاط

الالتقاء والاختلاف ـ بين اللغة واللغات الاخرى لكي يتسنى التركيز على نقاط الاختلاف لدى تدريس تلك اللغة للاجانب ٠

هـ ـ دراسات عن الكتابة المستعملة :

كدراسة انواع الخط واصوله التاريخية ووسائل تحسينه واكمال النواقص فيه وغير ذلك ٠

و ـ الدراسات العلمية الخاصة بتعليم اللغة :

تشمل دراسات عن تعليمها للصغار او للبالغين او معا وكذلك من الاجانب او لابنائها ٠ وتشمل ايضا دراسات عن تعليم الخط للاجانب ولابناء البلد على السواء ٠

ز ـ الدراسات الخاصة بالنواحي البلاغية والمحسنات اللفظية وما يقع ضمن ما يسمى بعلم « الستايلستيك » الحديث ٠

٩ ـ مقدار ما مدون فيها من تراث :

التراث الادبي والعلمي الخالد يعطي اللغة اهمية فوق اهميتها ويجعل منها غاية يقصدها دارسو اللغات لكي يتعرفوا على ذلك التراث في اول صياغته وفي اللغة التي كتب فيها فشكسبير ساهم في خلود اللغة الانكليزية وفولتير مثلا للفرنسية ودستوفسكي مثلا للروسية وكذا بالنسبة للتراث العلمي والمكتشفات والبحوث العلمية البارزة فالعلوم بوجه خاص حتى ولو كانت منقولة نقلا عن لغات اخرى تعطى اللغة بعدا حضاريا وامكانية في الاستعمال لاغراض البحث والدراسة والتعلم ٠

١٠ ـ مدى استعمالها خارج نطاق الامة :

تستعمل اللغات العريقة عادة خارج نطاق الامة التي تتكلمها في المواقع التالية : ـ

آ ـ للاعمال (التجارة ، والصناعة .... الخ) .

ب ـ كلغات علمية تدرس فيها العلوم الطبيعية والاجتماعية .

ج ـ في المحافل الدولية ووسائل الاعلام العالمية .

د ـ كلغة رسمية (Lingua franca) ويحصل هذا عندما يتكلم قوم لغات قليلة الانتشار او يتكلمون عدة لغات يصعب التفاهم فيما بينهم بها فيضطرون لاستعمال احدى اللغات العريقة او الواسعة الانتشار (corder ص ـ ٢٠٨) .

هـ ـ في صيغتها المبسطة (pidginized) وتعرف الصيغة المبسطة للغة (pidgin) بانها لغة جرى تقليص مفرداتها وتراكيبها الى درجة كبيرة وهي ليست لغة اصلية لمن يستعملها (Hall ص ١٤٢) .

١١ ـ قابليتها على النمو :

للغات العريقة اساليب معقدة ومتنوعة في خلق التراكيب والالفاظ الجديدة واخضاع الدخيل اليها ومن ذلك الاشتقاق والتصريف والقياس والبحث وفي بعض اللغات وسائل مبتكرة تنفرد بها دون غيرها عن اللغات ومثال ذلك التضعيف (reduplication) في الانكليزية في ان يبتدع اصطلاح او يستعار تعبير حتى يخضع لاساليب النمو المختلفة ويتطور الى تعابير متعددة فقد استعارت الانكليزية مثلا كلمة (alcohol) الكحول من العربية وخلقت منها الفاظا عدة منها :

آ ـ alcoholic كحولي

ب ـ non-alcoholic خال من الكحول

ج ـ alcoholic (اسم) مدمن على الخمر

د ـ alcoholics مدمنون على الخمر

هـ ـ alcoholism الادمان على الخمر .

وهكذا تحولت الكلمة الواحدة الى تعابير متعددة اضافت للغة الانكليزية ثروة في مفرداتها •

١٢ ــ مدى تمثيلها لشخصية الامة في وحدتها وتفرقها واختلاف اجزائها :

ففي اللغات العريقة تجد لهجة رسمية او فصحى تستعمل في وسائل الاعلام والمجالات الاكاديمية والمواقف الرسمية المختلفة وصيغ محكية تختلف باختلاف طبقات المجتمع وباختلاف المواقع الجغرافية ولكل مهنة او صنعة شكل معين يختلف عن الاشكال الاخرى فاللغة العريقة اذا تكفل لابناء الامة وجود ما يتفقون عليه جميعا وتكفل لهم تباينا يلبي حاجاتهم وظروفهم المختلفة واكثر من هذا فأن اللغة العريقة اصيلة نابعة من كيان الشعب الذي يتكلمها وليست دخيلة عليه فيستطيع السامع ان يميز بين الفرنسية والالمانية وبين الروسية والانكليزية وبين الايطالية والاسبانية وهكذا حتى دون ان يفهم معنى ما يقال اذا كان ما يقال صادرا عن متكلم اصيل لتلك اللغة ، لانه لكل من تلك اللغات العريقة طابعها المتميز والخاص بها •

ثالثا ــ الوزن الحضاري للغة العربية :

لقد اجبت او حاولت الاجابة عن السؤالين من (مجموع ثلاثة اسئلة) اللذين طرحا في مستهل مقدمة البحث وساحاول هنا ان اجيب على السؤال الثالث الذي يتطلب (١) شرحا لموقف اللغة العربية من المعايير التي ذكرتها في القسم الثاني و (٢) تلخيصا لنقاط القوة في الوزن الحضاري للغة العربية وكذا نقاط الضعف و (٣) التوصل الى استنتاج ما يجب ان نسعى اليه لنجعل من لغتنا ارسخ قدما واكبر قدرا بين لغات العالم الكبرى المعاصرة •

١ ــ اللغة العربية التي نستعملها اليوم تنسب الى اللهجة الحجازية تفريقا لها عن اللهجة التميمية وكلتاهما تنسبان الى العربية الباقية (تمييزا

لها عن العربية البائدة) والتي كانت تضم اللهجات الثلاث (اللحيانية والثمودية والصفوية) وهذه تنتسب بدورها الى العربية الشمالية (تميزا لها عن العربية الجنوبية التي تضم المعينية والسبئية والحضرمية والقتباتية والحبشية) وهذه تصنف على انها من اللغات السامية الجنوبية (تمييزا لها عن اللغات الشمالية التي تضم الكنعانية والارامية) وهذه بدورها تنسب الى الفرع الغربي من شجرة اللغات السامية (الصالح ص ٧١) .

لقد اصبحت اللهجة الحجازية اللغة الفصحى لكل العرب بعد ظهور الاسلام ونزول القرآن الكريم بها واصبحت اللغة الرسمية للدولة الاسلامية وللدول الاسلامية والعربية التي اعقبت ذلك فللغة العربية شكل فصيح واضح المعالم من حيث نظامه الصوتي والنحوي بقي مستعملا منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا مع شيء من التطور في المفردات وفي بعض النواحي الصوتية الطفيفة نسبيا وكما ان ظهور الاسلام ادى الى كون اللهجة الحجازية اللغة الرسمية للعرب فقد ادى ايضا الى استعمال تلك اللهجة في الكتابة بشكل اوسع مما كانت عليه سابقا وكان الدافع هو الحفاظ على النصوص القرآنية بشكل مضبوط وسليم من التحريف .

فاللغة العربية اذا واضحة المعالم ولا خوف عليها من الدخيل مهما كبر حجمه لانه يواجه كيانا ثابتا متماسكا يعترف به جميع المتكلمين بها ويصبون للتمكن فيه .

٢ ـ نتيجة للتطور الحاصل في مفردات اللغة العربية وفي اساليب التعبير فقد استطاعت اللغة العربية ان تكون وسيلة للتعبير عن حاجات متكلمها في كافة نواحي الحياة غير انها لم تفلح في ان تصبح لغة التدريس في الكليات العلمية (عدا جامعة دمشق) فهي في هذا المجال « لا تزال وئيدة الخطو » (منتصر ص ٤) لم يدخلها التطور الكافي لان تصبح كذلك .

٣ ـ للحديث عن مفردات اللغة العربية علينا ان نتحدث اولا عن

الذخيرة الموروثة من المفردات وعن الكسب الجديد منها • فمن حيث الذخيرة الموروثة نجد ان اللغة العربية تفوق في غناها في هذا المجال كافة اللغات السامية الاخرى وان معجم العربية من اضخم المعاجم وان المرء ليقف حائرا امام هذا البحر من الالفاظ • وهذا الغنى من المترادفات والاوصاف (فريحه ص ١٢) • اما الكسب الجديد فهو كثير الا انه يقصر عن الوفاء بكافة حاجات العصر خصوصا ما تعلق منها بالعلم الحديث علاوة على كونه مشتت ومتضارب بسبب اختلاف الجهات التي ادخلته الى العربية •

٤ ــ للغة العربية نظام كتابي خاص بها فهي بذلك في اعلى السلم من هذه الناحية بين لغات العالم • ونظامها الكتابي نظام هجائي متطور مكون من (٢٨) حرفا فقد كانت الكتابة العربية الاولى تستعمل الخط المسند ومن ثم الخط النبطي ومن ثم ظهر نوع ثالث مشتق من الرسم النبطي السابق ويمثل الرسم العربي الحاضر في اقدم ادواره •• ومن ثم دخل الاعجام (النقاط) تقليدا للرسم السرياني ومن ثم دخل استعمال الحركات الطويلة (آ ، و ، ى) ومن ثم دخلت الحركات القصيرة والشدة والسكون ••• ومن المقطوع به ان معظم هذه الاصطلاحات قد دخل الرسم العربي في القرن الاول للهجرة (وافى ٢٤٦) وتضمن النظام الكتابي العربي الارقام العشرة بضمنها الصفر كما دخلت ادوات التنقيط مؤخرا كالفارزة والشارحة والفارزة المنقوطة وغيرها ودخل الخط العربي عدد من الرموز في الرياضيات وغيرها من العلوم اسوة بما دخل انظمة اللغات الاخرى •

والكتابة العربية اشكال منها النسخ والرقعة والمثلث الكوفي والفارسي وحروف التاج واشكال حديثة اخرى بعضها محلي وبعضها واسع الاستعمال ولمعظم الحروف العربية اشكال اربعة : اولى ووسطى واخير مربوط واخير منفصل •

ومن صعوبات الخط العربي ما يلي : ـ

آ ـ صعوبة الالتزام بذكر الحركات لدى الكتابة مما يخلق صعوبة في القراءة دون معرفة دقيقة بالنحو والصرف كما ان القـراءة الصحيحة تتطلب فهما مسبقا لمـا هو مكتوب في بعض الاحيـان اضف الى ذلك صعوبة قراءة اسماء الاعلام العربية والاجنبية (وافى ص ٢٥٣) •

ب ـ كثرة النقاط المستعملة في الكتابة العربية فالكتابة الانكليزية مثلا تستعمل نقطتين فقط لحرف i , j بينما تستعمل الكتابةالعربية (٢٢) نقطة تتراوح بين ١ ـ ٣ نقاط للحرف الواحد وهذا يؤدي الى اسراف في الجهد عند الكتابة كما انه يؤدي الى صعوبات في الطباعة واخرى في دقة الكتابة •

ج ـ عدم رسوخ نظام التنقيط المكتسب حديثا وعـدم وضوح قواعد واصول استعماله مما يسبب ارباكا في الفهم لدى القراءة في بعض الاحيان ففي دراسة تحليلية صغيرة قمت بها علـى مصدريـن عربيين ومصدرين باللغة الانكليزية احصيت فيهـا ادوات التنقيط المستعملة في المصادر الاربعة وتوصلت الى النتائج المبينة في الجدول التالي : ـ

النصوص العربية	انواع ادوات التنقيط المستعملة	عدد ادوات التنقيط المستعملة	عدد الكلمات	النصوص الانكليزية
فقه اللغـة (عبد الواحد وافي) ص ٢ — ٨	٩	١٦٦	١٧٨٩	
دراسات في فقه اللغة (صبحي الصالح) ص ٧ — ١٥	١١	٢٤١	٢٢٦٤	
المجموع		٤٠٧	٣٠٥٣	
	١٣	٢٤٧	١٨١٠	
	١٤	٢٨٢	٢٢٤١	
		٥٢٩	٤٠٥١	المجموع

ومن دراسة الجدول السابق يمكـن التوصل الـى الاستنتاجات التالية : ـ

آ ـ تستعمل النصوص الانكليزيـة ادوات اكثـر من النصوص العربية (٥٢٩ للانكليزية و ٤٠٧ للعربية) .

ب ـ تميل النصوص الانكليزية الى التنوع في استعمال ادوات التنقيط اكثر من النصوص العربية (١٣ ـ ١٤ للانكليزية و٩ ـ١١ للعربية) ومن التمحيص الدقيق للنصوص العربية امكن التوصل الى الاستنتاجات التالية : ـ

آ ـ لا تزال ادوات التنقيط تستخدم لاغراض تشبه الزينة بدلا من كونها جزء أساس من النظام الكتابي العربي ، فتجد مثلا استعمال عـدة نقاط .... دون اي سبب يذكر كما نلاحظ استعمال « » مـع

الطباعة بحروف مائلة في الوقت نفسه •

ب ــ تتركز الادوات احيانا في اسطر معينة وتزدحم ازدحاما شديدا وتخلو اسطر عديدة واحيانا فقرات عديدة من اية اداة ، ومثال ذلك ورود ١٦ سطر وثلاث فقرات خالية من اي اداة (الصالح ص ٧ ــ ١٥) •

جـ ــ خلو الكتابة العربية من بعض الرموز بالعلوم كرموز علم الصوت الحديث « وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة » (منتصر ص ٨) •••• « عدا اكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغي ان يتفق على رموز من حروف عربية لها » (منتصر ص ٩) •

٥ ــ من المعروف ان اللغة العربية في فترات مختلفة من تاريخها اعارت اللغات الاوربية ولغات الشعوب المجاورة لها (الفارسية والتركية وغيرها) كلمات وتعابير تختص بالعلوم والتجارة والفلسفة وتعابير دينية مختلفة كما ان اللغة العربية اعارت اللغات الاوربية نظام الترقيم المستعمل حاليا والذي يسميه الانكليز (الارقام العربية) كما اعارت اللغة التركية في فترة معينة واللغة الفارسية وغيرها من اللغات الشرقية نظامها الكتابي الذي لا يزال مستعملا الى يومنا هذا •

٦ ــ سلكت اللغة العربية مسلك اللغات الحية الاخرى فاقرضت واقترضت • فلم يجد العرب القدماء غضاضة في الاقتراض من اللغات الاخرى • وتنحصر نواحي الاقتراض بما يلي : ــ

آ ــ اقتراض الالفاظ :

اخذ العرب من الفرس واليونان الفاظا مختلفة خصوصا تلك التي عبرت عن حاجات لم تكن موجودة في المحيط العربي آنذاك ومنها : المنجنيق والجص ونرجس وساذج والطاجن وآمين ودرهم ودست •••• الخ (انيس ص ١٠٩) •

ب ـ **اقتراض انظمة جملية جديدة :**

لقد تأثر نظام الجملة العربية في الوقت الحاضر بالاساليب الاجنبية من تعابير مثل :

١ ــ كم هو جميل ان ترى •
٢ ــ كثيرا جدا وجدا كثير •
٣ ــ وهو بلا شك ضروري •
٤ ــ سافرت برغم المطر والبرد •
٥ ــ ان احدا لا يستطيع (أنيس ص ٩٨) •

ج ـ **اقتراض اساليب التعبير مثل :**

١ ــ لعل ابرز مثل في هذه الناحية ••• مثل •
٢ ــ ذر الرماد في العيون •
٣ ــ يكسب خبزه بعرق جبينه •
٤ ــ لا يرى ابعد من أرنبة انفه •
٥ ــ لا جديد تحت الشمس •
٦ ــ القى المسألة على بساط البحث (انيس ص ١٠١) •

ليس هنـاك من شك في ان اللغة العربيـة قادرة بل قـد ثبتت قدرتها فعلا على استيعاب كافة انواع النتاج العلمي والادبي عن طريـق الترجمة ولعل العقبة الكاداء التي يواجهها المترجم هي مشكلـة المفردات الفنية في مجال العلوم بصورة خاصة •

والمشكلة في تقديري هي عدم وجود نظامموحد لاستيعاب المفردات الجديدة في مختلف العلوم والحل لها هو توحيد الجهد العربي في مختلف انحاء الوطن العربي في هذا المجال ومحاولة مكتب تنسيق التعريب في الرباط خطوة جيدة في الاتجاه الصحيح • كما اعتقد ان سياسة ثابتـة يجب ان توضح بالتحديد بين الترجمة والتعريب •

فالتعريب ضروري في حالة عدم وجود مقابل جاهز للتعبير الفنـي الاجنبي فاننا « نكلف العربية شططا ونكلف انفسنا جهدا لا طائل تحته ان نحن صممنـا علـى التنقيب في بطـون المعاجم عـن اصول عربية للمكرسكوب والالكترون والنترون والميترون وما اليها مما يعد بعشرات الالوف (منتصر ص ٥) فالاجدر بنا ان نلجأ للتعريب والتعريب هـو نطق كلمة اجنبية على نهج العربية واوزانها (فريحه ص ١٥) ومثال ذلك اوكسجين بدلا من Oxygen (اي تبديل في بعض الحركات) وكذلـك يؤكسد اكسدة .... الخ اما اذا توفر مقابل سهل للكلمة الاجنبية فنلجأ الى الترجمة بدلا من التعريب مثال ذلك المحرار (ترمومتـر) والهاتف (تلفون) والمذياع (راديو) وغيرها .

٧ ـ في اللغة العربية خصائص رمزية لا تقل عن خصائص اية لغة عالمية اخرى ففي مجال اختزال الالفاظ نشهد امثلـة كثيرة في اللهجات الدارجة فيقال أمانة في اللهجة البغدادية ويقصد بها سيارات امانة العاصمة ويقال عليش بدلا من على اي شيء وفي الفصحى يستعمل تعبير ابجدي اشارة الى ما هو متعلق بحروف الهجاء الا ان اللغة العربية لم يتطور لديها اسلوب استعمال بدايات الكلمات للدلالة على مجموعة من الكلمـات كما هو شائع في الانكليزية وفي كثير من اللغات الاوربية .

ومن الخصائص الرمزية للغة العربية ما يسمية علماء اللغة بالتصعيد ومعنـاه (قـدرة اللغة على تجريـد الصور المادية ونقلها الى صعيـد معنوي) (فريحه ص ١٤) . فكلمة عقل كانت تستعمل اصلا للدلالة على الحبل الذي تربط به رجل البعير ، وكلمة مجـد كانت تعني امتلاء البطن للدابة وهكذا ... (فريحة ص ١٤) .

والتوليد صنعة رمزية اخرى ينتج عنها صياغة كلمـات جديدة او اسباغ معان جديدة على الكلمات المستعملة وامثلة ذلـك اللامركزية ، والانكلسو ـ امريكيـة والقرووسطية ـ (اشارة لما يتعلـق بالقرون

الوسطى) واستعمـال القاطرة والمحرك والجريدة وغيرهـا من المعاني الجديدة .

ولا حاجة بنا لشرح التطور الرمزي البلاغي باللغة العربية . فعلوم البلاغة فيها قطعت اشواطا بعيدة يندر ان نجد لغة من لغات العالم ترقى الى مستوى اللغة العربية فيها . كما ان التراث الادبي الرمزي في اللغة العربية قديم وعريق ومتطور وحافل بالامثلةالحية واسلوب القرآنالكريم مثال حي على ذلك .

٨ ـ تعرضت اللغة العربية قديما الى اعمق الدراسات التي تناولت كافة نواحيها الصوتية واللغوية ودراسة المفردات وغيرها وبرز من علماء اللغة العربية افذاذ يشار اليهم بالبنان . ففي النواحي الصوتية برزالخليل بن احمد الفراهيدي (١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) وكتاب العين الذي سبقالدراسات اللغوية الحديثة بالف ومئتي سنة في التوصيل الى افكـار اساسية في الاستناد على الشكل وليس المعنى في التحليل اللغـوي وفي استعمال الرمز بديلا عن الصوت وفي تصنيف الاصوات خصوصا في التمييز بين السواكن والحركات (المعتلة) وفي تحديد طبيعة الشدة في العربية وفي صف الاصوات واتخاذ المخارج اساسا في وصف السواكن وفي وصف تضعيف السواكن وربطها بالشدة وفي مد الحركـات وفي التـرابط بين اصوات اللغة وابراز اهمية ترددها واخيرا في التلميح الى التضاد كأساس للفصل بين الوحدات الصوتية (الحماش ص ٢٠) .

وفي الدراسات النحوية كان الغرض الاساس من دراسة النحو أول الامر ضبط القواعد التي يسير عليهـا اعـراب المفردات ليسهل تعلمها وتعليمها .... ولكي يعصم الناس من اللحن الذي اخذ يتفشى منـذ صدر الاسلام من جراء تطور اللغة واختلاط العرب بالعجـم .... حتى شمل جميع البحوث التي يطلق الفرنجة على مثلها (السنتكس التعليمي) (وافى ص ٢٦٧) .

اما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغيير ابنيتها بتغيير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التي تطلق الفرنجية على مثلها (المورفولوجيا التعليمية) (وافى ص ٢٦٧) •

ومن ابرز النحاة العرب سيبويه (من البصريين) والكسائي والعراء وابن سلام (من الكوفيين المحدثين) والزمخشري وابن الحاجب وابن معطى وابن مالك (صاحب الالفية) والزنجاني والسكاكي وابن هشام (من الكوفيين المتأخرين) • واهتم العرب بعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) وبرز منهم علماء مثل الجاحظ وابي عبيدة وابن المعتز والمبرد وابي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم •

كما اهتم العرب بدراسة فقه اللغة العربية ومسائل علم اللغة العام ومن اشهر الكتاب الاصمعي وابن فارض وابن جنى والثعالبي والسيوطي (وافى ص ٢٧١) •

وقدم العرب دراسات في متون اللغة فدرسوا طوائف معينة من الالفاظ وفرزوا مفردات معينة لاغراض خاصة كالحمل والولادة والرضاع والفطام وغير ذلك • وفي مجال المعاجم التي تشرح معاني المفردات برز (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي ومعجم (الجمهرة) لابن دريد (والبارع) للثعالبي و (التهذيب) للازهري و (المحيط) للصاحب بن عباد و (الصحاح) للجوهري و (اساس البلاغة) (للزمخشري) و (النهاية) لابن الاثير و (لسان العرب) لابن منظور المصري و (المصباح المنير) للفيومي و (مختار الصحاح) للرازي و (القاموس المحيط) للفيروزابادي (وافي ص ٢٧١) ان معظم الدراسات اللغوية العميقة جاءتنا من السلف وان القليل قد كتب في الوقت الحاضر (مما له وزن علمي عالمي) عن اللغة العربية عن الدراسات الاجنبية الحديثة ودراسات

المستشرقين الاجانب وفي رأيي ان اللغة العربية تحتاج الى دراسات علمية في النواحي التالية :

آ ـ تحليل الانظمة الصوتية لكافة اللهجات المهمةفيها مع ما يتضمنه العمل هذا من اعداد لرموز صوتية حديثة دقيقة تصلح لتسهيل دراسة هذه اللهجات وكذلك النواحي النحوية لهذه اللهجات ومقارنتها ببعضها •

ب ـ اعداد معاجم جديدة مرتبة ترتيبا دقيقا تهتم بالدارج من الالفاظ اضافة الى القديم وتبحث في تعقيب معاني الكلمات واصولها وتطوير مدلولاتها فرغم ظهور معاجم حديثة لا بأس بها مثل (محيط المحيط) لبطرس البستاني (١٨٦٩) و (المنجد) للاب لويس معلوف اليسوعي الا ان المعاجم الحديثة لا تزال تقصر عن مباراة المعاجم الاوربية المعاصرة •

ج ـ تفتقر الدراسات اللغوية العربية الى دراسات تقارن بينها وبين اللغات الاخرى خصوصا اللغات الكبرى في العالم كالانكليزيةوالفرنسية والالمانية والروسية وغيرها •

د ـ رغم ان دراسات طيبة قد لوحظت مؤخرا في دراسة الخط العربي الا اننا لا نزال قاصرين في تمحيص الخط العربي وبيان ما يصلح منه للكتابة اليدوية وما يصلح منه للمطابع • فلدى تمحيصنا لكراسات الخط المستعملة للمدارس مثلا لم نشعر بوجود تحسس عميق لحاجات المواطن الاعتيادي في تعلمه للكتابة للاغراض اليومية بل لاحظنا خلطا بين اعداد المواطن للكتابة اليومية واعداد الخطاط الفنان •

هـ ـ تفتقر العربية الى دراسات علمية عن اساليب تعليمها للمبتدئين من المتكلمين بها وللاجانب •

و ـ تفتقر العربية ايضا الى دراسات حيوية كاحصائيات تردد

المفردات وتردد النماذج النحوية والصوتية المستعملة وغرض مثل هـذه الدراسات بيان المهم من هذه العناصر لمن ينوي تعلم اللغة اليومية •

٩ ـ يشهد فوكسون ان العربية احدى لغات العالم العظمى وفيها ادب مشهود له بالعظمة لمدة تقارب الف وخمسمائة عام • فالادب العربي قبل الاسلام والمعلقات الشعرية الخالدة اشهر من ان تحتاج الى تعريف وقد كان للعرب قبل الاسلام باع حتى في الملاحم ـ الخالدة التي سميت (بايام العرب) والتي كان ابطالها شيوخ العرب انفسهم (البياتي ص ٦٢) والقرآن الكريم اخلد نص بالعربية وكذا شروحه وتعابيره وما كتب عنه وحوله يعتبر تتاجا خالدا ابد الدهر •

وفي عصرنا هذا يندر ان تجد مكتبة من مكتبات العالم الكبرى ليس فيها مجموعة من كنوز المخطوطات العربية من مختلف فروع المعرفة • الا ان العربية في وقتنا هذا رغم غناها بالنتاج الادبي مـن مختلف الانواع لا تزال بحاجة الى جهد كبير لاغنائها بما يوازي ذلك من النتاج العلمي الحديث • فتشتت الامة العربية الى دويلات صغيرة مـن اسباب تشتت الجهد في هذا المضمار، هذا اضافة الى صعوبة توحيد المصطلحات العلمية العربية الحديثة مما يجعل ظهور تراث علمي عربي موحد امر يحتاج الى جهد كبير كما ان الدوريات العلمية العربية لا تزال متخلفة في كثير من التخصيصات وهذا يعوق النتاج العلمي المدون بالعربية ويفقـده عنصرا مهما من عناصر الحيوية •

١٠ ـ تستعمل اللغة العربية في المحافل الدولية اسوة بلغات العالم العظمى وهذا دليل اخر على اهميتها ووزنها الحضاري ، هذا اضافة الى استعمالها في الاجهزة الاعلامية العالمية (الراديو والصحافة) •

وتستعمل العربية في المجالات الدينيـة في طول العالـم الاسلامي وعرضه وتدرس في بلدان عدة لمختلف الاغراض منها الاغراض الدينية

والاغراض الاكاديمية والاغراض التجارية وما شاكلها •

وتستعمل اللغة العربية كلغة رسمية في الحبشة مثلا خصوصا بين المسلمين الاحباش الذين يتكلمون لغات مختلفة (Ferguson ص ١٢٠) كما تستعمل لاغراض مختلفة في تلك البلاد كما تشهد التقارير العلمية ان العربية تستعمل بشكل واسع في افريقيا (الصومال وكينيا) ،فالادب العربي واللغة العربية يجذبان اليها سكان تلك البلاد حتى ان قسما كبيرا من الادب الصومالي الحديث مدون باللغة العربيــة (Andrzeiewski ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣) كما يذكر فوكسون (ص ١١٧) انه في « مناطق معينة (من افريقيا) وتحت ظروف اجتماعية معينة حيث استعملت العربية لاغراض محدودة من قبل اناس يتكلمون لغات اخرى فقد نما استعمال نوع مبسط من العربية جرى فيها تقليل المفردات والقواعد النحوية البارزة بشكـل كبير • ومن اشهر الامثلة على ذلك لغة التركــو في منطقة بحيــرة جاد واواسط افريقيا والعربية المعروفة (بالبمباشي) التي انتشرت جنوبا من السودان » •

١١ ــ للغة العربية خصائص كثيرة تجعل امكانيات النمو فيها قوية وبارزة فهي تمتلك القدرة على « توليد » التعابير الجديدة بوسائل كثيرة منها ما يلي / =

آ ــ **القياس** : « وهو استنباط مجهول من معلوم فاذا اشتق اللغوي صيغة من مادة من المواد اللغوية على نسق صيغة مألوفة في مادة اخرى ، سمي عمله هذا قياسا » (انيس ص ٩) • ومــن امثلة القياس استعمال المصادر القياسية كالجاهلية واللصوصية والرهبانية وغيرها • واستعمال حطاب من حطب قياسا على صيغة المبالغة فعال وكذا تجارة وحداده وسباكه وحياكة (انيس ص ١٦) ويقابل هذا امثلة قليلة مماثلة لهذا في الانكليزية يسمى عادة (analogy) او (back formation)

ب ــ **الاشتقاق** : « وهــو عملية استخراج لفظ من لفظ او صيغة

من اخرى والقياس هو الاساس الذي تبنى عليه **هذه** العملية » (انيس ص ٤٦) •

ج ــ النحت : هو اختزال لبنية الكلمات ويعتبر مــن ابرز صفات القدرة على النحو في اللغة العربية ومن امثلته من الافعال •

بسمل اي قال بسم الله الرحمن الرحيم

جعفل اي قال جعلت فداك

ومن الاسمــاء :

المشاالة اي ان يقول المروء ماشاء الله

الحسبلة اي ان يقول المروء حسبى الله

ومن الصفـات :

عبشمي اي من عبد شمس

عبدلي من عبد الله

خضرمي من حضرموت وكذلك تحضرم وتبعشم

وامثلة اخرى **كالمشاوز** اي المشمش ذو اللوز الحلو **ودرعمي** اي من درا العلوم **وانفمي** نسبةالى الانف والفم وهكــذا (انيس ص ٧١ ــ ٧٦) •

د ــ الارتجال : اي اختراع الكلمات والتعابير اختراعا تصبح فــي اول الامر مألوفة في محيط ضيق لاتلبث بعدها ان تتسع دائرتهــا ويعم استعمالها وفي العربية امثلة كثيرة على ذلك •

هـ ــ الصرف : وهو ما يسمى بالانكليزية (inflexion) وتعتمــد عليه العربية اعتمادا كبيرا في خلق معان عربية جديدة بينما تعتمد بعض اللغات كالانكليزية مثلا على مواقع الكلم في الجملة بدلا منه •

١٢ ــ العربية لغة اصيلة تطبع متكلميها بطابعها الخاص وتميزهم عن غيرهم بشكل واضح • فالعربية تدرب متكلميها على الفاظ خاصة بها

لا تتوفر في غيرها فهي بهذا لها شخصيتها الفذة ولا نزاع في ذلك والعربية من الناحية الاخرى لغة حيوية كانت وما زالت فيها من المرونة والتنوع ما يكفي للوفاء بالحاجات المختلفة لمتكلميها اينما وجدوا او اي مسلك سلكوا فالعربية الفصحى « او العربية الفصحى الحديثة » (modern standard) تجمع متكلمي العربية وتسهل التفاهم بينهم وتميزهم عن بعضهم في الوقت نفسه لهجاتهم المختلفة وقد كان هذا ساريا في كل العصور التي مرت بها العربية خلافا للمعتقد ـ السائد عند البعض بأن العربية الفصحى كانت سليقة على السنة الناطقين بها (وان ظهور اللهجات عند اختلاط العرب بغيرهم كان يمثل انحطاطا حل بالعربية) (ابراهيم ص ١) هناك من الدلائل التاريخية الواضحة بان العربية الفصحى لم تكن سليقة على كافة السنة العرب وانها لغة مشتركة التزم بها لتحقيق التفاهم الدقيق بين ابناء الامة وان وجودها لم يلغ وجود اللهجات وليس صحيحا القول بان اللهجات الحالية تفرعت عن الفصحى بل العكس فلقد كانت اللهجات موجودة ولا تزال وان الفصحى تمثل احدى هذه اللهجات التي من صفاتها استقطابها للعوامل المشتركة بين اللهجات العربية (ابراهيم ص ٧) في الخلاصة ان ظاهرة اللهجات في اية لغة دليل على حيويتها وثقل وزنها الحضاري وقدرتها على التكيف بمختلف الاجواء والحاجات والعربية غنية بهذا ومليئة بالحيوية .

رابعا ـ الخلاصة :

للغة العربية صفات اللغة العريقة من حيث وضوح صفاتها الاساسية ووفرة مفرداتها القاموسية الموروثة ولوجود نظام كتابي خاص بها ولانها اعارت لغات عديدة مفردات كثيرة ونظاما كتابيا كما انها استعارت مفردات وتعابير كثيرة استطاعت ان تطورها وتخضعها لنظامها الصوتي والنحوي كما اثبتت قدرتها في مختلف الحقب على استيعاب كافة انواع النتاج العلمي والادبي ، واثبتت قدرتها على التطور الرمزي من حيث الاشكال

اللغوية والمحتوى الادبي كما ساهم ابناؤها والمتكلمون بهـا في تقديم دراسات علمية ودقيقة شملت نواحيها الصوتية والنحوية والبلاغيةوتوفر فيها ادب ـ خالد قديم وحديث واستعملت خارج نطـاق الامة العربية كلغة رسمية لشعوب عديدة وكذا بشكلها المبسط كما انهـا اصيلة في تمثيلها لشخصية الامة العربية ولزيادة وزنها الحضاري يتوجب علىابنائها العمل على تحقيق ما يلي : ـ

١ ـ العمل على اكساب اللغة العربية الفصحى مرونة اكثر وقابلية اعظم على التطور والاقلاع عن التزمت تجاه ما يسمى (بالتيار الدخيل) لانه ليس على العربية خطر ذلك لان ثباتها ورسوخ قدمهـا من أسبـاب ديمومتها .

٢ ـ العمل على زيادة مفرداتها القاموسية الحديثة خصوصـا في حقل العلوم الصرفة والتطبيقية وفي حقل التكنولوجيا الحديثة .

٣ ـ التفكير بطرائف لتلافي نواقص النظام الكتابي العربي وتطوير الشكل المستعمل في الكتابة اليدوية ووضع قواعد واصول له والعملعلى تحديد مواقع ادوات التنقيط الحديثة واغنائها بالرموز الضرورية للعلوم والفنون كافة .

٤ ـ بذل جهد مضاعف لدراستها وتحليل لهجاتها والاحاطة بنظامها الصوتي وابراز ثروتها في المفردات ومقارنتها باللغات الاخرى واجـراء البحوث العلمية والتطبيقية في نواحي الكتابة وتطويرها .

٥ ـ القيام بحملة مركزة لنقل العلوم والفنون والادابوتطوير ثروة اللغة العربية في الدوريات العلمية المتخصصة .

خامسا ـ المراجع :

آ ـ المراجع العربية :

١ ـ انيس ، دكتور ابراهيم . من اسرار اللغة . الطبعة الثالثة .

مكتبة الانجلو المصرية • القاهرة / ١٩٦٦ •

٢ ـ وافي الدكتور علي عبد الواحد • فقه اللغة • الطبعة الخامسة• لجنة البيان العربي • القاهرة ١٨٦٢ •

٣ ـ الحماش ، الدكتور خليل ابراهيم « دراسة مقارنة للنواحي الصوتية في كتاب العين والنظرية اللغوية الحديثة » مجلة كلية الاداب المجلد السادس عشر ١٩٧٣ •

٤ ـ منتصر ، الدكتور عبد الحليم ، « خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي » رسالة العلم • المجلد ٤١ • العدد ١ مارس / ١٩٧٤ •

٥ ـ فريحه ، الدكتور انيس • نحو عربية ميسرة • دار الثقافة، بيروت / ١٩٥٥ •

٦ ـ الصالح ، الدكتور صبحي • دراسات في فقه اللغة ، الطبعة الثالثة دار العلم للملايين • بيروت / ١٩٦٨ •

٧ ـ البياتي ، الدكتور عادل جاسم • الملاحم العربية ومقارنتها بالملاحم الكونية مجلة الكتاب ، العدد الرابع ، ١٩٧٤ •

٨ ـ ابراهيم ، الدكتور محمد حسن « نشوء اللهجات وحقيقة الفصحى » بحث مطبوع على الآلة الكاتبة ، معد النشر في مجلة افكار العدد ٢٤ ايلول ٩٧٤ •

ب ـ المراجع الانكليزية :

1. Andrzejewski, B. W. «Poetry in Somali Society», (1963) Cited in **Socio-linguistics.** Edited by J. B. Pride and Janet Holmes. Penguin, Aylesbury, Bucks, 1972 pp. 252-259.

2. Bright, W. and Ramanujan, A. K. (1964) «Socio-linguistic Variation and Language Change». Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 157-166.

3. Cazden, C. B. «The Situation: A Neglected Source of Social Class Differences in Language Use», (1970). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 294-313.

4. Corder, S. Pit. **Introducing Applied Linguistics.** Penguin Education, 1973.

5. Dil, Anwar, S. «Towards a General Model of Language Policy Planning», **Anthropology and Language Science in Educational Development,** UNESCO, Educational Studies and Documents, No. 11, 1973.

6. Ferguson, C. A. «The Role of Arabic in Ethiopia, A Socio-Linguistic Perspective», (1970). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 112-124

7. Hall, Jr., R. A. «Pidgins and Creoles as Standard Languages,», (1972). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 142-154.

8. Hanger, E. «Dialect, Language, Nation», (1966). Cited in **Socio-Linguistics,** pp.97-111.

9. Hoijer, Harry, «The Relation of Language to Culture». Cited in **Anthropology Today: Selections.** Edited by Sol Tax. Phoenix Books. The University of Chicago Press, Chicago, 1962.

10. Labov, W. — «The Study of Language in Its Social Context», (1970). Cited in **Socio-Linguistics,** pp. 180-202.

11. Pride, J. B. and Holmes, J. — «Introduction» to **Socio-Linguistics,** pp. 7-11.

★ ★ ★

ابن خلدون والحقيقة التاريخية

الدكتورة زاهية قدورة
عميدة كلية الآداب
الجامعة اللبنانية

١ ـ رائد الحقيقة :

يقول روبرت بريفو Robert Briffault في معرض كلامه على انعتاق البشرية التدريجي من الهمجية والتوحش :

« اما ان يكون القرد الوحش أبا للانسان المفكر فهو أعجوبة ، وان يكون الهمجي المهذار أبا للاغريقي البركليسي (من عصر بركليس) هو ايضا أعجوبة ولكن ليس دون هذه الاعجوبة أن يكون القرن العاشر أبا للقرن العشرين »[١] •

صحيح ان القرن العاشر حفل بعدد من العمالقة في الفكر والادب والعلم وغيرها من ميادين المعرفة وكلهم تقريبا من العرب والمسلمين ،ولكن ما لا يقل عن تلك المعجزة ان يسبق ابن خلدون فلاسفة التاريخ المعاصرين الى بحث كثير من القضايا التي تدخل في صميم هذا الموضوع •

ولسنا هنا في معرض الاشادة بعبقريته ، فقد كفانا ذلك اعلام الباحثين في مئات الابحاث ، وفي عدد من المؤتمرات • ويكفي هنا ان نورد وصف الاستاذ سارطون بقوله :

« كان ابن خلدون مؤرخا وسياسيا وعالم اجتماع واقتصاد ، ومن أعمق الباحثين في الشئون الانسانية ، وشديد الولع بتحليل ماضي

1 — Robert Briffault: The Making of Humanity (New York, 1930, p. 7)

البشرية لفهم حاضرها ومستقبلها • لم يكن أعظم مؤرخ في العصور الوسطى شمخ كالمارد فوق قبيلة من الاقزام فحسب .بل وكان ايضاواحدا من رواد فلسفة التاريخ سبق مكيافلي وبودان وكونت وكيرنوتت •

ولا يقل عن هذا روعة أن ابن خلدون اقتحم ميدان التأمل في ما تدعوه اليوم بأساليب البحث التاريخي(١) •

وقد أدرك ابن خلدون أن هذا العلم « مستحدث الصنعة »(٢) استوى قائما لديه دون ان يعرف الطفولة ولا الفتوة ، فأشار في اكثر من موضوع الى أنه في حدود علمه يستطيع ان يجزم بأن احدا لم يسبقه اليه • فقال في مستهل حديثه : « واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها ، ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها • حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال وما بعدك » (٣) •

ويعود ابن خلدون الى وضوع الجدة في ما أتى به ، ويعجب لان من سبقه من العلماء لم يفطنوا اليه : يقول : « ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة ما ادرى لغفلتهم عن ذلك . وليس الظن بهم ، او لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا ، فالعلوم كثيرة والحكماء في امم النوع الانساني متعددون ، وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل »(٤) •

1 — Quoted by Charles Issa (ed.) An Arab philosophy of History (London, 1950) p. X-XI.

(٢) عبد الرحمن ابن خلدون : كتاب العبر ، المجلد الاول (دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦) ص ٦٠ •

(٣) عبد الرحمن ابن خلدون : كتاب العبر ، المجلد الاول (دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦) ص ٦٠ •

(٤) المصدر ذاته ص ٦ •

ويأخذ ابن خلدون بعد ذلك على من سبقه انهم اكتفـوا من العلم بثمراته وفي الاخبار دون تصحيحها ، مع ان تصحيح الاخبـار في كل ميدان من ميادين المعرفة امر أساسي : يقول :

« واذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها ، وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه »[١] •

وبهذا أثار ابن خلدون قضية فلسفة المعارف وضرورتها •

وفلسفة المعرفة التاريخية هي التي حفزت ابن خلدون على البحث في الحقيقة التاريخية • وقد وجد حتى فحول المؤرخين يأخذون بظاهـر الخبر دون باطنه في حين أن فن التاريخ قائم على محاكمة الاخبار يقول :

« فأن فن التاريخ ••• في ظاهره لا يزيد على اخبـار عن الايـام والدول ••• وفي باطنه نظروتحقيق وتعليل الكائنات ومباديها دقيق ،وعلم بكيفيات الوقـائع واسبابها عميـق ، فهو لذلـك أصيـل في الحكمة عريق »[٢] •

وكانت نتيجة ابتعاد اولئك الفحول عن النظر والتحقيق والتعليل أن « استوعبوا اخبار الايام وجمعوها ، وسطروها في صفحـات الدفاتـر وأودعوها ،وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفـى تلك الآثار الكثير ممن تقدم واتبعوها وأدوها الينا كما سمعوها »[٣] •

---

(١) المصدر السابق ص ٦١ •

(٢) المصدر السابق ص ٢ ــ ٣ •

(٣) المصدر السابق ص ٣ •

٢ ـ نظريتا التطابق والتوافق (١) (او الانسجام)

Correspondence and Coherence

اعجاب الباحث بطريق ابن خلدون الى الحقيقة التاريخية او التمييز بين الحق والباطل لا يقف عند حد عندما يكتشف أنه يطرح قضيتين من قضايا فلسفة التاريخ التي ينطوي عليهـا البحث عـن الحقيقة في دقة ووضوح يحسده عليهما كتابنا المعاصرون • فقد جعل معيـاره الصحيح الذي « يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه » •

التطابق Correspondence وهو مطابقة الخبـر للوقائع • يقول : « وأما الاخبار عن الواقعات فـلا بد في صدقهـا وصحتها من اعتبار المطابقة • فلذلك وجب ان ينظر في امكان وقوعها »(٢) •

ويشير ابن خلدون في مكان آخر الى مطابقة الخبر لـ « الاحوال » والعوائد والنحل لأن « ذكر الاحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار هو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخبـاره »(٣) ولا يختلف هذا الا من حيث الاصطلاح عن مفهوم نظريـة المطابقة في القرن العشرين • يقول والش : Walsh

« نقول بأن العبارة صحيحة ، اذا طابقت الوقائـع (Facts) ونقول بعكسها أي أنه اذا طابقت الوقائع فهي صحيحة • وعليه تبدو لنا الحقيقة ومطابقتها للوقائع اصطلاحين مترادفين (يمكـن التعبير بأحدهمـا عن الآخر) •• ولكن ما هي الوقائع ؟ ••• هي ما نصفها بقولنـا الصلبة ،

---

(١) راجع بالنسبة الى هاتين النظريتين :

W. H. Walsh: A Introduction to Philosophy of History (London 1951) p. 72 FF.

(٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٥٩ •

(٣) المرجع السابق ص ٥٠ •

الثابتة ، او المعطاة »[1] .

ويشير ابن خلدون الى المعيار الآخر للحقيقة التاريخية وهو التوافق (Coherence) فيذكر في مواضع كثيرة ضرورة موافقة الخبر للاستنتاجات والمفاهيم المسلم بها . فهو يرفض مثلا حكاية العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي ، بأن قاس حالها على بنات الملوك في ذلك الزمان[2] ، كما رفض ما جاء في العقد الفريد من أسباب اصهار المأمون الى الحسن بن سهل في بنته بوران بأن « أمرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال فتانة المحاسن ، فحيته ودعته الى المنادمة ، فلم يزل يعاقرها الخمرة حتى الصباح ، ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه على الاصهار الى ابيها ... يقول ابن خلدون :

.... وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه ، واخذه بسير الخلفاء الاربعة اركان الملة ، ومناظرته للعلماء ، وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه احوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر ... واين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها ، وما كان بدار ابيها من الصون والعفاف » [3] .

ويفضل ابن خلدون تمحيص الخبر بمحاكمته على أساس معياره الذي وصفه ، على سلوك طريق التعديل (تعديل الرواة) ويقول :

« وتمحيصه (الخبر) انما هو بمعرفة طبائع العمران ، وهو أحسن الوجوه واوثقها في تمحيص الأخبار ، وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ، ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع ، وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر

(1) Walsh: Op. Cit; p.p. 73-74.
(2) ابن خلدون : المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٣ .
(3) المصدر السابق : ص ٣٠ — ٣١ .

في التعديل والتجريح » • [1]

ويعبارة اخرى يرفض ابن خلدون الخبر اذا استحال وقوعه مهما كانت منزلة راويه •

٣ ـ أسباب تشويه الخبر :

كان من الطبيعي ان يولي ابن خلدون قضية تشويه الأخبار قسطا من إهتمامه ، فعرض لأسبابه في أكثر من موضع ، وقدم العديد من الأمثلة عليه ، ويجعل في مقدمة تلك الاسباب **التشيعات** للآراء والمذاهب يقول :

« ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه ، واذا خامرها تشييع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشييع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ، فتقع في قبوله الكذب ونقله » [2] •

ومن أسباب التشيع للرأي عند ابن خلدون الحسد والانانية،ويضرب لذلك مثل من قدح في نسب الادارسة والفاطميين • « ومثل هذا وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم اجمعين ••• ويعرضون تعريض الحسد بالتظنن في الحمل المخلف عن ادريس الأكبر »[3]

ويأتي بعد ذلك **الثقة بالناقلين** • فيحث ابن خلدون على تمحيص

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٨ ـ ٥٩ •

(٢) المصدر السابق : ص ٥٥ •

(٣) المصدر السابق : ص ٣٦ •

اخبارهم بالجرح والتعديل [١] • ويدين ابن خلدون التقليد بكل صوره في مواضع كثيرة من مقدمته • وهو يعتقد أن « التقليد عريق في الآدميين وسليل » [٢] ولهذا فهو يحذر منه وان كان الذي يجري تقليدهم أبرز المؤرخين •

« الا ان الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم ، واقتفاء سننهم في التضيق واتباع آثارهم ، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم ، فللعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار » [٣] •

ثم يورد ابن خلدون « الذهول عن المقاصد » [٤] كسبب من أسباب الكذب ومجانبة الصدق فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب » [٥] •

ومن أسباب مجانبة الصدق ايضا **توهم الصدق** وهذا في رأي ابن خلدون ناجم في الاكثر من الثقة بالناقلين ومن الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع فينقلها المخبر كما هي دون تمحيص •

ومن الاسباب كذلك تقرب الناس لأصحاب الشأن بالثناء والمديح واشاعة الذكر بذلك •

« فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة ، فالنفوس مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون الى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة [٦] وليسوا في الأكثر راغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها » •

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٦ •
(٢) المصدر السابق : ص ٣ •
(٣) المصدر السابق : ص ٤ •
(٤) المصدر السابق : ص ٥٦ •
(٥) المصدر السابق : ص ٥٦ •
(٦) المصدر السابق : ص ٥٦ •

واخيرا فان اعظم أسباب مجانبة الحقيقة عند ابن خلدون وهي سابقة على جميع ما تقدم هو الجهل بطبائع الأحوال في العمران .

« فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله ، فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض » . (١)

٤ ـ أدوات الباحث عن الحقيقة التاريخية :

أجمل ابن خلدون متطلبات الصناعة التاريخية بقوله :

« فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو يعرف ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها ، واسباب حدوثها ، ودواعي كونها ، واحوال القائمين بها ، وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر ، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والازيفة واستغنى عنه » . (٢)

من هذا النص نلاحظ تشديد ابن خلدون على ثقافة المؤرخ التاريخية . فعليه ان يلم بسياسات قادة الأمم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم «وسائر مشاركاتهم من ابناء جنسهم » . اذ لا يكفي ما يجري عليه المؤرخون من « ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه والقبه

(١) المصدر السابق : ص ٥٦ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٣ .

وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره » [1] بل لا بد له من شمول النظرة أو سعة المنظور التاريخي بالنسبة لعوائد الأمم ورسومها (نظمها) وأحوالها .

ويرى ابن خلدون ان يحذو المؤرخ حذو المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر لأنه :

« شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا ، وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان ، والجبال والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماما للمؤرخين يرجعون اليه ، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه » [2] .

ويذكر ابن خلدون أن الثقافة التاريخية وحدها هي التي تكشف للمؤرخ تبدل الأحوال في الأمم ، وهذا امر في غاية الأهمية لأن « ...من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الاعصار ومرور الأيام ، وهو داء دوى شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة ، فلا يكاد لا يتفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة.

وذلك ان أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده» [3]

وينبه ابن خلدون الى أن التبدل في أحوال الأمم قد يغيرها تغييرا جذريا ، فتبدو وكأنها خلقت خلقا جديدا .

« واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق : ص ٤٤ .

العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث » [1] .

ولا بد للمؤرخ من أن يفتح عينيه على الحاضر لقياس أخبار الأمم الماضية على ما يساثلها فيه ، ثم يقوم بتعليل اوجه الاتفاق والاختلاف[2] .

ويرى ابن خلدون ان ثقافة المؤرخ التاريخية تؤدي به الى الوقوف على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها . والأطوار الخمسة التي يشير اليها ابن خلدون هي :

الطور الاول :

« طور الظفر بالبغية .. والاستيلاء على الملك ، وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء ..» [3]

الطور الثاني :

« طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع ، والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه . الضاربين في الملك بمثل سهمه » [4] .

الطور الثالث :

« طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فيستفرغ وسعة في الجباية

---

(١) المصدر السابق : ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٣ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣١٣ — ٣١٤ .
(٤) المصدر السابق : ص ٣١٤ .

وضبط الدخل والخرج ، واحصاء النفقات والقصد فيها ، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة ... واجازة الوفود من اشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في اهله ، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه ... » (١)

الطور الرابع :

طور القنوع والمسالمة ، ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لأنظاره من الملوك وأمثاله مقلدا للماضين من سلفه .... ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده ... » (٢)

الطور الخامس :

« طور الاسراف والتبذير ، ويكون صاحب الدولة في هذا الدور متلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه واصطناعه اخذان السوء ، وخضراء الدمن ، وتقليدهم عظيمات الامور التي لا يستنكفون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها ، مستفسدا لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضغنوا عليه ، ويتخاذلوا عن نصرته ، مضيعا من جنده بما أنفق من اعطياتهم في شهواته.. فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون ، وهادما لما كانوا يبنون ، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض ، المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ، ولا يكون لها معه برء الى ان تنقرض » (٣) ومتى تم له هذا تمكن من كشف زيف الاخبار التي تتنافى مع تلك الاصول والقواعد.

وبعبارة اخرى حاول ابن خلدون ان يكشف عن المتغير والثابت في

(١) المصدر السابق : ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

احوال الأمم ، واشار الى ذلك بقوله :

« اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ،ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر ، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه » (١) ونرى ان ابن خلدون وضع اطارا واحدا لجميع الدول بشكل قاطع دون اعتبار للظروف الجديدة التي يمكن ان تخرج الدول من هذا الاطار .

بهذا دخل ابن خلدون فلسفة التاريخ من أوسع ابوابها . بدأ بالاخبار وطرق استخلاص الحقيقة منها بعد تمحيصها فجاء بما لم يجيء به أحد من قبله بعمق وشمول بالغين . ولو قدر له أن يلقي محاضرة عن الحقيقة التاريخية الآن لما احتاج الى تعديل يذكر في مفهومه واصطلاحاته.

---

(١) المصدر السابق : ص ٣١٣ .

تغلغل النفوذ الأوربي وأثره في الحياة الإجتماعية في مصر في عصر الخديوي اسماعيل (٨٦٣- ١٨٧٩)

بحث من إعداد
دكتور صالح رمضان
محاضر التاريخ الحديث
بكلية التربية العليا
بعدن

منهج البحث :ـ

يتناول الباحث تلك الفترة بالدراسة والتحليل ، نظرا لما لها من اثـر بعيد المدى في تاريخ مصر الحديث ، بل انه يمكن القول ان الاحداث التي تمت في الفترة موضوع البحث كانت تمهيدا للاستعمار الانجليزي في مصر ١٨٨٢ ، واهم عناصر البحث هي :ـ

١) الامتيازات الاجنبية وانشاء المحاكم المختلطة •

٢) الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر •

٣) عوامل ادت الى زيادة النفوذ الاوربي في مصر •

٤) تغلغل النفوذ الاوربي بصورة فعلية ، وذلك باشراف الدول الاوربيـة على مالية البلاد •

٥) بعثة (كيف)

٦) صندوق الدين والمراقبة الثنائية •

٧) لجنة التحقيق العليـا •

٨) اشتراك الوزراء الاجانب في الوزارة المصرية لاول مرة •

٩) خلـع اسماعيل •

مصادر البحث :

١ ــ الياس الايوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا (جزءان في مجلدين) القاهرة ١٩٢٣ .

٢ ــ جاك تاجر وجورج جندي : اسماعيل كما تصوره الوثائق . القاهرة ١٩٤٧ .

٣ ــ نجيب مخلوف : نوبار وما تم على يديه . القاهرة ١٩٠٣ .

٤ ــ عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل (جزءان في مجلدين) القاهرة ١٩٣٢ .

٥ ــ ميخائيل شاروبيم : الكافي من تاريخ مصر القديم والحديث (الجزء الرابع) بولاق ١٩٠٠ .

٦ ــ امين سامي : تقويم النيل وعصر اسماعيل (المجلد الثالث) القاهرة ١٩٣٦ .

٧ ــ تيودور روشتين : تاريخ المسألة المصرية (تعريب العبادي) القاهرة ١٩٢٣ .

٨ ــ صالح جودت : مصر في القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٦٠ .

٩ ــ الفريد سكاون بلنت :التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر .
راجع الترجمة الشيخ محمد عبده وبه تمهيدللدكتور عبد القادرحمزة.

١٠ــ د . احمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٥٨ .

١١ــ فؤاد صروف : اسماعيل المفترى عليه (مترجم) لمؤلفه كرابيتس القاهرة ١٩٣٣ .

١٢ــ كرومر : مصر الحديثة ــ ترجمة اسكندر شاهين . القاهرة ١٩٠٨.

١٣ ــ جمال الدين الافغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى . القاهرة ١٩٢٧

المقـدمـة :

ادى اسراف اسماعيل واعتماده على الاوربيين وشديد ثقته بهم الى تورطه في القروض الباهظة التي ناءت البلاد بحملها ، من حيث لم تكن في حاجة اليها ، فكانت الذريعة التي توسلت بها الدول الاجنبية لتعبث بحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن انشاء صندوق الدين ، الى فرض الرقابة المالية على مصر ، الى تأليف لجنة تحقيق اجنبية لفحص شئون الحكومة المالية والادارية ، الى تعيـين وزيرين اوربيين في الوزارة المصرية ، ثم الى تغلغل نفوذ الاجانب عامة في مرافق البلاد •

وقد اثرت كل تلك العوامل في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر اسماعيل ، فقد ادى تراكم الديون الى فرض ضرائب جديدة باستمرار على مختلف طبقات الشعب ، فقاست طبقات الفلاحين والتجار والصناع بوجه خاص ، من اثر تلك الضرائب ، كذلك ادت الضائقة المالية الى عدم صرف مرتبات الموظفين وكذلك ضباط الجيش عدة اشهر مما ادى الى تذمر هؤلاء الضباط وتجمهرهم ، مطالبين بمرتباتهم المتأخرة ، وذلك يوضح لنا مدى سوء الحالة التي كان يقاسي منها مختلف الطبقات • هذا بالاضافة الى ان تراكم الديون كان منفذا لتدخل الدول الاوربية مجتمعة ثم انجلترا منفردة وذلك باحتلالها مصر في عام ١٨٨٢ •

الامتيازات الاجنبية وانشاء المحاكم المختلطة :

ان نظام الامتيازات الاجنبية ، الذي منحته الدولة العثمانية للدول الغربية ، والذي طبعه في مصر التي كانت جزءا من الدولة العثمانية ،يقضي ذلك النظام بان (يكون مرجع رعايا الدول الغربية في شؤونهم التجارية

والمدنية والشخصية الى قناصلهم ، والا يفرض عليهم ولا يؤخذ منهم ضرائب الا بعد مصادقة دولهم عليها ، والا يحاكموا امام محاكم السلطة المحلية فيما يتهمون به من جنايات وجنح ومخالفات وفي قضاياهم التجارية والمدنية مع رعايا الدولة ، الا بحضور قناصلهم أو تراجمتهم ، لينالوا من ذلك الحضور حماية من كل ظلم ومساعدة من كل شأن) .

وقد اتصف نظام الامتيازات الاجنبية في مصر بكثير من المساوىء ، مما اضر بمصلحة الدولة والشعب ، خاصة بعد أن ازال محمد علي الحواجز التي كانت موجودة بين الاجانب والهيئة الاجتماعية المصرية ، لاسيما بعد ان فتح باب الهجرة على مصراعيه امام الغربيين بعد حوادث عام ١٨٤٨ السياسية في اوربا التي ادت الى هجرة عدد كبير من هؤلاء الاجانب الى مصر ، وادى ضعف الحكام في مصر ـ بعد محمد علي ـ الى ان يغتنم قناصل الدول ذلك الضعف للاعتداء على حقوق السلطة المحلية التشريعية والقضائية حتى هدموا اركانها .

ولم يكتف هؤلاء القناصل بالنظر في شئون رعاياهم المدنية والتجارية فقط ، بل عملوا على انتزاع كل سلطة على رعاياهم من ايدي الحكومة ، وجعلها من اختصاصهم ، وذلك بالنظر في المخالفات والجنح والجنايات المرتكبة من رعايا دولهم ، كذلك عملوا على اجبار الاهالي على المثول امام محاكمهم القنصلية ، واخذوا يتحيزون لرعاياهم حتى اصبحوا مدعين والوطنيون مدعى عليهم ، زاعمين ان حقوق الاجانب لا يؤمن عليها في المحاكم الاهلية وانهم لا يجدون في اخلاق القضاة الوطنيين ما يجعلهم يثقون بهم .

وكان القناصل يتخلفون عن حضور تنفيذ الاحكام الصادرة ضد رعايا دولهم من المحاكم المحلية ، فيعطل التنفيذ فترة طويلة ، حتى يضطر من حكم لمصلحتهم من الاهالي ان يخضعوا للقضاء القنصلي الجائر ، وقد غالى القناصل في تطرفهم ، حتى انهم استدعوا حكومة البلاد امام محاكمهم

القنصلية ، وحاكموها وحكموا عليهـا لمصلحة رعاياهم طبعا بتعويضات باهظة حتى بلغت تلك التعويضات في المدة ما بين ١٨٦٤ ، ١٨٦٨ ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات •

ومما زاد الحال سوءا . ان تلك المحاكم القنصلية ، كانت كل منهـا تطبق قوانين دولتها هي ولا تعترف بالاحكام التي تصدر زميلاتها ، وكـان القناصل يعملون على نصرة رعاياهم سواءاكان الحق في جانبهم أم عليهم • والغريب في تلك المحاكم انها ابتدائية فقط ، وان استئناف الأحكام الصادرة منها ، كان يجب ان يرفع الى احدى المحاكم في وطن المدعى عليه ، سواء كان هذا المدعى عليه انجليزيا او فرنسيا أو ايطاليا ، فيجب ان تكون الدعوى في وطنه الاصلي مما يكبد المستأنف مصاريف جمة ترهقه ارهاقا شديدا ، وقد يحول المدعى عليه حقه الى شخص ثالث من غير جنسيته ، فيضطـر المتقاضي المسكين الى اعادة دعواه ضد الشخص الثالث ، وهكذا مما يؤدي الى ضياع حق المواطنين في النهاية •

وكانت السلطة بمصر لا يمكنها القبض على الجاني الاجنبي ، الا بعد استئذان قنصليته واحضار احد مترجميها ليكون شاهدا على ان القبض لم يتعد فيه الواجب ولم يسبب اهانة لحضرة المجرم فاذا ابتغت عليه سلمته الى قنصليته •

وعهد اسماعيل الى نوبار (رئيس وزرائه) بمهمة توحيد القضاء في مصر ، فوضع نوبار مذكرة في سنة ١٨٦٧ أوضح فيها عيوب ذلك النظام القضائي ، وبرهن على انه عقبـة في سبيل المصالح الاجنبية وفي سبيـل استقدام اصحاب الكفاءة من الغربيين لتسليمهم زمام الاعمال التي تحتاج الى علم وفن لا وجود لهما في مصر • كذلك ذكر نوبار بان المنتفعين وحدهم من ذلك النظام هم الآثمون المجرمون • وعلى ذلك اقترح نوبار استبدال النظـام القضائي السيء المختل بنظام آخر يحـافظ على روح الامتيازات الممنوحة للاجانب •

ولقي مشروع نوبار معارضة شديدة من اصحاب الامتيازات الذين اخذوا يحذرون حكوماتهم من الموافقة على تعديله أو تغييره ، بدعوى ان ذلك التغيير يعرضهم الى هوى السلطة المصرية الاستبدادية ، وكانت فرنسا في مقدمة تلك الدول التي عارضت المشروع واصرت على بقاء النظام القديم على ما هو عليه •

وتكونت لجنة من قناصل الدول الاوربية في مصر للنظر في مشروع نوبار وذلك لبحث الاصلاحات الواجب ادخالها على النظام القضائي وكان ذلك في عام ١٨٦٩ واستقر الرأي على استبدال الحالة القضائية الفوضوية المتعددة الجهات بسلطة واحدة تسلم مقاليدها الى ثلاث محاكم ابتدائية في الاسكندرية والقاهرة والزقازيق أو الاسماعيلية ، ومحكمة استئنافية عليا في الاسكندرية ، ومحكمة اخرى عليا فوقها ، وكذلك اتفقت اللجنة على جعل اغلبية القضاة فيها اوربيين غربيين ، وتدفع الحكومة المصرية لهم مرتباتهم • ولهذه المحاكم حق النظر في جميع القضايا التجارية والمدنية والقضايا العينية والعقاريةوالشخصية الا ما كان منها بين أجنبيين منجنسية واحدة ، وان يكون اعضاء كل محكمة ابتدائية خمسة ، ثلاثة اجانب ووطنيان ، واعضاء المحكمة الاستئنافية سبعة : اربعة اجانبوثلاثةوطنيون، وقد عارضت الدولة العثمانية هذا الشرط الاخير ، كذلك نص الاتفاق على حق الدول الموقعة عليه بعد مرور خمس سنوات من تعديله أو الغاؤه ، وتقرر العودة الى الحالة السابقة اذا اتضح لها اصوبية ذلك •

وفي اول يناير سنة ١٨٧٦ افتتح رياض باشا تلك المحاكم وكانتوزارة الحقانية (العدل) قد عهدت اليه ، وبدأت تلك المحاكم عملها في فبراير سنة ١٨٧٦ •

ويتضح من نظام تلك المحاكم ان سيطرة الدولة الغربية ظلت باقية، وذلك بجعل عدد القضاة الاجانب أكثر من القضاة الوطنيين ، وكذلك حق تلك الدول بالغاء المحاكم المختلطة اذا رأت ذلك ، تلك الشروط التيجعلت

تلك المحاكم غير مجدية •

كذلك كان من عيوب تلك المحاكم انها اقتصرت على نظر القضايا التي بين الحكومة والاجانب وعلاقات هؤلاء بالوطنيين وذلك بدلا من ان تكون سلطتها شاملة • والواقع ان هـذه المحاكم لم تضع حـدا لتغلغل النفوذ الاوربي في مصر ، بل كان لها حق التدخل في شئون الحكومة والدولـة بوجه عام ، ويتضح ذلك جليا عندما بلغت الازمة المالية اوجها ، وتوقف اسماعيل عن دفع الديون للاجانب فقاموا برفع الدعاوى ضده في تلـك المحاكم التي اصدرت بدورها الاحكام العديدة لمصلحة الرعايا الاجانب ، مما ادى الى احتجاج الخديوي باذ ليس من سلطة تلك المحاكم اصـدار احكام ضده ، وفي نفس الوقت تمسك الاجانب بتلك الاحكام ، مما كان سببا في اشتداد الازمة المالية وتدخل الدول الاوربية وفي مقدمتها انجلترا وفرنسا بحجة حماية مصالح رعاياها والاصرار على تنفيذ الاحكام التـي اصدرتها المحاكم المختلطة •

الصراع بين انجلترا وفرنسا على النفوذ في مصر :

كانت انجلترا وفرنسا من اقوى الدول الاوربية نفوذا في مصر،ولكي يتضح لنا مدى قوة كل من الدولتين في عصر اسماعيل يجب ان نرجـع قليلا الى الوراء حتى يمكن فهم موقف كل منهما تجاه مصر في تلـك الفتـرة •

لقد غزت فرنسا مصر في عام ١٧٩٨ وذلك بحجة ان بعض الرعايا الفرنسيين الذين كانوا يعملون بالتجارة في مصر قد اسيئت معاملتهم،ولكن السبب الرئيس لذلك الغزو هو أن نابليون الاول كان يود ان يجعل من البحر الابيض المتوسط بحيرة فرنسية ، وكان يعتبر مصر ـ ليست فقط مفتـاح تجارة الشرق ـ ولكنهـا تعتبر اساسا للانقضاض على الهنـد الانجليزية • وما لبثت آمال نابليون هذه أن ذهبت ادراج الرياح وذلـك

بانتصار انجلترا في ابي قير وتحطيمها الأسطول الفرنسي ممـا أدى الى فشل الخطط الفرنسية •

وكان اهتمام فرنسا بعد تسوية عام ١٨٤١ ان تمحو من ذهن محمد علي ذلك الشعور السيء الذي كان يكنه لها ، وكان ذلك من الصعب عليها ، ولكنها نجحت في النهاية بفضل مجهودات لويس فيليب ، وكذلك الموظفين الفرنسيين الذين كانوا دائما يشيرون الى نظريات انجلترا العدائية بالنسبة لمصر ، وانها سوف لا تهدأ الا اذا استولت على نصف الطريق المؤدي الى الهند على الاقل ، كما كانوا يشيرون دائما الى تقدمها المستمر في الهند ، وان علاقاتها التجارية سوف تتحول بالتدريج الى ان تمتلك ذلك الطريق من الناحية الحربية ، كما كانوا يرددون دائما ان فرنسا وحدها هي التي تستطيع ان تنقذ محمد علي من مثل تلك النتائج وان تخلصه من ايدي الانجليز • وقد استخدم محمد علي كثيرا من الموظفين الفرنسيين في خدمته ، حيث كانوا يشغلون دائما الوظائف الرئيسية في جميع الدواوين الحكومية ، وكان يساعد هؤلاء الموظفين مجموعة من الموظفين المصريين والاتراك الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا ، وهكذا وقفت فرنسا للمصالح الانجليزية بالمرصاد •

وقد كانت انجلترا تهدف الى مد خط حديدي بين البحرين الابيض والاحمر ، ولكن نجحت فرنسا — ايضا — في الضغط على محمد علي لاستبعاد المشروع ، وذلك بالرغم من انه كان قد اشترى ثلاثين ميلا من القضبان الحديدية وظلت تلك الكمية في مخازن الحكومة اكثر من خمسة عشر عاما بدون استخدام ، ولم يتم انشاء ذلك الخطط الحديدي بين الاسكندرية والسويس الا في عام ١٨٥٦ في عهد الخديوي سعيد باشا •

اما عباس باشا الاول فقد كان يعمل على القضاء على نفوذ فرنسا في مصر وذلك بمجرد توليه الحكم وبدأ في تنفيذ تلك السياسة باستبعاد عدد

كبير من الموظفين الفرنسيين والاوربيين من خدمته • وبعد عباس جاء سعيد الذي عمل على اعادة العلاقات ــ قوية ــ مع الدول الغربية وخاصة فرنسا فمنح فرديناند وليسبس مشروع شق قناة السويس •

وكانت السنوات الاولى من حكم الخديوي اسماعيل ، هي الفترة التي أخذ فيها النفوذ الاجنبي يتغلغل في البلاد ، ماليا وسياسية بالغة انقلب هذا النفوذ في اواخر عهده الى سيطرة مالية وسياسية بالغة الخطورة • وقد كان لفرنسا نفوذ كبير على اسماعيل ، وذلك لتربيته الفرنسية أو السنوات التي قضاها في باريس وايضا لصلته الوثيقة بالامبراطور نابليون الثالث ومحاكاته اياه في مظاهر الابهة والعظمة،ويتضح نفوذ فرنسا جليا من التجاء اسماعيل الى نابليون الثالث لحسم الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس ، مع انه يعلم بالبداهة ان امبراطور فرنسا لا يمكن ان يكون حكما عادلا كذلك استخدام اسماعيل طائفة كبيرة من الموظفين الفرنسيين ، وبلغ هذا النفوذ الفرنسي اقصاه في حفلات افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، فالقناة عمل فرنسي وفاتحها (دلبس) فرنسي وأوجيني امبراطورة فرنسا التي حضرت تلك الاحتفالات كانت تمثل الدولة الفرنسية وهي التي رأست حفلات الافتتاح •

على ان نفوذ فرنسا في مصر اخذ في الاضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ التي كانت بينها وبين المانيا ، وانتهت بهزيمة فرنسا، وأدت الى سقوط نابليون الثالث صديق اسماعيل ، وباضمحلال النفوذ الفرنسي ، اخذ النفوذ الانجليزي في الازدياد حتى انتهى ذلك النفوذ الى الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢ وقد كان مشروع الاحتلال مهددا بالاخفاق لو اشتركت فرنسا ، فقد كان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة احداهما على مصير البلاد ولكن هزيمة فرنسا امام المانيا سنة ١٨٧٠ ادى الى انفراد انجلترا في بسط نفوذها في مصر •

ولقد بذل نوبار مجهودا كبيرا لكي يثير الرأي العام في اوربا المعمل

على التدخل في مصر . ولقد تمكن من التأثير لدرجة كبيرة في الرأي العام الانجليزي وذلك بعد نشوب الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ وقد كان يفضل انجلترا على اي دولة اخرى ، ويعتقد ان تدخلها في مصر سيفيدها اكثر من اي دولة اخرى .

من ذلك يتضح لنا أن اسماعيل ووزرائه قد هيئوا الفرصة لتغلغل النفوذ الاوربي في البلاد ولو انهم سلكوا طريقا آخر غير تلك السياسة التي اتبعوها ، لكان من الممكن ان يغير ذلك من مجرى الحوادث التي حدثت في تلك الفترة الهامة من تاريخ مصر .

وقد عملت انجلترا — منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ — على تثبيت مركزها في مصر ، تمهيدا لاحتلالها ، واخذت في الوقت نفسه تتطلع الى السودان تمهيدا لفصله عن مصر وذلك بتعيين السير صموئيل بيكر حاكما لمديرية خط الاستواء ، كذلك اخذت انجلترا تضغط على اسماعيل لعقد اتفاقية لمنع الاتجار بالرقيق والقضاء على النخاسة في السودان المصري . وتم التعاقد على شروط اقل ما فيها من الحيف ان صار لامراء السفن الانجليزية تمام السيطرة على سائر السفن الحاملة للراية المصرية بالبحر الاحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الاماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما بها من مال ومتاع ومعاقبة اصحابها بالعقوبات الشديدة . وما يوجد من الرقيق سوداني أو حبشي بأي سفينة مصرية ويضبط بمعرفة السفن الانجليزية لدى التفتيش يبقى تحت اذن الحكومة الانجليزية وهي تتعهد باجراء ما يقتضي للحصول على الحرية . وتم توقيع المعاهدة في ٤ أغسطس من عام ١٨٧٧ .

والجدير بالذكر أن ذكر كلمة (رقيق) في تلك المعاهدة ، يأتي دائما مقرونا بكلمتي (السود والحبشيين) ولم تتعرض تلك المعاهدة للرقيق الابيض الوارد من تركيا ، ذلك النوع من الرقيق الذي كان شائعا في مصر في ذلك الوقت ، حتى أنه قد كانت امهات الكثير من الشخصيات

الهامة في مصر حينذاك ضمن ذلك الرقيق الأبيض ، ومن العجيب ان ذلك النوع من الرقيق لم يقصد في تلك المعاهدة ولم تهتم الا بالسود والاحباش ، فكانت معاهدة ابطال الرقيق لا خير فيها ولا فائدة منها لمصر، بل اضرت بمصالحها ضررا كبيرا .

ولما تم للانجليز ما ارادوا من أمر تلك المعاهدة ، اوعزوا الى قنصلهم يومئذ بالضغط على الخديوي لارسال احدهم الى مجاهل خط الاستواء ليكمل ما بداه (صموئيل بيكر) ، وكان هذا الانجليزي الذي قام باتمام تلك المهمة وهو (غوردون) الذي سلمه اسماعيل فرمان ولايته على جميع السودان المصري مكرها تحت الضغط الانجليزي .

ولقد عملت انجلترا على عدم زيادة نفوذ اي دولة اوربية في مصر حتى لا يعمل ذلك على اضعاف نفوذها ، وكانت تهدف اساسا الى السيطرة على القناة وذلك بتثبيت نفوذها في مصر حتى يمكنها تحقيق اغراضها . ولقد ادى وقوع اسماعيل في الضائقة المالية الى بيعه نصيب مصر من اسهم شركة قناة السويس الى انجلترا وذلك سنة ١٨٧٥ مقابل اربعة ملايين من الجنيهات .

وكانت فرنسا على وشك شراء تلك الاسهم ، حين ابرق اللورددربي وزير خارجيةانجلترا — الى الماجور جنرال (ستانتون) بالتأكد من نيةاسماعيل في بيع تلك الاسهم، وأسرع بدفع الثمن قبل ان تنهي فرنسا مفاوضاتها فيذلك الشأن مع اسماعيل .وقد بلغ مجموع تلك الاسهم ١٧٦٫٦٠٢ سهما من مجموع اسهم الشركةالتي تبلغ ٤٠٠٫٠٠٠ سهم ،وقد كتبت جريدة (التيمس) الانجليزية في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ نبأ شراء تلك الاسهم وأشارت بأن الجمهور في هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لا التجارية .

ولقد ربح الخديوي اسماعيل في تلك الصفقة مبلغ ٤٥٠٫٠٠٠ جنيها ، ولكنه لم يتطلع الى المستقبل ، فقد كانت ارباح تلك الاسهم مرهونة لشركة القناة لمدة ١٥ سنة ، فتعهدت الحكومة المصرية بان تدفع فوائد هذا المبلغ للحكومة الانجليزية بسعر ٥٪ وظلت تدفعها حتى سنة ١٨٩٤ ، وقد بلغت تلك الفوائد حتى تلك السنة مائة وعشرون مليون فرنك ، ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ حتى سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٦ ، ١٧ مليونا اي ٨٥ مليونا ، فيكون مجموع ما قبضته من الربح حتى سنة ١٩٠٠ ، ٢٠٥ ملايين من الفرنكات ، اي ضعف الثمن الذي اشترت به من اسماعيل ، هذا غير الربح الذي قبضته من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٥٦ وهو عام التأميم . وان اسماعيل ببيعه تلك الاسهم قد سبب لمصر خسارة كبيرة اضاعت عليها فرصة استعادة النفقات الطائلة التي بذلتها لشق القناة .

وهكذا خسرت مصر خسارة فادحة من تلك الصفقة ، فتلك الاسهم التي باعها اسماعيل لانجلترا باربعة ملايين من الجنيهات بلغ ثمنها سنة ١٩٠٥ ، ٣٢ مليون جنيه ثم صعد الى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٢٩ . هذا فضلا عن اهداف انجلترا السياسية التي قصدت بهذه الصفقة ان تجعل لنفسها الكلمة العليا في شؤون القناة ، ومن ثم تمهد لنفسها التدخل في شؤون مصر بواسطة امتلاك القناة ، فقد استخدمت انجلترا القناة عند احتلال مصر ، كما استخدمتها هي وحلفاؤها اثناء الحربين العالميتين الاولى سنة ١٩١٤ والثانية سنة ١٩٣٩ فاصبحت طريقا حربيا بالرغم من اتفاقية الاستانة سنة ١٨٨٨ التي نصت على حياد القناة .

ويقول مسيو (دي مازاد) في مجلة العالمين في عددها الصادر في اول ديسمبر سنة ١٨٧٥ : (ان شراء انجلترا لتلك الاسهم عملا سياسيا بحتا ، وهذا يدعو للاهمية لانه لو ان هذا العمل لم يؤد في النهاية الى الاستيلاء التام على الاراضي المصرية فانه يعتبر كخطوة اولى لذلك

العمل ، وانها اصبحت تراقب ذلك العميل الذي لجأ اليها واخذت تبذل له المال من جديد وتطلب ضمانات جديدة) وكأن تنبأ في ذلك الوقت بما سيحدث في المستقبل .

والواقع ان صفقة شراء انجلترا لتلك الاسهم تعتبر خدعة قامت بها انجلترا بالنسبة للشرق عامة ومصر خاصة ، كما ان الفرنسيين شعروا ان تلك العملية تعتبر لطمة قوية بالنسبة لنفوذهم في مصر ، خاصة وان انجلترا اخذت من تلك العملية خطوة لسيطرتها على القناة واستخدامها لاغراضها السياسية ، بل خطوة اساسية للسيطرة على مصر كلها .

وفي حديث للسفير الفرنسي في لندن مع لورد دربي
ـ وزير خارجية انجلترا ـ بخصوص مسألة شراء انجلترا لتلك الاسهم ، يتضح الهدف الرئيسي من وراء تلك الصفقة ، وهو عدم ترك الفرصة لاي دولة اجنبية لفرض نفوذها على مصر عامة والقناة خاصة ، وانانجلترا ارادت بتلك الصفقة ان تكون هي صاحبة النفوذ الاول في تلك المسألة دون غيرها من الدول حيث يقول لورد دربي :

(عندما علمت ان هناك مفاوضات مع الحكومة المصرية لبيع تلك الاسهم ، كان امامنا اما أن ندع تلك الفرصة تذهب لغيرنا او نقتنصها نحن ، وانني يمكنني أن اؤكد اننا كنا نعمل على الا يكون لاية دولة اخرى اي نفوذ في مسألة في غاية الاهمية بالنسبة لنا ، فبدلا من أن نعارض « مسيو دلسبس » فهذه فرصة مناسبة لكي تتعاون معه) .

والواقع ان لورد دربي كان يقصد بذلك التعاونالحد من نفوذ فرنسا في مصر ، خاصة وان شركة قناة السويس بالرغم من انها كانت شركة عالمية الا انها في الواقع كانت تعتبر فرنسية ، وذلك لسيطرة فرنسا عليها منذ التفكير في انشائها حتى حفل افتتاحها .

وهكذا يتضح أن كلا من انجلترا وفرنسا كانت أكثر الدول سعيا

لزيادة نفوذهما في مصر حتى يكون لاحداها الغلبة على الاخرى ، فهذا اسماعيل (الخديوي) يلجأ الى انجلترا بعد حرب السبعين سنة ١٨٧٠ (التي كانت بين المانيا وفرنسا وانتهت بهزيمة فرنسا) ، ولكن ما لبثت ان استجدت ظروف ادت الى ايجاد تقارب بين كل من الدولتين (انجلترا وفرنسا) وهي الضائقة المالية التي ادت الى تغلغل النفوذ الاوربي الفعلي في مصر .

عوامل ادت الى زيادة النفوذ الاوربي في مصر :

من المعروف ان ديون الخديوي اسماعيل الباهظة التي اثقل بها كاهل الخزانة المصرية كانت نتيجة للاسراف الزائد عن الحدود والفوائد التي كان يدفعها لكي يحصل على القروض والتي كانت مرتفعة جدا . وفيما يلي بيان لايرادات[1] الدولة في بعض سني حكم اسماعيل مع مقارنتها بالمصروفات تلك المقارنة التي توضح لنا مدى الاضطراب الذي كان سائدا في مرافق الدولة والذي اتاح الفرصة للدول الاوربية للتدخل بحجة تنظيم الحالة المالية للبلاد .

السنة	الايرادات	المصروفات
١٨٦٤	٦٫٩٧٢٫٠٠٠ جنيه	١٣٫٥٥١٫٠٠٠ جنيه
١٨٦٥	٥٫٣٦٥٫٠٠٠ =	١٠٫٧٨٥٫٠٠٠ =
١٨٦٦	٥٫٠٥٨٫٠٠٠ =	١٥٫٢٧٨٫٠٠٠ =
١٨٦٧	٤٫١٢٩٫٠٠٠ =	١٠٫٨٥٤٫٠٠٠ =
١٨٦٨	٥٫٠١١٫٠٠٠ =	١٦٫٦٣٧٫٠٠٠ =
١٨٦٩	٥٫٢٥٥٫٠٠٠ =	١٠٫٥٣٠٫٠٠٠ =
١٨٧٠	٥٫٣٨٩٫٠٠٠ =	١٢٫٣٠٩٫٠٠٠ =
١٨٧١	٥٫٧١١٫٠٠٠ =	١٥٫٠٨٤٫٠٠٠ =

من الجدول السابق يتضح لنا ان المصروفات قد بلغت في بعض السنوات ضعف الايرادات ، كما بلغت احيانا ثلاثة اضعافها ، مما ادى باسماعيل الى الاستدانة من دول غرب اوربا التي استغلت الظروف لبسط نفوذها على مصر . ولقد اعترف الاوربيون انفسهم بتلك الحقيقة .فلقد كتب المسيو « فان بملن » ـ وهو قاض هولندي تولى القضاء في المحاكم المختلطة في عهد اسماعيل ـ يقول في هذا الصدد :

« ان علاقات الحكومات الاوربية بمصر لم تقم الا على قاعدةتحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وان سياستها المبنية على الاثـرة والانانية لم يتخللها اي شعور بالعطف أو بالرأفة او بالواجب نحـو مصر ، ومعظم الاوربيين الذين جاءوا الى هذه البلاد كانوا من احط العناصر ولم يكن همهم الا الاثراء على حساب البلاد » .

وان ثقة اسماعيل المتناهية بهؤلاء الاوربيين كانت من اهم الاسباب التي اضرت بمصالح البلاد كما اضرت اسماعيل ايضا وأدت الى خلعه في النهاية .

ولقد اعترف نوبار بأن ضخامة الديون التي استدانها اسماعيل أدت الى ضرورة التدخل الاجنبي ، ولذا فقد كان يعمل بنفسه ـ أي نوبار الذي كان رئيسا للوزارة في عهد اسماعيل ـ على تنظيم ذلك التدخـل حتى يكون أخف وطأة على مصلحة الاهالي .

وتنيجة لتورط اسماعيل في الديون اصبحت املاكه وأملاك عائلته ملكا للدولة من الناحية الاسمية ولكن كانت تذهب مواردها في الواقع للاجانب الذين كانوا يقومون بالاشراف على مالية البلاد حفظـا لمصالح الدائنين ، واصبحت ادارة البلاد تخرج من ايدي المصريين يوما بعد يوم ، وشغل الاوربيون أهم وظائف الدولة وقاموا باهم الاعمال بها كما اخذوا يمتلكون الاراضي الزراعية وزادت تلك الظاهرة بشكل واضح ، واصبح

هذا الغزو الاوربي ممقوتا للغاية من الشعب المصري مما شجع الصحافة الوطنية الى انتقاد اسماعيل وسياسته ، تلك السياسة التي شجعت على ذلك التدخل الاجنبي في شئون البلاد • وكان لهذه الصحف فضل كبير في اثارة البصائر ، والافكار وتوجيه الانظار الى العناية بشئون البلاد عامة وانتقاد الاعمال التي تصدر عن الحكومة فكانت اداة الظهور حديةالآراء السياسية •

وأهم تلك الصحف ، صحيفة (ابو نضارة) لصاحبها الشيخ يعقوب صنوع وهو مصري اسرائيلي كان يميل الى الدعابة في الكتابة واتصل بجمال الدين الافغاني وقيل أنه هو الذي أوعز اليه اصدار جريدته لانتقاد سياسة اسماعيل ، وقد نفاه اسماعيل من مصر ، فذهب الى باريس واستأنف باصدار جريدته باسماء مختلفة وظل يعارض سياسة الخديوي فينتقد اعماله ، ولم يكن يخلو عدد منها من صور هزلية تنطوي على التعريض الشديد بالخديوي اسماعيل •

وفي اثناء الازمة المالية انعقدت في البلاد عدة اجتماعات بين الاهالي تليت فيها خطب تطعن بشدة في اسماعيل ، وذهب الخطيب في احداها الى وجوب خلع الخديوي ، وعلقت اعلانات كبيرة في الاحياء الآهلة بالسكان ، حرض الرأي العام فيها على المطالبة بقلب نظام الحكومة •

كما لجأ الدائنون الاجانب الى قناصلهم في مصر ، وهتفوا بسقوط الخديوي ووزير المالية ، ولكن المظاهرة التي اساءت الى الخديوي فعلا اكثر من اي مظاهرة اخرى ، تلك التي حدثت في بورصة الاسكندرية والتي اقترح فيها رجال تلك البورصة نزع تلك الصورة التي كانت معلقة للخديوي في البورصة •

وكتب اللورد فيفيان القنصل البريطاني العام في مصر — الى حكومته في ٨ ديسمبر عام ١٨٧٦ حيث يقول :

« انه لمن المتعذر بيان كيف وأين صرفت المبالغ الجسيمة التيوصلت الى يد الحكومة المصرية في العام الماضي ،فان الاربعة ملايين من الجنيهات ثمن اسهم قناة السويس والخمسة ملايين قيمة القرض من الفرنسيين والايراد العام ، كل ذلك قد اختفى بالرغم من تأجيل دفع « كوبومة » الدين الموحد وعدم صرف مرتبات موظفي الحكومة وبقاء جملة ديون ثقيلة بدون سداد » .

ولقد بلغت الضائقة المالية بالبلاد لدرجة اناحد تجار محافظةسواكن بالسودان تبرع بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه لفك ضائقة الحكومة ، وهذه لم تكن المرة الاولى التي تبرع فيها ذلك التاجر . كما ان مجتمع اهل الذمة كان يبغض بوضوح ظهور علامات افلاس الحكومة المصرية ليس فقط بسبب أن مجرد ظهور علامات ذلك الافلاس كان يحرمهم من تلك الامتيازات التي كانوا يستفيدون منها بعروضهم التي لا تنقطع ولكن لان ذلك سوف يعرض استعادتهم لتلك المكاسب للنقصان .

ولقد حدث في شهر اكتوبر عام ١٨٧٥ ان توقفت الخزينة العثمانية عن دفع ديونها وحتى ربيع عام ١٨٧٦ لم تتخذ القوى الاوربية اي خطوة لارغامها على الدفع ، ولقد اعتمد اسماعيل على ذلك واراد ان يقوم بما قام به السلطان وهو اعلان الافلاس كما حدث في تركيا ولكنه تردد على الاقدام على مثل ذلك العمل .

وعندما اخذ الافلاس يتضح يوما بعد يوم بدأ الماليون واهل الذمة من دول اوربا يلحون في الدفع ويحرضون حكوماتهم لكي تتدخل للضغط على اسماعيل ،والتجأ الدائنون الى المحاكم المختلطة التياصدرت احكاما ألزمت بها الحكومة والدوائر الخديوية بدفع المستحق عليها ، وجعلت احكامها مشمولة بالنفاذ المؤقت ، وكان هذا العمل مما لا يتصور اسماعيل حدوثهفي يوم من الايام فأصدر اوامرهالى عمال التنفيذبالامتناع

عن تنفيذ تلك الاحكام امتناعا تاما ، ونشب نزاع عنيف بين هيئة القضاء المختلط والحكومة ، وتدخل قناصل الدول بمصر في النزاع تدخلا سياسيا وانذروا الحكومة بالويل اذا استمرت متماديةفي عنادهاواصرارها عليه • وفي ذلك يقول اللورد كرومر :

« اعتقد البارون دي ميشيل ـ ممثل فرنسا السياسي في القاهرة ـ مصلحة حاملي السندات بحرارة وأدار اذنا صماء الى كل البراهين القائمة على احتياجات الخديوي الضرورية وشقاء الامة المصرية • وكانت النتيجة ان الحكومة الفرنسية كلفت سفيرها في لندن فأخبر لورد سالسبوري ـ الذي خلفلورد دربي في وزارةالخارجية ـ انها تعتقد ان الخديوييستطيع دفع القسط المستحق في مايو عام ١٨٧٨ لو اراد » •

وبناء على ذلك ارسلت الحكومة الفرنسية تعليماتها الى قنصلها في مصر بالاتفاق مع القنصل البريطاني في مصر للعمل المشترك لتلك الازمة وايجاد الطريقة التي يمكن بها سداد تلك الديون • وتكون في البلاد حزب قومي هدفه التخلص من الاجنبي البغيض ، وهكذا تطور النفوذ الدولي في مصر وكان التدخل الغير رسمي في شئون البلاد لاسباب مالية • فهذا مستر جوشن وسير ريفرزولسن ومستبر كيف من انجلترا وكذلك جوبير وفيبيه من فرنسا وسنيور سيولوجي من ايطاليا ، كل هؤلاء اتوا بغرض انقاذ مصر من الافلاس ، وكانوا يمثلون مصالح الدائنين في اوربا ولو انهم كانوا يمثلون قوميات مختلفة ، وهكذا كان تورط اسماعيل في الديون من اهم اسباب تغلغل النفوذ الاوربي في مصر •

تغلغل النفوذ الاوربي بصورة فعلية باشراف الدول الاوربية على ماليةالبلاد :

كان نتيجة تورط اسماعيل في الديون وثقته المتناهية في الاجانب ،

هو تدخل هؤلاء الاجانب في شئون البلاد بصفة رسمية وذلك بالاشراف على موارد الدولة ومصروفاتها ، مما ادى الى القضاء على سلطة اسماعيل وعزله في النهاية ، وقد اتخذ ذلك التدخل اشكالا متعددة ولكنها متحدة الهدف وهو فرض السيطرة الاوربية على مصر ، وذلك باستغلال موقف الخديوي الحرج من الناحية المالية ، ولكي يمكن ادراك موقف الدول الاوربية من اسماعيل ومصر يجب ان تتعرف على الخطوات التي أدت الى ذلك التدخل الفعلي في النهاية •

١ ــ بعثة كيف (ديسمبر سنة ١٨٧٥) :

بدأ ذلك التدخل الاوربي بصفة فعلية عندما طلب اسماعيل من قنصل انجلترا في القاهرة ــ موظف انجليزي له دراية بالنظم المتبعة في مالية انجلترا ليعاون ناظر المالية المصرية في تنظيم مالية البلاد • وما لبث ان عدل الخديوي هذا الطلب وذلك بجعلهما اثنين بدلا من واحد مهمتهما الاشراف على الايرادات والمصروفات وخاضعين لارشاد ناظر المالية في مصر وأمره • وبدلا من ارسال هذين الموظفين ــ حسب طلب الخديوي ــ ارسلت انجلترا بعثة مكونة من خمسة من كبار موظفي حكومتها يرأسهم المستر كيف ــ رئيس الصيارفة ــ وذلك لكي : « تنظر هي والخديوي فيما يسأله من النصح في الشؤون المالية) •

وبالرغم من أن الخديوي لم يسأل نصحا وانما سأل موظفين للحكومة يكونان طوع ارشاد ناظر المالية وأمره ، فان انجلترا حولت طلب الخديوي الى طلب النصح ، وعلى ذلك رأت ارسال بعثة مالية خاصة ، وكان ذلك بعد شراء انجلترا لاسهم مصر في شركة قناة السويس بيومين اثنين ، ولم يكن شراء الاسهم الا عملا سياسيا ، عززته بارسال تلك البعثة وذلك لتنفيذ سياستها في امتلاك مصر •

وكان التجاء الخديوي اسماعيل الى انجلترا بغرض مقاومة النفوذ

الفرنسي ، وهذه سياسة لجأ اليها لحماية نفسه ، وذلك لالغاء الفحص التام للحالة المالية للبلاد ، ولكنه بعمله هذا قد فتح الباب للتدخل الاجنبي والذي لم يتمكن من اغلاقه بعد ذلك • لقد اذن اسماعيل للمستر كيف بالتنقيب في ادارة مصر وماليتها على امل أن تقريره سيظل سرا مكتوبا بين الخديوي والحكومة البريطانية في سبيل تقديم المساعدة المالية للحكومة المصرية • ولكن ما لبث رئيس وزراء انجلترا يهدد بنشر ذلك التقرير ، ووافق اسماعيل على نشر تقرير (كيف) وكان ذلك ضربة قاضية وجهت اليه مما دعى اسماعيل الى ان يقول : (لقد احتفروا لي القبر) واعترف مستر كيف نفسه بأن بعثته (قد اقفلت باب السوق الماليه في وجه الخديوي بدلا من أن تساعده على الاقتراض) •

ولقد كان هذا التقرير بناءا على ما اولى به الخديوي وموظفوه للبعثة بكل امانة ، تلك الامانة التي أدت الى خلعه في النهاية ، لقد اعلن مستر (كيف) في تقريره أن تحرج مركز مصر المالي كان نتيجة الانفاق عن سعة والاسراف الزائد عن الحد والرغبة في تقليد حضارة الغرب والاخلال بالموارد المصرية نتيجة للامتيازات الممنوحة للمغامرين الذين كان معظمهم من الاجانب ، وختم ذلك التقرير بقوله أنه يمكن ان تستقيم امور مصر المالية اذا تدخلت بعض القوى الاجنبية ، وفي ذلك اشارة الى هدف انجلترا من ارسال تلك البعثة الى مصر ، والتي كانت بداية للتدخل الاوربي الفعلي في البلاد ولم تكن لمساعدة اسماعيل المالية كما كان يهدف هو الى ذلك ، فتلك البعثة لم تكتف بالاشارة الى سوء الحالة المالية المصرية ، بل اشترطت لاصلاح مالية مصر اخضاعها للمشورة الاوربية وذلك بأن تنشيء الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها برئاسة شخص ذي ثقة ، على ان يكون ذلك الشخص انجليزيا بقدر الامكان ، كما اشترطت تلك البعثة ان يحترم الخديوي قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضا الا بموافقتها • وهكذا مهدت تلك البعثة الطريق للتدخل الفعلي في شؤون مصر •

٢ ــ صندوق الدين والمراقبة الثنائية :

وفي ابريل سنة ١٨٧٦ اعلن الخديوي اسماعيل توقفه عن دفع اقساط الديون ،ولو انه لم يعلن ذلك صراحة ، اذ اجل الدفع عن موعد الاستحقاق ثلاثة اشهر ولكن كان ذلك من قبيل المحافظة على الظواهر فقط ، وكان الغرض هو التأجيل الى ما شاء الله . وبذلك تعرض اسماعيل لحملة شديدة من الطعن وذلك من الماليين والمرابين الاجانب . وفي مايو سنة ١٨٧٦ اصدر اسماعيل مرسوما بانشاء صندوق الدين استجابة لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين ويوضع في ذلك الصندوق المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، وخصص له ايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط وعوائد الدخولية في القاهرة والاسكندرية وايرادات جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش وايراد السكك الحديدية ورسوم الدخان وايراد المصلح (الملح) ومصايد المطرية (دقهلية) ورسوم الكباري وعوائد الملاحة في النيل وايراد كوبري قصر النيل وايراد اطيان الدائرة السنية . أي أنه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزينة المصرية .

وبذلك كان صندوق الدين أول هيئة أوربية رسمية انشئت لفرض التدخل الاجنبي في شئون مصر والسيطرة الاوربية عليها ، فقد تولى ادارته مندوبون اجانب انتدبتهم الدول الدائنة وعينهم الخديوي ، وكان على الموظفين المختصين تحصيل الايرادات السابق ذكرها وعليهم ان يوردوا ما يحصلونه الى صندوق الدين لا الى وزارة المالية . وهكذا قيد صندوق الدين سلطة الحكومة المصرية واطلق العنان لبسط نفوذ الدول الاوربية في البلاد ، تلك الدول التي استغلت الموقف واخذت في الضغط على الاهالي بشتى الوسائل لتحصيل الاموال المطلوبة ، وامتنعت الحكومة الانجليزية عن تعيين مندوب لها في صندوق الدين على حين رحبت فرنسا باختيار مندوب عنها وكذلك النمسا وايطاليا وكانت انجلترا تهدف في

الواقع الى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلي في ادارةالحكومة المصرية . وبعد الاتفاق مع فرنسا جاء مندوبي الدولتين الى مصر .

٣ ـ المراقبـة الثنائية :

بدأت في اكتوبر سنة ١٨٧٦ بحضور جوشن ـ وهو ممثل انجلترا ـ وجوبير ممثل فرنسا ، وطلبا الى اسماعيل قبول التعديلات التي اتفقا عليها واهمها فرض الرقابة الاوربية على المالية المصرية ، وادى ذلك بالطبع الى حركة استياء شديدة في البلاد .

وكانت مهمة (جوشن وجوبير) مراعاة مصالح الدائنين الاجانب في مصر وتدبير المال اللازم لسداد الديون ، وكان كل منهما يختلف عن الآخر اختلافا كليا ، وكان بينهما تناقض ظاهر ، ففي الوقت الذي كـان يتصف فيه (جوشن) بالدقة في الامور المالية نظرا لعلاقته بالبيت المالي الكبير الذي اسسه ابـوه في انجلترا ، كان (جوبير) مثـالا للشخصية المرحة ، فهو لا يتحرى الدقة كثيرا في الامور وكان معرضا للاضطرابات الدائمة في جميع الامور .

وعلى ذلك استعان (جوشن وجوبير) بعدد من الموظفين الغربيين كان لهم سلطات واسعة لم يسبق لغربيين قبلهم تقلدهـا بمصر ، وكانت اخلاقهم سيئة فأثاروا سخط المصريين العام واحتقارهم ، فمثلا عملوا على ارهاق الفلاح المصري لكي يتمكنوا مـن جمع المبالـغ اللازمة لسداد استحقاقات الفوائد المطلوبة لاولئك المرابين ، ونظرا لان الحكومةالمصرية رأت ان معظم ايرادات البلاد كانت تحول الى صندوق الدين ، وانهـا كانت تدفع فوائد اسهم شركة قناة السويس للحكومة البريطانية .وكذلك الجزية السنوية للباب العالي ، وانه ليس لديها المبالغ اللازمة للصرفعلى شئون الدولة ، لجأت إلى عدم صرف مرتبات الموظفين ، ومن ناحية اخرى اخذت في الضغط على الموظفين حتى يوردوا اليهـا الايـرادات بدلا من

دفعها لصندوق الدين ، وفي ذلك مخالفة لما جاء بمرسوم انشاء صندوق الدين والمراقبة الثنائية مما ادى الى حدوث الاضطرابات • وهكذا ضيق الموظفون الاجانب الخناق على الحكومة واصبحت لا تجد ما تصرف منه على مرافق البلاد ، في الوقت الذي كان يبذل فيه هؤلاء الموظفين قصارى جهدهم لجمع الاموال اللازمة لسداد الديون •

٤ ـ لجنة التحقيق العليا (يناير سنة ١٨٧٨) :

اتهم (جوشن وجوبير) الخديوي اسماعيل بانه يقيم العقبات والعراقيل في سبيل انتظام شئون الحكومة المالية واتفقا مع اعضاء صندوق الدين على المطالبة بتأليف لجنة (تحقيق اوربية) لفحص شئون الحكومة المالية ، وفي ذلك اعتداء على كرامة الحكومة وتدخل فعلي في شئون البلاد ، وبالرغم من ذلك فقد استسلم اسماعيل للامر وسمح بتأليف لجنة اوربية عرفت (بلجنة التحقيق العليا) ومهمتها تحقيق العجز في ابواب الايرادات واسبابه وأوجه النقص في القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب •

وأذن للجنة بالاتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع من ترى لزومه لجمع البيانات التي تطلبها ، وفي ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ خول اسماعيل تلك اللجنة الاشراف على حالة الحكومة المالية بجميع عناصرها[١] ، اي لم يقتصر عملها على تحقيق الايرادات فقط بل شمل اختصاصها المصروفات ايضا وذلك بناء على طلب الدول الاوربية •

وكانت تلك اللجنة برئاسة (فرديناند دلبس) وعضوية مصطفى رياض و (ريفرزولسن) واللورد (كرومر) والمسيو (بارافللي) و (دي بلنيير) واخذوا اقوال النظار (الوزراء ورؤساء المصالح والدواوين كما اطلعوا على دفاتر الحكومة •

وفي ١٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ رفعت اللجنة تقريرها الى الخديوي ،

وذكرت اللجنة في ذلك التقرير ـ الذي وضع خطوطه الرئيسية (ريفرز ولسن) ـ تخبط الحكومة ووجوب ايجاد ضمانات جديدة والعمل على الحد من سلطة الخديوي ، كما اتهم اسماعيل بعجز في الميزانية قدره ٢٥٠ مليون فرنك . وفي مقابل ذلك طالبت اللجنة اسماعيل بتسليم ممتلكاته للدولة ضمانا لسداد العجز ، وعلى ذلك تنازل اسماعيل عن اطيانه المعروفه بأطيان الدائرة السنيةوالدائرة الخاصة وكذلك تنازلأفراد عائلته عن جزء من املاكهم •

٥ ـ اشتراك الوزراء الاجانب في الوزارة المصرية لأول مرة :

وهكذا اخذ النفوذ الاوربي يتغلغل في البلاد ، ولكي تزيد الدول الاوربية من ذلك النفوذ اتفقت انجلترا مع فرنسا على نظام يحل محل الرقابة الثنائية وهو تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار يدخلها وزيران اوربيان ، احدهما انجليزي لوزارة المالية وهو (ريفرز ولسن) والثاني فرنسي لوزارة الاشغال وهو (دي بلنيير) ووافق اسماعيل على تأليف تلك الوزارة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ •

وهكذا تقاسمت انجلترا وفرنسا النفوذ في مصر ، ثم جاءت ايطاليا والنمسا تطلبان نصيبهما في الغنيمة ، فطلبت الاولى نظارة الحقانيةوالثانية نظارة المعارف ، فعملت انجلترا وفرنسا على استرضائهما وذلك بتعيين ايطالي مراقبا عاما للحسابات ونمسوي مساعدا لناظر المالية •

وهكذا قبضت الدول الاوربية على زمام الحكم في مصر ، واتفق الخديوي اسماعيل والحكومتان الانجليزية والفرنسية على ان تعاد الرقابة الثنائية اذا فصل احد الوزيرين الاجنبيين من منصبه من غير موافقة حكومته •

واخذ نوبار بصفته رئيسا للوزارة الجديد واعتمادا على مبدأ مسئولية الوزارة ـ يعمل على ابعاد الخديوي عن مداولات مجلس

الوزراء ، بحجة ان حضور اسماعيل يعرقل سير تلك المداولات • ووافق على ذلك كل من (ريفرز ولسن ودي بلنيير) • فأقبل الخديوي على وضع العراقيل في طريق الوزارة الجديدة بطريقة خفية ، فأرسل عمالا من قبله الى الاقاليم ليجمعوا ــ بواسطة المديرين ومأموريهم ونظار الاقسام ــ كل ما يمكن جمعه من النقود وتحويله الى احد قصوره •

وقد ارتكبت تلك الوزارة افعالا أدت الى اثارة طبقات الشعب ضدها ، من ذلك طرد الموظفين من الاهالي واستبدالهم بغيرهم من الاوربيين وذلك بالرغم من المرتبات الضخمة التي كان يتقاضاها هؤلاء الاجانب •

هكذا تحدى الاوربيون مشاعر الاهالي من المصريين بسيطرتهم على الوزارة الجديدة والمغالاة في بسط نفوذهم في البلاد بشتى الطرق والعمل لمصلحة الدائنين اولا وقبل كل شيء • ويقول اسماعيل في مذكرة ارسلها لابراهام بك في القسطنطينية في مايو سنة ١٨٧٩ :

(لقد اهان الوزيران الاجنبيان الشعب برفضهما التزين بالوشاح الوطني ، فكانا يحضران الى مقري عملهما والى الحفلات الرسمية لابسين القبعة لا الطربوش المصطلح عليه • وقد اعلنا أنهما ناظران فرنسي وانجليزي فهما غير مضطرين الى مراعاة العنصر التركي ، وتبع اثرهما جميع المأمورين الاجانب في دوائرهما) •

وفي ذلك يعترض اسماعيل على سلوك الوزيرين الاجنبيين في الوقت الذي لا يلومن فيه الا نفسه ، لانه هو السبب في تعيين هذين الوزيرين ، وهو الذي وافق عليهما ، ولو أنه سلك مسلكا آخر لما اضطرته الظروف الى الوقوع في مثل تلك الظروف التي أدت الى سيطرة الاوربيين سيطرة تامة على الحكم •

واضطر اسماعيل الى إقالة وزارة نوبار ، وقابلت الدول ذلك العمل

بالاستياء والسخط وزعمت ان الدول نالت حقا مكتسبا بأن يكون لها وزيران يمثلانها في الوزارة المصرية وأجبرت انجلترا وفرنسا اسماعيل على الشروط التالية :

١ ــ لقد تقرر عدم حضور الخديوي جلسات مجلس الوزراء باي حال من الاحوال •

٢ ــ تعيين محمد توفيق (نجل اسماعيل) رئيسا للوزارة الجديدة•

٣ ــ الوزيران الاوربيان في الوزارة لهما حق معارضة كل مايرونه غير مناسب •

وتشكلت الوزارة الجديدة في ٢٢ مارس سنة ١٨٧٩ ، وفي ٧ ابريل من نفس العام قدم محمد توفيق استقالته وذلك لان الوزيرين الاجنبيين ــ منذ ان عهدت اليه الرئاسة ــ اهملاه تماما ولم يستشيراه في شيء •

وهكذا تغلغل النفوذ الاوربي الاجنبي في البلاد بشكل ظاهر ،فبدأ بارسال بعثة (كيف) الانجليزية ثم بانشاء صندوق الدين الذي شمل مندوبي الدول الاوربية وتلى ذلك فرض الرقابة الثنائية من انجلترا وفرنسا ثم تكوين لجنة تحقيق اوربية عليا تدخلت في شئون البلاد ،وكانت الخاتمة باشتراك الاجانب في الوزارة المصرية وفي ذلك اقصى حدود التدخل الاجنبي (الاوربي) •

خاتمة (خلع اسماعيل) :

على اثر استقالة وزارة محمد توفيق ، أمر اسماعيل بتأليف وزارة برئاسة شريف باشا وليس بها وزراء اجانب مما اثار الدول الاوربية جميعا وأدى الى تكاتفها ضد اسماعيل ، وفي الوقت نفسه سعى الماليون لدى رجال السياسة في اوربا ليحملوهم على التخلص من الخديوي كي يطمئنوا على ديونهم •

ولقد جاءت الضربة من حيث لا يتوقع احد ، فالمانيا لم تبد أي اهتمام قبل ذلك بالتدخل في شئون مصر ، وان عدد الرعايا الالمان في مصر كان محدوداً جدا ، وكانت سياستها قبل ذلك عدم الاهتمام بالشئون الخارجية التي لا تؤثر بطريق مباشر في مصالحها • وفجأة اندهش العالم لسعي المانيا الشديد لتدخلها في مصر • وان بعض دائني الحكومة المصرية من رعايا المانيا حصلوا على احكام من المحاكم المختلطة ضد الحكومة ولم تقم بتنفيذها فتدخلت المانيا وأصرت على ضرورة تنفيذ تلك الاحكام ، وأخبر القنصل الالماني بمصر اسماعيل بأن حكومته تعتبر مرسوم ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٩ غير قائم (وينص على تنظيم مالية مصر طبقا لما يراه الخديوي نفسه) وكان تصريح قنصل المانيا بمثابة البداية •

وتبعت المانيا انجلترا وفرنسا في الدفاع عن حقوق دائنيها والاصرار على ما طالبت به المانيا وهو تنفيذ الاحكام الصادرة عن المحاكم المختلطة ، وعندما رفض اسماعيل طلبت اليه كل من انجلترا وفرنسا التنازل مع ضمان مرتب له وابقاء نظام الوراثة كما هو ، ولكنهما في نفس الوقت هددا بارغامه على التنازل ان هو أبى ، وفي تلك الحالة سيحرم من المرتب وعدم وراثة ابنه محمد توفيق للعرش من بعده •

وفي رسالة شرح فيها اللورد سالسبوري الاسباب التي حملت الحكومة الانجليزية على طلب التنازل من اسماعيل يقول :

(لو ان مصر لا حصة للدول في تاريخها الماضي او لو انها بلاد يمكن الاعراض عنها لكان الاولى بالدول أن تتخلى من الآن وتعدل عن كل تدخل فيما يختص حاكم مصر ورعاياه • ولكن هذا امر مستحيل على انجلترا ان لم يكن سواها ايضا ، لان موقع مصر الجغرافي واعمال حكومة انجلترا الماضية في سبيل المحافظة على كيانها يجعل تركها الآن واهمالها من ضروب المحال) •

ومن تلك الرسالة السابقة تتضح اهداف انجلترا الاستعمارية والتي سعت فيما بعد لتحقيقها ، ولو ان ذلك التحقيق كان علـى حساب مصر ومصالحها .

كذلك طلب كل من قنصل المانيا والنمسا من اسماعيل ايضا التنازل عن العرش مؤيدين بذلك طلب انجلترا وفرنسا ، فأجاب بانه عرض الامر على السلطان وانه ينتظر جوابه . وكان اسماعيل يأمل من الانتظار ان تختلف الدول من طلب خلعه وان تنجح مساعيه الشخصية لدى السلطان. وكانت الحكومتان الانجليزية والفرنسية قبل ذلك قد خاطبتا الباب العالي في أمر خلعه ، وأجابهما السلطان بانه مستعد لابداله بحليم باشا .

ولم تفلح مساعي اسماعيل لدى السلطان ، وفي ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ صدر فرمان بخلع اسماعيل وتعيين محمد توفيق نجله خلفا له وغادر مصر في ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩ .

وهكذا ادى تغلغل النفوذ الاجنبـي (الاوربي) الـى الاطاحة بالخديوي اسماعيل حتى تنفرد القوى الاوربية بالعمـل في مصر دون معارضة ، وكان محمد توفيق مجرد اداة في ايدي تلك الدول .

وعندما وجدت الدول الاوربية ان انجلترا تود الانفراد بالنفوذ في مصر ، ارسلت حكومة فرنسا الى توفيق تهدده بصفة رسمية ان (مركزه سيكون في خطر اذا استمر زمنا طويلا في الاعتماد على انجلترا . وان السعي الى عودة اسماعيل الى مصر سيكون مؤيدا من وزارات برلـين وسان بطرسبرج وفينا وباريس وان « موسيو هربرت وبسمارك » يأخذ على نفسه ان يشهر الدوائر السياسية « بلوندن » ما يترتب علـى عودة الخديوي السابق من الفوائد) .

وهكذا تضاربت المصالح الاوربية في مصر واصبحت لا تهتم بمصلحة مصر بقدر تنفيذ اغراضها الاستعمارية ، مما جعلهم يسيطرون على حكام

البلاد وتوجيههم لمصلحتهم الشخصية .

وفي الواقع ، كانت سياسة اسماعيل تعتمد على الحكم الشخصي وكان مستعدا لقبول سيطرة اي قوة اجنبية مقابل مساندته ماليا حتى يمكنه اعادة تنظيم ديونه . اما عن سياسته الداخلية فكان مصمما ان يظل (افندينا) الآمر لكل الرعايا والمالك لارواحهم وممتلكاتهم . وقد ضحى اسماعيل بمصالح الشعب في سبيل مصالحه الشخصية ، وكان يستطيع ضمان استمراره في الحكم لو انه كان يضمن مستقبلا زاهرا لرعاياه ، وهذا ما لم يفكر فيه اسماعيل على الاطلاق . وعلى هذا فلم يكن اسماعيل مؤيدا تأييدا قلبيا من الشعب ، لانهم كانوا يعتقدون ان سياسته هي التي أدت الى التدخل الاجنبي ، وقد حاول ان يستثير اخلاص ضباط الجيش لجانبه ولكنه لم يفلح في ذلك .

لقد اخذ اسماعيل الجانب السطحي من المدنية الاوربية ولم يبذل جهدا في وضع الاسس التي تتطلبها تلك المدنية . كما افرط في عقد القروض التي استخدمت معظمها لاغراض غير نافعة حتى اضاع ما يقرب من نصف بليون من الفرنكات في مدى ستة عشر عاما . وعندما عزله السلطان - بناء على رغبة الدول الاوربية - ترك مصر في حالة يرثى لها بحيث لم تشبهها أية دولة من الدول في هذا المجال في القرن التاسع عشر من حيث التدهور الاقتصادي .

وهكذا نال اسماعيل العقاب الذي استحقه لان اليه وحده يرجع اللوم في عزله لانه اتبع سياسة غير حكيمة أدت في النهاية الى هلاكه . لقد فتح الباب على مصراعيه للتدخل الاوربي واستعان بالموظفين الاوربيين وأفرط في ذلك حتى اصبحوا يكونون قوة لها مصالحها الشخصية . وعندما وجدوا ان اسماعيل اصبح عائقا في سبيل تنفيذ تلك المصالح اوعزوا الى السلطان بعزله حتى يمكن الانفراد بالسلطة في مصر دون معارضة .

كما ادى تغلغل النفوذ الاوربي في مصر في عصر اسماعيل الى الاضرار بمصلحة الشعب لدرجة كبيرة وذلك ان تلك اللجان المالية الاوربية التي أتت الى مصر بغرض بحث الحالة المالية للبلاد وايجاد الحلول لها ، لم تعمل تلك اللجان بالطبع الا لمصلحة الدائنين الاوربيين والمرابين الذين امتصوا دماء الشعب وأخذ اعضاء تلك اللجان يعملون على الضغط على الفلاحين لجمع الضرائب الباهظة حتى يتمكنوا من جمع المبالغ اللازمة لسداد الدين وفوائدها الباهظة ولم يراعوا في ذلك مصلحة هؤلاء الفلاحين الذين قاسوا الامرين من جراء تلك السياسة التي كان اسماعيل يتبعها . فلولا الديون الهائلة (مائة مليون جنيه مصري) التي اقترضها لما تمكنت الدول الاوربية من التدخل في شئون مصر واستغلالها والاضرار بمصالح الشعب الذي لم يفكر اسماعيل مطلقا في العمل على رفاهيته وانما كان يهدف هو ايضا لمصلحته الشخصية اولا وقبل كل شيء ، من نيل الالقاب (الخديوي) وبناء القصور واقامة الحفلات واغداق الاموال على الاوربيين في مصر وغير ذلك من الامور التي أدت الى تلك الازمة المالية والتي كان بنتيجتها عزله في النهاية .

وكان الخديوي توفيق العوبة في ايدي الانجليز فسرعان ما اتفق معهم على اخماد انتفاضة الزعيم المصري احمد عرابي ، بل انه اقام الاحتفالات يوم هزيمة احمد عرابي في التل الكبير على ايدي الانجليز ، وسلم مصر لقمة سائغة لهم وتمكن الانجليز من الضغط على توفيق وضربوا ميناء الاسكندرية بحجة ان توفيق يقوم بعمل ترميمات في الميناء وكان ذلك بداية لاحتلال دام سبعين عاما (من سنة ١٨٨٢ حتى ١٩٥٢) .

من أحداث ثورة المتزمتين PURITANS الإنكليزية

للدكتور عبد القادر أحمد اليوسف

حركة اهل المساواة

جذورها التاريخية ومسيرتها

تمتد حركة السواسية Levellers التي شهدتها الفترة الكروموبلية خاصة في مرحلتها الزمنية ١٦٤٦ ــ ١٦٥٨ في الماضي الانكليز الوسيط وفي الفترتين لآل تيودور ١٤٨٥ ــ ١٦٠٣ وآل ستيورات ١٦٠٣ ــ ١٦٤٩. ويبدو انها رواسب تحركات فلاحية لوحظت منذ الدعوة الوكلفية والثورة اللولاردية التي قادها جون بول ١٣٨١[1]. وتعتبر ظاهرة تسوير الاراضي الريفية او تسييجها Enclosure وتحويلها الى مراعي للاغنام وما رافقها من ملابسات كانت وراء التحركات الفلاحية والافكار الفلسفية والاقتصادية والسياسية التي تعاظمت في العهد الكروموبلي. والغاية من تربية الاغنام الاستفادة من اصوافها. اذ ادى الطلب المتزايد على الصوف الانكليزي منذ اوائل القرن الرابع عشر بصورة خاصة الى قيام بعض الاقطاعيين المتبرجزين الى تحويل الاراضي الزراعية العائدة لهم الى مراعي للاغنام. ولم يقتصر الامر على الاملاك الاقطاعية الفردية بل تجاوز الاقطاعيون على المنتجعات العامة العائدة لعموم القرية كالغابات

(1) H. Finer, The Theory and Practice of Modern Government (N. Y., 1954) 75.

والمراعي حيث احاطوها بالاسوار وحولوها الى مراعي لتربية الاغنام لجز اصوافها • واسفرت الظاهرة بشكل متدرج وعلى نطاق زمني واسع عن حرمان اعداد غفيرة من الفلاحين من عملهم ورزقهم اليـومي واضطروا للجلاء من قراهم طواعية او قسرا (١) • واخذت ظاهرة النسيج تتناسب طرديا مع ازدياد الطلب الخارجي على الصوف • وليس ادل على اهمية تلك المادة التجارية على الاقتصاد الانكليزي في العقدين الاولين من القرن الرابع عشر هو التنافس بين كـل من ادورد الثالث (١٣٢٧ ـ ١٣٧٧) وفليب فالوا (١٣٢٨ ـ ١٣٥٠) الفرنسي للاستحواذ على منطقة فلاندرز • اذ كانت هذه تشكل مراكز الاستثمارات الرئيسة للصوف المستورد من انكلترا • لهذا تعتبر مشكلة فلاندرز من العوامل الاولى في قيام حروب المائة عام (الثانية بين انكلترا وفرنسة (٢) ١٣٣٦ ـ ١٤٥٣) •

حقا لقد اخذت انكلترا تشعر بالازمات الاقتصادية الداخلية المتلاحقة منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر • وكانت مشكلة الارض وراء الثورات الفلاحية المتسربلة في معظم الاحيان بالاسمال الدينيـة • اذ استهدفت تلك التحركات الفلاحية تحرير طاقات عملهـم والسماح لهم بممارسة حرياتهم في البقاء على الارض التي وجـدوا آبائهـم عليها او الانطلاق منها نحو آفاق رزق جديد • بينما استمـر تحكـم الاقطاعيين باختلاف مراتبهم بقوة العمل الريفي عن طريقي القوة والتشريـع البرلماني منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر حتى نهاية النصف الاول من القرن السابع عشر •

مر التحكم الاقطاعي بطاقات العمل الريفي في الفتـرة المشار اليها اعلاه بمرحلتين اساسيتين • امتدت الاولى منذ ١٣٥٠ حتى ١٤٨٥ •تميزت

---

(2) W. Lunt History of England (N. Y., 1947) 316.

(3) Carton, A History of Europe 1198-1378 (London, 1960) 273-77.

بقوانين تعسفية شرّعت اثر كوارث الطاعون وما حصده من ارواح ١٣٤٩ واسفرت النتيجة عن نقص هائل في الايدي الريفية العاملة الامر الـذي حتم على السلطات الاقطاعية اصدار قوانين تعسفية [١] حاولت فيها اعاقة المسيرة الفلاحية الانعتاقية من قيود القنانة التي بدأت منذ اواخر القرن الثاني عشر • وتلحظ ظاهرة التشريع التعسفي في قوانين العمل لفتـرة ١٣٥١ ـ ١٣٦٨ والذي اعتمد قسم منها ابقاء القنية الموروثة [٢] منذ ان اصدر وليم الفاتح كتاب الاحصاء العام سنة ١٠٨٦ • وكامن ذلك الثورة اللولاردية سنة ١٣٨١ التي كادت ان تعصف بعرش رشـارد الثاني • اذ زحف الثوار من جهات ايست انكليا الى لندن حيث تمكنوا من اقتحامها بقيادة جون بول ومساعدة عمال لندن • غير ان رشارد تمكن من القضاء على جون بول وقيادته وجيشه بطرق الخيانـة والغدر • ومع ذلـك فلم يقضى على اللولاردية عسكريا الا سنة ١٤١٢ اي عند اخماد الثورة التي قادها السير جون اولد كاسل • اذ اشار الملك هنري الخامس في تصريح له سنة ١٤١٤ ، بان اللولارد يهدفون الى القضاء عليه وعلى اخوانه وعلى قسم من رجال الكنيسة • كما هدفوا ايضا الى مصادرة الاملاك الدينية واقتسام الاراضي وتعيين السير جون رئيسا لدولة الصالح العام •

استمرت افكار المساواة اللولاردية تستهوي فكريا العديد منحملة الآراء الاشتراكية الانجيلية الاولى • واشار اليهم الملك هنري السادس (١٤٢٢ ـ ١٤٦١) بقوله : (يعلم الله بأن هؤلاء لا يعبـأون باحكام المعبود ولا عبده • ديدنهم الاغارة على الاغنياء وسلب وزهق ارواحهم وتسويد العامة على الاكابر) • هذا وقد تشددت السلطات في مطـاردة تنظيم اللولارد السري في عهد هنري الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) اذ كان

(4) F. Deits, A Political and Social History of England (N. Y., 1937) 125-27.

(5) T. Langmead English Constitution al History (London, 1911) 240.

لهم تنظيم يشاركه (برابطة الاخوة المسيحية) • شملت عضويتها الفقراء وباعة المفرد والصناع وبعض رجال الدين • وقد اشترط في الترشيح للعضوية ان يكون الشخص مستعدا للمجازفة بحياته[٦] •

اما المرحلة الثانية في تحكم الارستقراطية في العمل الريفي فهي الممتدة اصطلاحا من ١٤٨٥ ــ ١٦٥٠ ، فتميزت بظاهرة على النقيض مما تميزت به المرحلة الاولى • اذ كان تحكم الارستقراطية الزراعية بالعمل الريفي عن طريق اجبار الفلاحين على ترك أراضيهم عنوة وعن طريق التشريعات البرلمانية • وذلك للتهافت على تسوير الاراضي الخاصةوالعامة من قبل الاقطاعيين المتبرجزين والمتحالفين مع البورجوازية في المدن • ومما زاد الامر تعقيدا زيادة السكان المضطردة منذ اواخر القرن الخامس عشر • فكانت الالوف من عامة الناس لا عمل لهم ولا رزق سوىالتسول والاجرام • والى هذا اشار توماس مورفي طوباويته ملقيا اللوم فيتدهور الاحوال المعاشية لاهل الريف على عاتق الملاكين الذين حولوا الاراضي الزراعية الى مراعي للاغنام اذ قال : (تحولت الاغنام تلك المخلوقات الوديعة الى حيوانات شرسة مفترسة • لاكت البشر وابتلعتهم ثماستهلكت الحقول وخرّبت البيوت والمدن • ولم تسلم من بيوت القرى المسيحية سوى بيوت الله التي تحولت بدورها الى زرائب للاغنام •)[٧] • وفي هذا السياق يعلق مؤرخو كتاب (المجتمع الرأسمالي) بالقول : (حاول النبلاء ان يقضوا على اراضي الفلاحين المحروثة • وهذا ما آل في آخر المطاف الى انتزاع اراضي الفلاحين بالجملة •••)[٨] •

---

(6) Ibid, 333-4.

(7) T. More, Utopia, Bearbeitet und sengeleitet von (J. K., rehayn) (Berlin, 1955). 72.

(٨) المجتمع الرأسمالي ، عرض اقتصادي تاريخي جـ ٢ ، جامعة باتريس لومومبا ، ٣٠ •

اصبحت مشكلة البطالة الريفيــة من اخطر المشاكــل الاقتصادية والاجتماعية في انكلترا في الفترة المشار اليها اعلاه • اذ قال عنها كيتل Gettell (حظيت مشكلة التملك الخاص وظاهرة الفقر العــام اهتماما كبيرا في فترة التحولات الاقتصادية من نظام الزراعة القديــم الى نظام الرعي الجديد • ومن نظام النقابات الحرفي الديمقراطي الى نظام النقابات التجاري الارستقراطي[9] • كما اشار الى ذلك Bindoff بقوله (ان كلمة الاغنام اصبحت في اذهــان الناس مرادفة لظاهرة تسبيح الاراضي[10] • حاول لملك هنري تيودور السابع معالجتها لاول مرة عن طريق البرلمان سنة ١٤٨٧ وادى تفاقم المشكلة الى عدد من الثورات الفلاحية ١٥٣٦ ــ ١٦٠٧ • ويستمر المؤرخ هذا بتعليقه حول الموضوع (بان ظاهرة التسييج مثلت مشكلة خطيرة في القرن السادس عشر لا بل انها اخطــر المشاكل الوطنية كافة)[11] •

لقد حاول الفلاحون الانكليز مقاومــة محتكري الاراضــي بثلاث ثورات هامة في القرن السادس عشر • يشار الى الاولى بثــورة (الحج المبارك) وكانت في Lincolnshire والاقسام الشمالية ســنة ١٥٣٦ • ويعتقد البعض بان تلك الثورة من ناحية سياسية عبارة عن احتجاج اهل الشمال على حكم اهل الجنــوب • اذ ان آل تيــودور يمثلون الجنوب الانكليزي • ويعتقد البعض الآخر بان الثورة كانت كرد فعــل لسياسة هنري الثامن الدينية لحله المؤسسات الديرية ومصادرة املاكها وتوزيعها على المقربين والمضاربين • وقد ادت الظاهرة الى مزيد من تسوير الاراضي الزراعية الدينية وتحويلها الى مراعي والــى المزيد مــن الهجرة الفلاحية وحرمان العيش[12] • ومهما يكن من امــر فان الملابســات الدينية كما

(9) R. Gettell. History of Political Thought (N. Y., 1929) 132.

(10) S. Bindoff, Tudor England (Middlesex 1951) 22.

(11) Ibid., 22.

(12) Ibid., 112.

اسلفنا كانت وراء التحركات الفلاحيـة . وان سبب ثورة الحـج المبارك الاساسي حسب رأينا يكمن في المظالم التاريخية المتلاحقـة على الريف الانكليزي من جراء تعاظم ظاهرة التسييج فيمرحلة بدايـة الاستثمارات الرأسماليـة الحديثـة . والى هـذا يشير مؤلفـو كتـاب (المجتمع الرأسمالي)(١٣) .

ولربما كان تطور الرأسمالية في الزراعة الانكليزية اشـد مما في الصناعة . فقد بدأ هذا التطور في القرية قبل ان يبدأ في الصناعة .وكان في القرية اكثر جذرية وهذا ما أضفى طابعا خاصا علـى عملية التراكم البدائي للرأسمـال في انكلترا واضطلع بدور خاص في تـوزع القوى الطبقية في البلد .

ان ظاهرة التشرد المتزايدة من جراء البطالة الريفية وتدفق العاطلين الى المدن وخاصة لندن ، وغلاء الاسعار والمضاربات بالاراضي الدينيـة المصادرة واحتكارها وتحويلها الى مراعي ومآسي ثورة سنة ١٥٣٦ هي امور ادت بالسلطات في عهد ادورد السادس الى الالتفات جديا لمعالجة المشكل عن طريق التشريع الانساني . اذ اصـدرت سنة ١٥٤٨ قانون الاعانات حيث فرض القانون لاول مرة ضرائب على الاغنام والمنسوجات ثم امرت السلطات بتأليف لجان للتحقيق في الاراضي المسيجة منذ سنة ١٤٨٩ ولتسجيل الاشخاص الذين يمتلكون اكثـر من ٢٠٠٠ رأس من الغنم . ثم أصدر الوصي سومر سيت عن طريق البرلمان اربعة قوانين للحد من ظاهرة التجاوزات على الاراضي العامـة(١٤) . ولـم يكتب « لسياسة الصالح العام » التي اتبعها سومر سيت النجاح . وذلك لان قسما من اعضاء مجلس الوصاية وكبار اعضاء البرلمان هم مـن الفئات المسهمة في تجارة الاصواف لهذا وضعوا كافة العراقيل التي في طاقاتهم

(١٣) المجتمع الرأسمالي جـ ٢ ، ٣٢

(14) Bindoff, op. cit., 133-5.

لعرقلة القوانين في ذلك الصدد[١٥] .

لقد عيل صبر الفلاحين من جراء عدم تنفيذ القوانين الهادفة اصلاح اوضاعهم . لهذا عم الهياج كافة المناطق الجنوبية الانكليزية سنة ١٥٤٨ . وتبلور الوضع المتأزم في اندلاع ثورتين في آن واحد سنة ١٥٤٩ . يشار الى الثورة الاولى بالثورة الغربية في كل من كورنيول وديفون ويشار الى الثانية بثورة روبرت كيث نسبة الى قائدها . في جهات نور فولك . كانت الواجهات الظاهرية للثورة الغربية واجهات دينية اي احتجاج على كتاب الصلاة الجديد[١٦] . اما بواطنها فهي احتجاج على مآسي ظاهرة التسييج المزمنة وقد اتخذت شكل صراع طبقي قاده صغار القساوسة .

اما ثورة روبرت كيث فهي ثورة فلاحية خالصة في بواطنها وواجهاتها الظاهرية . وكيث هذا ارستقراطي ريفي صغير . اندفع لقيادة الثورة من شعوره الانساني تجاه الفقراء حسب مفهوم المساواة ومفهوم دولة الصالح العام الذي آمن به الانسانيون في القرن السادس عشر .

اندلعت الثورة في جهات سومر سيت سنة ١٥٤٩ منتشرة شرقا واصبحت نور فولك من اهم اوكارها حيث تجمع فيها ستة عشر الف فلاح ملتفة حول راية كيث . وشرعت الجموع الثائرة بتحطيم الاسيجة ونهب البيوت الارستقراطية ، ثم شكلوا محكمة لمقاضاة الارستقراطية الزراعية. وقد ادى التعاون بين الثوار الفلاحين والعمال في جهات نوروج الى تأليف حكومة على اسس المشاعية . وانتخبوا القائد كيث واثنين من رجال الكنيسة رؤساء عليهم . والفوا مجلسا تمثيليا يضم عضوين عن كل وحدة ادارية من وحدات (المائة) واشير الى ذلك بالمجلس

---

(15) Dietz, op. cit., 206-7.
(16) Bindoff., op. cit., 136.

الثوري[١٧] •

حاول كل من ثوار الجبهة الغربية وروبرت كيث الزحف على لندن من مبنى كورنوول ونوروج •.وقد فشل ثوار الجبهة الغربية في زحفهم لمقاومة الارستقراطية في اكستر • وكذلك منيت قوات روبرت كيث بخسائر فادحة • وذلك لما انزلته بهم قوات الحكومة المتألفة من مرتزقة الطليان والالمان من هزائم[١٨] •

لقد حمل مجلس الوصاية الوصي سيمور سومر سيت مسؤولية الثورتين باعتبارها نتيجة عن نتائج تصرفاته السياسية في كيفية معالجة مشكلة الفقراء • وقد حكم عليه بالاعدام فيما بعد •

ان فشل ثورة كيث واسقاط حكم الوصي سيمور يعني انتصار الرجعية على سياسة دولة الصالح العام التقدمية آنذاك • وهذا ما تمثل في تشريع عدة قوانين جديدة ابطلت مفعول قوانين سيمور السابقة • ثم جعلت مشاريع التسييج معترف بها قانونيا كما نص عليه قانون •

واصبحت المعارضة لظاهرة التسييج بموجب ذلك القانون والتذمر من ارتفاع الاسعار من الامور التي تنطبق عليها عقوبة الخيانة العظمى[١٩] • ثم أمرت السلطات الرجعية باحياء التقاليد العسكرية الاقطاعية اذ اجازت لهم الاحتفاظ بقوات عسكرية على حساب الدولة تتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ فارس لكل اقطاعي حسب سعة املاكه ومواردها •وذلك كاجراء احترازي لقمع أي تمرد فلاحي •

ولم ييأس الفلاحون المحرومون من فرص العيش في تحقيق اهدافهم عن طريق الثورة في عهد الملكة اليزابت الاولى •

---

(17) Lunt., op. cit., 327.
(18) Bindoff, op. cit., 138.
(19) Ibid., 139.

وهذا ما تشير اليه ثورة سنة ١٥٦٩ في جهات ويسمورلاند وثورة تميرلاند • وبالرغم من انها استغلت دينيا وسياسيا من قبل الارستقراطية المحلية وفليب الثاني الاسباني والبابويـة من اجل اقصـاء اليزابت عن العرش واعادة الكاثوليكية الا ان اشتراك الفلاحين الشماليين في الثورة كان يهدف ايجاد الحلول لمشكلتهم الاقتصادية • كما حاولت الملكةمعالجة مشكلة الفقراء عن طريق تشريعاتها التيودورية الابوية بدون طائل[٢٠]• اما في عهد جيمس الاول الستيوارتي فقد عبر الفلاحون عن سخطهم في جهات مدلاند بالتمرد وازاحة الاسيجة من المراعي سنة ١٦٠٧ ميلاديـة محاولين اقتسام الارض بالتساوي وتشير لهم بعض المصـادر الانكليزية بالسواسية ايضا[٢١] •

لقد تبوأت ظاهرة التسييج واستشراء دائها وكيفية معالجة الفقر في الارياف والمدن على حد سواء مكانا مرموقا في عهد الثورة البيورتانيـة وخاصة في فترة الصراع الاخير معشارل الاول ١٦٢٥ ـ١٦٤٩واعدامه• وهذا ما تمثل فيحركة السواسية الثوريين بفرعيهم السياسيوالاقتصادي• اذ استأنفت حركة السواسية وجودها بين مراتب الجيش الثوري الصغرى وتمثل الحركة صراعا بين مراتب الجيش النموذجي العليا والدنيا او بين كتائب الخيالة وفرق المشاة وذلك لما بين الطرفين من فـوارق طبقية • وتضم كتائب الخيالة ابناء الطبقة الارستقراطية الصغيرة الريفية منهـا والمدنية • بينما تألفت فرق المشاة من صغار الحرفيين واصحاب الـرزق اليومي كالحدادين والقصابين والاسكافيين الذين يقدر عددهم بثلاثـة ارباع الجيش الكرومويلي البالغ عدده ثمانون الف مقاتل • ويشيرالمؤرخ Trevelyan الى التصارع الفكري في الجيش الكلر ومويلي بقوله[٢٢] :

(20) J. Neale Queen Elizabeth 1, (Middlesex, 1960) 189-93.

(21) Encyclopaedia of Social Sciences, vol., IX-X, p. 421.

(22) G. Trevelyan, England Under the stuarts (Middlesex, 1968) 268.

تعتبر البداية للديمقراطية الحديثةفي انكلترا فيالتحولات السياسية الخطيرة التي حدثت في فترة ١٦٤٧ ــ ١٦٤٨ • ويعود الفضل في ذلــك الى بضعة مفكرين من بين الجيش الثوري لاصحاب الرؤوس المستديرة عقب الانتصار على الفئة البرلمانية سنة ١٦٤٧ • اذ أصبحت موازينالقوى بيد الجيش الذي عزم على ان يكون قائدا للافكار السياســية بالاضافة الى مهماته العسكرية واسفرت رغبته في المجال الاخير عن ظهور اتجاهات فكرية وسياسية واجتماعية جريئة سابقة لاوانها زالت سريعا بزوال ذلك الجيش • الا انها بعثت مجددا باشكال اخر بعد قــرن ونصف ليس في انكلترا وانما في فرنسة اثناء ثورتها البورجوازية الكبرى •

دعت مراتب الجيش الصغرى الى تساوي الفرص امام الناس ونبذ الامتيازات الطبقية والغاء مجلس اللوردات • حيث رأوا ذلــك المجلس دعامة المعارضة لطموحاتهم • فكان طبيعيا ان يتساءلوا الم يكن هؤلاء الاسياد غير جنرالات وليم الفاتح وضباطه وفرسانــه ؟ لهذا آلــوا على انفسهم التخلص من ورثاء الفاتح الذين استملكوا البلاد بحد السيف • ذلك السيف الذي نبأ عن اكفهم • لهذا يجب ان يــزول حكــم الملك ولورداته • وان يفسح المجال امام فقراء الناس للاسهام في الحكم • ولم تكن تلك الآراء ملائمة لمناخ كرومويل وقيادته العليا • فقد اصبح يشير الى فريق اهل المساواة في جيشه بالسواســية Levellers • ولم تكن هذه آنذاك كلمة مشرفة لاحتوائها على شتى ضروب الازدراء • ومع ذلك فان قسما من ذلك الفريق اعتبرها شرفا له •

ذكرنا آنفا بان السواسية ينقسمون الى فئتينمن ناحية ايديولوجية• يشار الى الاولى بأهل المساواة السياسية والى الثانية بأهل المســاواة الاقتصادية او بأهل المساواة الحقيقية •

حاولت الفئة الاولى حل مشاكــل الشعب الانكليــزي بالطــرق

السياسية • وذلك بفسح المجال امام القطاعات الشعبية للاسهام في الحكم بتوسيع الحقوق الانتخابية لمجلس العموم الى اوسع مدى بحيث تشمل كافة الذكور المؤهلين عقليا وبحكم الولادة وسن الرشد والغــاء شروط الثروة المتنقلــة والثابتــة • والغــاء مجلس اللوردات ركيــزة الملكية والارستقراطية العليا • وقالوا بعدم وجود الفوارق بين الناس فالكــل سواسية حسب منطق القوانين الطبيعية •

لا نعتقد بأن فريق اهل المساواة السياسية من مراتب الجيش الثوري الصغيرة ظهر نتيجة رد فعل لقرار البرلمان سنة ١٦٤٧ في تسريح الجيش ، بل ان القرار كان المناسبة لأن يجهر ذلك الفريق بآرائه• فقد اشار رشارد Overton في منشور له تحت عنوان (سهم ضد الطغاة والطغيان) سنة ١٦٤٦ مخاطبا فيه كرومويل وبطانته بما يأتي[٢٣] :

اخبروا برلمانكم ليعجل على خلاصنا ويمكننا من حرياتنــا الطبيعية المنسجمة مع ما يذهب اليه العقل والعدالة •ومهما يقال عن آبائنا وجهادهم وانهم اخضعوا بالقوة لسطوة الملوك ، فأننا ابناء هذا اليوم ، علينا ان نتحرر من كافة انواع الظلم والمضايقات والاحكام الارتجالية • وقــال ايضا ان كل فرد منا منحته الطبيعة حــق التملك ولــم يكن ذلك الحق مقتصرا على فرد دون آخر •

كما وقد سبقوان نوه عن ذلك المعنى جون للبورن الزعيم السواسي سنة ١٦٤٦ أيضا •

حقا لقد رفض الجيش النموذجي بكافة مراتبه قرار تسريحه •واشار الى ان الجيش له رسالة اصلاحية لم يؤدها بعد • وكان استياء المراتب العسكرية الصغرى من ذلك القرار عنيفا • ويذكر الاســتاذ ساباين عن

(23) G., Sabine, A History of Political Theory (N. Y., 1964) **484.**

مدى تأثيرات قرار التسريح بين صفوف الجيش بقوله[٢٤] :

لقد انبعثت في ذلك الجيش مجالس محلية اشبه بالسوفيتات التي انبثقت في روسيا أثناء ثورتها الاشتراكية سنة ١٩١٧ • راحت تناقش مستقبل السياسة البريطانية والضمانات الكافية لسد الطريق امام عودة الحكم السابق ومعالجة العلل الاجتماعية والاقتصادية • وانتخبت مراتب الجيش الصغرى ممثلين عنها لكي يفاوضوا المجلس العسكري الذي ساد فيه كل من كروموبل وصهره •

تشير المناقشات الحادة التي جرت بين ممثلي مراتب الجيش الصغرى والقيادة الرئيسة الى مدى التناقضات في المصالح الطبقية بين فرسان كرومويل ومراتب المشاة للجيش النموذجي التي تمثل الطبقة المتوسطة الدنيا والعمال • ولعل ما دار بين الجانبين حول اتفاقية الشعب الاولى التي رسمها اهل المساواة السياسية والمقترحات الرئيسة Heads of proposale التي رسمها الجانب الكرومويلي خير ما يوضح لنا التناقضات الاديولوجية الطبقية بين الجماعتين المتفاوضتين •

اما بالنسبة (لاتفاقية الشعب الاولى) فقد وضعها Wildman وايلدمان في تشرين اول سنة ١٦٤٧ بالتعاون مع بعض الضباط من ذوي المراتب الصغيرة وبمشورة بعض العناصر الديمقراطية خارج الجيش • وقد اعتبر الاستاذ جورج آدمز بان تلك الاتفاقية كانت لها تأثيرات عميقة فيما بعد في صياغة الدستور الامريكي[٢٥] • وعلى كل فقد دعت الاتفاقية بشكل رئيسي الى السيادة الشعبية اذ جاء فيها : لم يعد الحكم للبرلمان او الجيش وانما لعامة الناس ونصت على حق التصويت العام المطلق الذكور ،

(24) Ibid., 480.

(25) G. Adams, Constitutional History of England (N. Y., 1934) 323.

وتساوي الدوائر الانتخابية ودعوة البرلمان كل سنتين . وان الغاية هي منع تكرار الحرب والعودة الى العبودية . ان سلطة البرلمان هي دون سلطة ناخبيه . ولا يجوز للبرلمان الجور على حقوق المواطنة . تساوي الافراد امام القانون ولهم حرياتهم الدينية . ثم ادرجت في اتفاقية الشعب الاولى مواد اخرى على اثر ظهور كراس تحت عنوان (قضية الجيش) احتوى على مطاليب جديدة منها[٢٦] : الغاء الاحتكارات وتشريع دستور جديد واعادة الارض التي سلبت من اهل الريف عن طريق التسييج الى اصحابها . وبالرغم من ان البرلمان قد رفض اتفاقية الشعب جملة وتفصيلا باعتبارها مطاليب تخريبية الا ان المناقشات التي دارت حولها في مجلس القيادة العسكري تلقي الاضواء الكافية على التناقضات الاديولوجية الطبقية بين كرومويل وبطانته من جهة واهل المساواة من جهة اخرى . اذ اصر جانب اهل المساواة على الغاء شروط الثروة في الانتخابات للبرلمان ، على اعتبار ان الله وهب الناس عموما مؤهلات كافية . وان الفقير على قدم المساواة مع الغني في حقوق المواطنة . ثم تساءل احد اعضاء الوفد المفاوض من اهل المساواة الم يكن من الظلم والعدوان ان يكون الفقراء الذين خاضوا المعارك طوال الوقت من أجل لا شيء ؟

ان الجدل الذي دار بين كل من كرومويل وصهره Ireton من جهة وممثلي اهل المساواة جون وايلد مان والكولونيل رينبورو Rainborow تشير الى ان الجانب الاول اعتقد آنذاك بان الثورة حققت ما تصبو اليه. اذ اعتقد كرومويل وصهره بان المعركة كانت ضد الاستبدادية ولتحقيق الحرية الدينية وليست من اجل معالجة مشكلة الفقراء سياسيا واقتصاديا كما يذهب اليه ويلدمان وزملاؤه . وقد اعترض Ireton بشدة على تساوي الحقوق الانتخابية مشترطا ان يكون حق الانتخاب مقتصرا على

---

(26) G., Gooch, Political Thought in England, (London, 1960) 61.

الذين يمالكون حدا ادنى من التملك يدر عليهم ٤٠ شلنا سنويا على الاقل. ولا يجوز اعطاء ذلك الحق للخدم والعمال حتى لو كانت ايرادات كل فرد منهم مساوية للمقدار السابق . واشار الى ان الملاكين هم وحدهم اصحاب المصلحة في البلاد والرأي السديد . ان اعطاء حق التصويت لكل من هب ودب يؤدي حسب رأيه الى تسلط العامة وازالة الملكية الفردية وانتشار الفوضى . ثم قال أمن العدالة في شيء تجريد الارستقراطية من ممتلكاتها وتوزيعها على الغير ؟ أين اذن تكمن ارادة الله ؟ هل هي مع هؤلاء ام اولئك ! ؟ وأجاب أهل المساواة ان ارادة الله لم تكن مع اولئك او هؤلاء بل انها مع الناس جميعا . ولا يمكن الكشف عن الارادة الربانية ولا الحق ولا الخير الا في مناقشات مجلس عموم الشعب (٢٧) .

ان المشكلة الاساس في المفاوضات المشار اليها أعلاه كائنة في الاختلاف حول مفهوم القانون الطبيعي . حيث فهمه كرومويل وصهره بأنه عبارة عن الوضع المتوارث في النواحي السياسية والاقتصادية ، والتوارث هذا يمثل ارادة الله والقانون الطبيعي . بينما قال أهل المساواة بأن ذلك التوارث بعيد كل البعد عما يأمر به الله وتشير اليه قوانينه الطبيعية . لذا ازدرى كرومويل بالقانون الطبيعي وقال متهكما لو سلمنا جدلا باننا وضعنا دستورا بموجب تلك القوانين فما هي عدد تلك القوانين الطبيعية؟ انها بلا شك لا تقع تحت حصر ! وماذا ستكون النتيجة ؟ أهي غير التخطيط العشوائي والفوضى ! ؟ اما Ireton فقد فهم القوانين الطبيعية وما يترتب عليها من حقوق للافراد بانها مقتصرة على حرية التنزه وشم الهواء والمحافظة على أمن الطرقات العامة . ثم خاطب الوفد المفاوض (اقول لكم باسم هذا القانون الطبيعي بأنه ليس لكم حق في هذا الوطن اكثر مما لدى ... وان الذي لا يخلد الى قوانين هذه البلاد فليغادرها .

(27) Finer, op. cit., 59.

اما المقترحات الرئيسة Heads of the Proposals التي اعدها كروموبل وصهره فهي تمثل محاولة من جانب القيادة العسكرية العليا للتوصل الى حل وسط بينهم وبين الملك شارل الاول وكبديل عن اتفاقية الشعب الاولى وعن محاولة التسوية البرلمانية المعروفة (بمقترحات نيو كاسل) • وقد تضمنت المقترحات الرئيسة تحقيق مصالح الطبقة الارستقراطية الصغيرة في الجيش الكروموبلي • وقد انتقد اهل المساواة مسلك كروموبل هذا [٢٨] بمرارة •حيث اعتقدوا بأن الملكية هي آفة الشرور واتهموا كروموبل بأنه « المركوب الملكي » وكادت ان تؤدي المفاوضات بين كروموبل والملك الى حرب اهلية بين صفوف الجيش لولا ان شارل الاول رفض المقترحات الرئيسة • الامر الذي حدا بكروموبل ان يقطع المفاوضات في تشرين ثاني ١٦٤٧ وان يصرح بان الملك يجب ان يعدم والتاج على رأسه • وقد وحدت تلك المناسبة صفوف الجيش النموذجي مؤقتا حيث خاض المعركة الفاصلة والاخيرة مع شارل الاول سنة ١٦٤٨ •

وما ان تحقق الانتصار العسكري النهائي على الجانب الملكي حتى عاد ليصفي الحساب مع أهل المساواة داخل الجيش • اذ اوعز الى القائد Fairfax القيام بالمهمة وخاصة ضد فرقة وليم تومبسون في جهات باتبوري • وتمكن فير فاكس بتطويق تومبسون ورفاقه ليلا في جهات اكسفور[٢٩] سنة ١٦٤٨ وبذلك انتهى الدور العسكري لاهل المساواة حيث انتقلت من المعسكرات الى القطاعات المدنية •

لقد استمر اهل المساواة السياسية بعد اقصائهم من الجيش يزاولون فعالياتهم تحت قيادة جون للبورن • اذ ظهرت اهم نشرة معدلة لاتفاقية

---

(28) Gooch, op. cit.
(29) M. Ashley, England in the 17 Century (1603-1714), (Middlesex, 1954) 90.

الشعب يمكن ان يشار لها باتفاقية الشعب الثانية وذلك اثر اعدام الملك في كانون الثاني سنة ١٦٤٩ • وجاء في الاتفاقية المعدلة[٣٠] :

انا لم نكن كما ينعتنا البعض باناس متوحشين لا تعقل عندنا او اننا مخلوقات خطرة ••• ان هدفنا ان نحظي بحكم يرضاه المحكومون• لهذا يجب آن يتكون البرلمان من ٤٠٠ عضوا • يختارون بموجب حقوق الافراد الطبيعية لكل من بلغ الواحد والعشرين من عمره •••• ولا يجوز للموظف ان يشغل عضوية المجلس ولا يحق للعضو ان يكـون نائبا في برلمانيين متتاليين • لا يحق للبرلمان التشريع في القضايـا الدينية ومنح الاحتكارات او فرض الضرائب على المواد المعيشية • ويجب المساواة امام القانون وتحديد العقوبات والغاء السجن لمن يعجز عن تسديـد ديونه • تحسم الخلافات خلال سـتة اشهر من عرضها علـى المحاكم • ثم الغاء العشور • وان ينتخب السكان المحليون في مناطقهم موظفيهم • ولا يجوز ان يحتل الموظف الوظيفة لاكثر من سنة واحدة • ولا يجوز للبرلمان تغيير اتفاقية الشعب ، وان اية محاولة من هذا النوع تشكل جريمة يعاقب عليها بالاعـدام •

يعتبر جون للبورن Lilburne المحرك الرئيسي لاهـل المساواة السياسية ، فمن هو هذا الرجل يا ترى ؟[٣١] انه من القـادة الشعبيين الثوريين في الفترة الكرومويلية ، حيث استحق لقب (المولود الحر)• ينتمي جون الى الطبقة المتوسطة ماديا حيث اشتغل بالمضاربات الماليـة وصناعة الصابون في بداية امره • وينتمي فكريا الى الطبقة الكادحة •أما من ناحية دينية فهو (استقلالي) الانتماء ولو انه اتهم بأنه متأثـر بآراء فرقة توماس مونز ١٤٨٩ ـ ١٥٢٥ ، ذات الاتجاهات الشيوعية والمسماة

(30) Gooch, op. cit., 63.
(31) J. Frank, The Levellers, A History of the Writings of three Seventeenth Ceutury, Social Demacrats, J. Lilburne R. Overton, Wabuyan (Cambridge, 1955).

فرقة اعادة التصعيد Ansbaptism (٣٢) . لذا كان شديد المقت للكنيسة الانكليكانية . اذ دأب على انتهكم عليها . لهذا امرت السلطـات الملكية الاستبدادية في عهد شارل الاول بمحاكمته سنة ١٦٣٨ واداتتـه بعقوبة الجلد والتشهير العلني والسجن لثلاث سنوات . ثم انخرط في الجيش الثوري عند اندلاع الحرب الاهلية ورقي الى رتبة كولونيل الا انه وقع في الاسر الملكي وتخلص من العقاب بانكاره المقاومة . لقد نقم للبورن على كل من الملك والبرلمان والجيش واخذ ينادي بحكم الشعب .توضحت الخطوط العريضة لعقيدته الديمقراطية في نشريات له دبجها اثناء اعتقاله Newqate سنة ١٦٤٥ . اذ اشار الى ان البرلمان هو سفير الشعب ولا يحق للسفير ان يتطاول على سلطات سيده .

استفزت دعوة للبورن للمساواة السياسـية كروموبـل حيث امر بمحاكمته مرتين . كانت الاولى سنة ١٦٤٩ . وذلك عند اصداره كراسا حال اعدام شارل الاول بعنوان (الاغلال الجديدة لانكلترا) . طالب فيه عدم تنازل البرلمان عن صلاحياته الى « مجلس الدولة » الـذي اختاره كروموبل وحاشيته اعتباطا . والقى مسؤولية سوء التصرفات الدستورية على عاتق كروموبل . لهذا القي القبض على للبورن وسيق الـى سجن القلعة . وقد استشاط كروموبل غضبا من آراء للبورن ومؤيديه . ففي احدى اجتماعات مجلس الدولة ضرب كروموبل المنضدة بعصبية مخاطبا اعضاء مجلس الدولة بقوله (ليس امامكم غير طريق واحد ازاء هؤلاء اما ان تحطموهم او يحطموكم)(٣٣) .

حقا لقد قلق كل من كروموبل وصهره Ireton بصورة خاصة من دعوة للبورن واتباعه من اهل المساواة . اذ اعتقد الاول بانه لو استجاب

---

(32) C. Hayes, A Palitieal and Cultural History of Europe, vol., 1 (N. Y., 1944) 178.

(33) Ashley, op. cit., 89-90.

الى دعوة السواسية في تكوين برلمان ديمقراطـي منتخب حسب القانون الطبيعي باقتراع الذكور الراشدين العام فسوف تسفر النتيجة عن تسلط الفقراء على الاغنياء ومصادرة الاملاك .

لذا اعتبر كروموبل آراء للبورن اشد خطرا عليه من مخاطر الملكية المقبورة ، خاصة ان آراءه في المساواة السياسية سرت بين صغار الجند والمدنيين الفقراء في جهات لندن سريان النار في الهشيم . وليس ادل على ذلك من المظاهرة الصاخبة الكبرى التي انطلقت لتشييع جنازة احد اتباع للبورن الذي حكمت عليه السلطات بالاعدام في نيسان سـنة ١٦٤٩ . حيث سارت الجماهير الغفيرة في لندن وراء النعش وهي تحمل « الشريط الاخضر » شعار اهل المساواة(٣٤) .

استدعي للبورن للمحاكمة بعد شهرين من اعدام الملك . وامتنع عن رفع قبعته خلافا للمألوف امام هيئة القضاة . وذلك لعدم اعترافه بأرجحية اي منهم عليه لانه كان عسكريا . اما التهمة الموجهة اليـه فهي الخيانة العظمى لاتهامه حكومة كروموبل بالاغتصاب والطغيان. مثل جو المحاكمة الاولى لجون للبورن ظاهرة فريدةفي بابها في تاريخ المحاكمات الانكليزية. اذ هبت الجماهير المحتشدة في خارج المحكمة وداخلها للبورن بهتافات مدوية متواصلة استمرت نصف ساعة . وقـد اضطر القضاة الى اخلاء سبيله ازاء ذلك الضغط الجماهيري(٣٥) .

استمر للبورن ملهما روحيا لاهل المسـاواة السياسيين المدنيين بعد قضاء كروموبل عسكريا على زعمائهم في جيشه . وعليه فقد شرع(برلمان الحثالة Rump parliement) قانونا سنة ١٦٥٢ أمر بموجبه نفي للبورن من لندن . آلا أنه عاد اليها بعد ان أمرت السلطات الكروموبلية باقصاء

(34) Trevelyan, op. cit., 279.

(35) Ashley, op. cit., 280.

ذلك البرلمان • ومع ذلك فقد القي القبض على لبورن حيث سيق للمحاكمة ثانية سنة ١٦٥٣ •

ان السبب المباشر الذي حوكم لبورن من اجله للمرة الثانية هو تصريحه بأن قرار نفيه السابق يشكل خرقا للدستور • ومثلت محاكمته هذه حدثا دراماتيكيا فاق ما حدث في المحاكمة الاولى • اذ قدرت الجماهير المحتشدة في قاعة المحكمة وخارجها بستة آلاف شخص مؤيد الى لبورن • وكان شعار الجماهير (من اجل ماذا سيعدم الرجل الامين لبورن ؟ سوف يعلم ستة آلاف انسان السبب بعد حين[٣٦] •) • هذا وقد تطوع عشرون شخصا في تقديم كفالة عنه بمقدار الفي جنيه • وقد اضطر القضاة في هذه المرة ايضا الى الافراج عنه • ومن الطريف حقا ان يشترك حرس المحكمة وثلة من الجند هناك في مشاركة الجماهير افراحها بقرار الافراج عن لبورن • وقد صرح احد القضاة حينذاك بانه لو قررت المحكمة اعدام لبورن لكان ذلك اليوم اشد الايام سفكا للدماء في انكلترا • اما كرومويل فقد تألم كثيرا من قرار المحكمة حيث اعتبر الافراج عن لبورن هزيمة شخصية بالنسبة له أشد وانكى فيما لو كان قد هزم عسكريا في موقعة من المواقع[٣٧] • ومع ذلك فقد امرت السلطات بنفيه الى جزيرة جرزي Jersey ثم سمح له بالعودة سنة ١٦٥٧ وتوفي قبل بضعة ايام من وفاة كرومويل في ايلول سنة ١٦٥٨ •

اما فرقة اهل المساواة الاخرى التي افزعت كرومويل والارستقراطية الزراعية الحديثة والقديمة هي فرقة أهل المساواة الاقتصادية او كما يشار لهم بالسواسية الحقيقيين او الكرابين[٣٨] • والحق يقال بأن آراء هؤلاء

(36) Trevelyan, op. cit., 281.
(37) Gooch, op. cit., 64.
(٣٨) فضلت استعمال كلمة الكرابين وهم الذين يحرثون الارض على كلمة الحفارين Diggers خشية من الالتباس في ذهن القارىء العراقي بصورة خاصة .

لم تكن اقتصادية خالصة وانما هي اقتصادية ـ سياسية بالرغم من ان هدفها الرئيسي الغاء الملكيات الزراعية الفردية واعادة الاراضي المسيجة الى اصحابها من عامة القرويين • حيث ظهر كراس صغير في بداية كانون اول سنة ١٦٤٨ في انكلترا بعنوان (النور يسطع في بكنهامشير Buckinghamshire) بحثت فيه أسباب العبودية في العالم • ومما جاء فيه(٣٩) :

كان الناس احرارا متساويين ••• وليس هناك من تسلط فرد على آخر • الا ان انصياع الانسان لانانيته صيرت منه نهابا مسيجا للارض • لذا اصبحت الاراضي حكرا على أفراد قلة وجعلت الاكثرية عبيدا • ونصب هؤلاء اللصوص عليهم ملكا بصفته اكثرهم استقتالا في السطو على املاك الغير وذلك ليكون حاميا لتصرفاتهم المسفة • يجب ان يكون لكل فرد حصة عادلة لكيلا يضطر الى التسول والسرقة ••• اننا نحكم في الوقت الحاضر من قبل النبلاء والقساوسة • كان نبلاؤنا وفرسانهم في الاصل من خدم وليم الفاتح وحاشيته ، سادوا على حساب خراب الدار • ان قطع دابر هؤلاء يعيد للناس حقوقهم • تحرروا من القساوسة التافهين المخربين الذين يعظونكم تحت شعار القانون الآلهي مصدر السلطات • اياكم والانخداع بآرائهم •

ان الملهم الروحي لاهل المساواة الاقتصادية هو جيرارد ونستانلي Gerard winstanley اذ اصدر في كانون ثاني سنة ١٦٤٩ كراسا بعنوان (قانون العدالة) • هاجم فيه المضاربات في الاراضي واحتكاراتها مناديا بانصاف الفقراء ومهاجما الارستقراطية الزراعية • ومما جاء فيه(٤٠) :

ان بداية المصالح الاثرة هي في ظواهر بيع الارض وشرائها • حينما يقول المرء ان هذا لي ، فكأن الارض قد خصصت سلفا للاقلية لا للاغلبية •

---

(39) Gooch, op. cit., 93.

(40) Trevelyan, op. cit., 270.

الرجال والنساء كافة في انكلترا هم ابناء هذه الارض • ليس هناك من افضلية لاحد على سواه في الانتفاع من الارض •وان بقي الارستقراطيون الزراعيون يتشبثون بالمبدأ الآثر القائل بأن هذا لي وذاك لكم فدعوهم يفلحون الارض بايديهم مباشرة • واسمحوا لابناء الشعب الذين يقولون بأن الارض لنا جميعا يتعهدون الاراضي المخصصة للمنافع العامة •

يعتبر قسم من الانكليز ونستانلي بأنه رائد الشيوعية الانكليزية آنذاك قولا وفعلا • فبعد أربعة اشهر تقريبا من أصدار المنشور السابق بادر مع قسم من اتباعه الى الاستيلاء على جزء من الاراضي العامة في جهات (سنت جورج هل) في نيسان سنة ١٦٤٩ وراحو يكربون الارض ويبذرونها للانتفاع جماعية من خيراتها • ولذا أطلقت عليهم كلمة الكرايين التي فضلناها تسمية على الحفارين • وبالرغم من ضيق رقعة تلك التجربة مكانا وزمانا فانها روقبت بدقة من قبل السلطات التي اعتبرتها في بداية الامر غير جديرة بالاهتمام الا انها عدلت عن ذلك فقررت محقها بعد بضعة اشهر من قيامها • واليك احد التقارير السرية المرفوعة الى مجلس الدولة عن بداية تلك التجربة الجريئة في ١٦ نيسان ١٦٤٩[٤١] :

في اليوم الاحد من الاسبوع الماضي (لشهر نيسان) جاء الضابط المسرح المدعو ايفرارد معأربعة اشخاص الى جهة سنت جورج هل في سورى Surrey • وشرعوا في حرث الارض وبذرها ببذور الجزروالبقول •••• ثم عادوا يوم الثلاثاء بعدد اكبر • ثم قدموا الى ذات المكان في يوم الجمعة وعددهم يتراوح بين العشرين والثلاثين • اشتغلوا جميعا في المزرعة طيلة النهار ثم هددوا برفع كافة الأسيجة من حول الحقول وزرعها • ثم صرحوا بان عددهم سوف يكون اربعة آلاف أو خمسة آلاف

(41) Gooch., op. cit., 94.

شخص خلال عشرة ايام .

اضطرت السلطات الكرومويلية ازاء احتجاجات الارستقراطية الزراعية ورجال الدين للتدخل عن طريق القضاء في أول الامر . اذ امرت بتقديم كل من ونستانلي ورفيقه ايفرارد ليحاكما امام مجلس الدولة للمرة الاولى بعد بضعة اسابيع من قيام تجربتهما . وقد اقتنع القضاة في تلك المحاكمة على ان الاخبار التي وصلتهم هي مبالغ فيها وان عدد الكرايين في جهات سنت جورج هل لا يزيد على العشرين لذا تقرر الافراج عنهما. والمهم في تلك المحاكمة دفاع ايفرارد حيث اشار فيه(٤٢) :

خسر الناس كافة حرياتهم بمجيء وليم الفاتح . ولاح الآن يوم الخلاص . وسوف يعيد الله للناس حريتهم للانتفاع بما تجود به الارض. وقد خطر له خاطر ان يقوم بحراثة الارض وزرعها لجني محاصيلها انه لم يستهدف التدخل في الاملاك الشخصية او رفع الحواجز عنها . وانما هدف الى الانتفاع مما تبقى من الاراضي التي كانت مشاعة لعموم افراد القرية واعادة الحياة اليها .

واصل أهل المساواة الاقتصادية دعايتهم النشطة بعيد الافراج عن ونستانلي وزميله . حيث صدر لهم كراس بعنوان (الطليعة الحقيقية لاهل المساواة) أو (انفتاح المجتمع لابناء الناس) . وقد استفز هذا المنشور اصحاب المصالح المنتفعة واعتبروا محتوياته عبارة عن فلسفة مخربة .توجه المنشور بنداء الى السلطات الانكليزية والعالم ، شارحين فيه الاسباب التي حدت بابناء الطبقة الفقيرة للقيام بحراثة الارض وزرعها في سنت جورج ، اذ جاء فيه :

جعل الله الارض مصدر رزق الانسان والحيوان . غير ان خرق الانسان وبلادته اوجدا العبودية وصيرا منه مستعبدا لبني جنسه اكثر من

(42) Sabine, The works of winstanley (N. Y. 1941) 260.

استعباده للحيوان • لقد دأب الحكام يضاربون بالارض ويسيجونها لهذا قامت الحروب والعداوات • سوف تزول الحروب والحـزازات بعودة الارض لعموم الناس • وهذا ما يشير اليه كل من العقل والانجيل •••• نقمت عليهم السلطات لمناداتهم بالحرية العامة التي هي ليست حقا مكتسبا بالولادة فقط وانما اشتروها باموالهم ودمائهم في الحرب الاهليـة • ان ملاك الأرض كافة يعيشون عيشة منافية لأحدى الوصايا العشر الا وهي وصية (لاتسرق) • لقد غرروا بالانسان الساذج الفقير ليكدح لهم بأجر زهيد ، فاجتنوا الثروات على حساب ذلك الكدح • وقد ساعد كدح الفقير على ظهور الطغاة وسيادتهم على الفقـراء •••• اعلموا بان يوم الحساب لآت لا ريب فيـه حيث تؤخذون علـى حين غرة • سوف تكون الارض للشعب الذي جرعتموه الهوان ازمانـا • وزعوا الارض ان كنتم تطلبون الصفح والرأفة •

قام الجنرال فير فاكس Fairfax في نهايـة شهر مايس سنة ١٦٤٩ بزيارة المزرعة في سنت جورج هل ليطلع بنفسه على ما يدور هناك•وشاهد اثني عشر رجلا يتهدون الارض بصبر وثبات •ودار بين الجنرال وبعض هؤلاء نقاش طريف حينما سألهم عما يفعلون ؟ فاجاب احدهم بانهم يزرعون ارض التاج الموات التي قد استحوذ عليها وليم الفاتح • وهي الآن الـى الشعب •

لم يستسغ الجنرال ولا السلطات الحاكمة ذلك الجواب حيث سيق ونستانلي وزميلين له الى المحاكم في كنكستون Kingston بتهمة التجاوز على املاك الغير • وحكم عليهم بالغرامة • ولم تعد السلطات الكرومويلية لتتسامح بشكل اوسع مع تجربة الكرابين ، اذ امرت بشن هجوم علـى المزرعة النموذجية في خريف سنة ١٦٤٩ خربت المنشآت وفرقت العمال[٤٤] وقد وضع ونستانلي بهذه المناسبة ترتيلا يحث فيه زراع سنت هل علـى

(44) Gooch, op. cit., 97.

الصمود والمقاومة بمطلع (انهضوا الآن انهضوا) واليك نصه [٤٥] :

انهضوا الآن انهضوا
السادة يحيقون بكم انهم يطوقونكم
فانهضوا الآن انهضوا
جاءوا بحكمتهم العميقة لخدعنا في حق ارضنا
فأنهضوا الآن انهضوا
هاهم القساوسة جاءوا لاخباركم بسوء ما تفعلون
لماذا ؟ لشروعنا باسترداد حريتنا
فأنهضوا الآن انهضوا
فالمجـد هنـا .

اصدر ونستانلي بيانا أثر هدم المستوطنة بعنوان (هدية رأس السنة) قال فيه : ان هناك شرائح ملكية لم تزل متسلطة في الجهاز الحكومي... ان العشور قد وهبها وليم الفاتح الى القساوسة ليلهجوا باسمه وحكمه... فان كانت لدينا حكومة جديدة فلتجد قوانين جديدة . انكلترا عبارة عن سجن اسواره وقضبانه . احابيل القانون . وسجانوه هم رجال القانون الذين يجبرون الفقير على الاشتغال طوال النهار باربعة بنسات . ويلجم قساوسة العشور افواه الفقراء بعظةالزهد والراحة الروحانية ... فانكنتم تعيرونني « بالسواسي»فأقوللكم بان المسيح هو على رأسالسواسية[٤٦].

اشار ونستانلي الى كرومويل بانه لا يمكن للثورةالسياسية الاحتفاظ بمكاسبها مالم تستند على اسس ثورية اجتماعية . وقال (ان الكل يعلم لا يمكن ان تكون انكلترا دولة حرة ما لم يكن للفقراء فيها حريةالانتفاع من الارض) . كما حذر ونستانلي الحكومة الكرومويلية ايضا من احتمال حدوث ردة ملكية ضد الثورة . حيث اشار الى ان الارستقراطيةالريفية

---

(45) Trevelyan, op. cit., 271.
(46) Gooch., op. cit., 98.

بما فيهم الفرسان ما زالوا في تسلطهم على الضياع وقد يأتي ذلك اليوم الذي يكشر فيه هؤلاء عن انيابهم ، وعبر عن ذلك في احدى قصائده حيث انشد :

فيك يعلو القانون ويسطع يا انكلترا
ان التاج لك ان تشبثت بالقانون
قولا وفعلا
وان تهاونت وهناك وريث حي
فسوف يسلب تاجك ويسلب
المزيد من الاراضي .

بالرغم من خيبة امل ونستانلي في تجربته العملية فقد استمر نشطا في نشر اديولوجيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وقد ضمن آراءه في كراسين صدرا له في سنتي ١٦٥٢ و ١٦٥٨ . كان الاول بعنوان (قانون الحرية) اشار فيه :

لم يكن الفضل في الانتصار على الملك يعود الى كروموبل وحده وانما للشعب ايضا . لا تجدي التغييرات الظاهرية نفعا . اذ لم تزل العشور تستهلك رزق الفقراء . واحتيال الفقهاء على القانون ما زال كما كان . ولم يزل اللوردات يصولون ويجولون في الارياف ... (٤٧)

ان الفقر وراء كل انواع العبودية . يفضل الانسان الموت على فقدانه الغذاء . ان الحرية الحقيقية هي في تساوى الفرص امام الناس في استثمار الارض . هناك اتجاهان متناقضان في الطبيعة البشرية ، اولهما حب البقاء العام الذي هو اساس الاسرة والامن والاستقامة ، وثانيهما حب البقاء الفردي الذي هو اساس الطمع والظلم . ينسجم الاتجاه الاول مع الصالح العام حيث ينصف فيه الضعيف من القوى ويتماشى الاتجاه الثاني مع الملكية وقوانين وليم الفاتح . الحكومة الملكية حكومة لص كبير سطا على

(47) I bid., 99.

املاك اخيه الصغير بأساليب الغش في البيع والشراء • انــه من الضروري الغاء البيع والشراء كخطوة اساسية للاصلاح • ولا يمكن تجميع الثـروة بالطرق الحلال (٤٨) •

يجب ان يستند الانتاج على الجهدين الفردي والتعاوني •وعلى المنتج ان يجلب انتاجه الى مستودع عام يأخـذ منه بمقدار حاجته ••• تتـاح للجميع فرص التعليم الثقافي والمهني • يجب ان يكون العمل المنتج اجباريا على كل شخص دون الاربعين ويمكنـه الاستمرار في عمله بعد ذلـك العمر ان رغب • يعهد الى من بلغ من عمره الستين الاشراف على رعاية المجتمع ••• على رجال الدين تثقيف الناس ايام العطل في اهم الاحـداث التي جرت خلال الاسبوع وقراءة نصوص من الدستور والقاء محاضرات عامة تهم الجميع • يتم الزواج عن طريق السلطات المدنية ويجوز الطـلاق اذا رغب فيه الزوجان ••••• يعاقب بالاعدام كل من يتعاطى البيع والشراء• ان الذي يقول بان الارض ملك شخص ما يجب وسمه بميسم العار (٤٩) •

اما كراسه الثاني المعنون بـ (فردوس القديسيين) فقد ذكر فيه : ان الشيطان يعشعش في قلب الانسان الذي يعتقد بانه لا يمكن العيش بدون الدراهم والامتلاك • ان الصوت الطاهر النقي يصرخ بين الجوانح بان على الفردان ينبذ تلك السفاسف •

اما عن حياة ونستانلي الاولى فلا يعرف عنها الشيء الكثـير سوى اشاراته الخاصــة المقتضبة • اذ يقول عن نفسه بانــه كان يمتلك حريته الشخصية الا انه خسر حيثيته وتجارته بوقوعه فريسة للغشاشين المخادعين في المعاملات اللصوصية في البيع والشراء • لهذا اضطر ان يعيش حيـاة قروية وحتى هناك فقد قصمت ظهره الضرائب واستضافه الجند الاجبارية•

---

(48) Sabine, Political Theory, 493.

(49) Gooch, op. cit., 100.

وقد انتهى به المطاف بالانضمام الى صفوف فرقة الكويكر الدينية. ويشار الى ونستانلي بانه الانكليزي الوحيد آنذاك الذي اهتم برفاه الجماهير المادي والاجتماعي والسياسي . اعتقد بامكانية تغيير الطبيعة فيما اذا امكن تغيير الظروف المحيطية والاستعاضة بعلم الطبيعة عن خزعبلات الاوهام .

يتبادر الى الذهن سؤال قد أراه جديرا بالاهتمام بصدد فريقي اهل المساواة السياسية والاقتصادية الا وهو هل هناك سمات عامة بينهما ؟ يكمن التشابه بين الفريقين في منطلقهما من فكرة حقوق الانسان الطبيعية المستندة على الفلسفة العقلية ذات الاطار المسيحي وفي الاهتمام بشؤون الفقراء وكذلك في مهاجمة الاستغلال باي شكل من اشكاله وخاصة الاقتصادي منه . فقد شن جون للبورن حملة شعواء على (المغامرين التجار) . كما هاجم ولويان weluyn وهو ايضا من اهل المساواة السياسية ، (شركة الليفانت) الاحتكارية . [50] ويمكن القول ايضا بان الاتجاهات السياسية والاقتصادية متداخلة ومتشابكة بالنسبة للجانبين . الا اننا يمكننا القول بان اتجاهات اهل المساواة السياسية هي سياسية اولا واقتصادية ثانيا بينما يؤكد اهل المساواة الاقتصادية على الجانب الاقتصادي اولا وعلى الجانب السياسي ثانيا . كما فضل الجانبا ن العلمانية في الحكم والسعي لتحقيق دولة الصالح العام على اسس شعبية .

لم تكن حركة اهل المساواة في العهد الكرومويلي حسب رأينا سوى مظهر من مظاهر التناقض الطبقي بين الاغنياء والفقراء بالرغم من ملابساتها الدينية . وقد استوعب ذلك بعض المفكرين السياسيين الآخرين آنذاك وخاصة جيمس هونكتون Harrington [51] فبالرغم من ارستقراطيته فقد حاول ان يعالج المشكلة باسلوب طوباوي (كومونويلث اوفاوقيانا)

---

(50) Bncyclopaedia of Social Siences, IX-X, p. 421.

(51) J. Harrington, The Commonwealth of Oceans (Edn. 1887).

سنة ١٦٥٦ ، ويقصد « باوقيانا » بريطانيا • سار في بحثه على الاسس العقلانية متلمسا ان الاصلاح السياسي لا يتم بمعزل عن الاصلاح الاقتصادي باعادة توزيع الثروة • وكان في ذهن هرنكتون ظاهـرة التسبيح وما ادت اليه من مآسي • لهذا فان نقطة الانطلاق بالنسبة له (توازن الثروة) حيث اشار الى ان استقرار المجتمع يعتمد على كل من توزيع الثروة والعـلاقات القائمة بينها وبين السلطة الحاكمة • وعليه يجب ان يكون قانون الاراضي هو اساس الدولة ذاكرا عدة مقترحات من اجل تلك الغاية • حيث قال بانه لا يسمح للفرد بان يتملك ارضا تدر عليه اكثر من الفي جنيه سنويا في انكلترا وثلثمائة جنيه في سكوتلاند • ولا يجوز للفرد ان يشتري ارضـا اضافية ان كانت له املاك تدر عليه في حدود المبلغين السالفين • ويجب توزيع الارض بالتساوي بين الورثة ••• وان الحروب الاهلية كانت نتيجة للصراع بين الملاكين القدامى والجدد • ثم دعا هرنكتون الى جمهوريـة ارستقراطية مستندة على اسس اشتراكية في تقسيم الارض • ثم اعتقد بان سبب الثورات الرئيس هو عدم العدالة في توزيع الثروة • وان الحكـم الشعبي لا يستقيم مع حكم النبلاء • فان سمح للنبلاء بالتملك الواسـع فسيكون الحكم بيدهم ويضطر العامة للاستكانة لهم معاشيا وسياسيا • كما أن السماح للعامة بالتملك يؤدي الى تحديد سلطة الارستقراطيـة حيث يمهد السبيل لحكم دولة الصالح العام •

لقد كره هرنكتون المساواة الاقتصادية ولم يؤمن بامكانيـة تعايش الارستقراطية وعامة الشعب فيمـا لو وزعت الارض بالتساوي • اذ ان التساوي حسب رأيه يؤدي الى عدم استقرار الحكم ، وسوف يحتم الوضع آنذاك على كل من الارستقراطية والعامة الاشتباك في صراع لا ينتهي الا بابتلاع احدهما للآخـر • ثم راح هرنكتون في طوباويته يضع دستـورا سياسيا واقتصاديا للحكم الامثل كما يتصوره على أسس ارستقراطية • اذ قسم الناس الى احرار وخدم • فالاحرار هم المواطنون • ثم قسم الرجال

الى عسكريين في الخدمة الفعلية والى احتياط حسب فارق العمر • ثم وضع تقسيمات ادارية مستندة الى توازن الثروة بتفاصيل لا تخلو من طرافة •

وعلى العموم فان الآراء السياسية والاقتصادية التي برزت فيالفترة الكرومويلية في انكلترا ابتداءا باهل المساواة وانتهاءا بهرنكتون كانت لها تأثيرات بعيدة المدى في تاريخ انكلترا في النصف الاول من القرن التاسع عشر • وذلك حينما زادت الثورة الصناعية في مصائب الفقراء والسعي لايجاد الحلول لها • ويعتقد البعض ان حركة روبرت اونالتعاونية وظهور الاتجاهات اللبرالية الراديكاليةوكذلك الآراء الاشتراكيةهيغرسات من بذور الفكر السياسي والاقتصادي للعهد الثوري الكرومويلي •

منهج الجبرتي في كتابة التاريخ من خلال كتابه
(عجائب الآثار في التراجم والأخبار)

أعدّ البحث
الدكتور محمد حسين الزبيدي
جامعة بغداد - كلية الآداب

كانت الحياة السياسية في مصر في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي قلقة لا تستقر على حال من الاحوال وكانت مصر يومها مسرحا لاحداث جسام تعاقبت عليها دول وقامت فيها ثورات وفتن وعمت فوضى الجند في البلاد بسبب عجز الدولة عن دفع مرتباته واستفحل النزاع بين الفرق التركية والعائلات المملوكة وراحت اسر عريقة ضحية للغدر والخيانة بينما حكمت اسر اخرى دخيلة على البلاد لا تمت إليها بصلة جاءت عن طريق الدس والخديعة واضطرمت نار الفتنة حول استلام السلطة واقامت حروبا اهلية طاحنة لا نهاية لها .

وصارت قصور الامراء والحكام في مصر يومها مكانا تحاك فيه المكائد والدسائس والمؤامرات وفي هذا الجو المضطرب عاش الجبرتي وعاصر اهم الاحداث والتقلبات ، فعاصر عصورا ثلاثة ـ اواخر العصر المملوكي وشاهد عيان للاحتلال الفرنسي والسنين الاولى بحكم محمد علي .

كان الجبرتي على جانب كبير من العلم والمعرفة فضلا عن طموحه الشديد فاستطاع بذلك ان يدخل معترك الحياة السياسية فاختاره نابليون عندما استولى على مصر عضوا في ديوان الاعيان وهو الديوان الذي حاول

ان يحكم به مصر . ولما خرج نابليون من مصر تولى وظيفة افتاء الحنفية وموقتا للصلاة ورؤية هلال رمضان وهلال شوال في بلاط محمد علي.

وبهذا استطاع ان يقف عن كثب على سير امور البلاد وفي نفس الوقت هيأ له قربه من السلاطين والامراء ان ينال خطوة كبيرة ومقاما رفيعا واصاب نفوذا عظيما غير ان ذلك سرعان ما زال بغضب محمد علي عليه .

لقد ناصر الجبرتي الفرنسيين ثم محمد علي من بعدهم ولكنه رغم كل ذلك كان في الحالتين حر الرأي نافذه وقد نقد في هدوء الاعوام السبعة عشر الاولى من حكم محمد نقدا لاذعا .

عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي .

ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ م) وهو من اسرة من العلماء اخرجت كثيرا من شيوخ رواق الجبرتية بالازهر ولعل اعظم رجال هذه الاسرة والده الشيخ حسن وقد اشتهر بأنه اخر من درس علم الهيئة بجامع الازهر .

وقد سار عبد الرحمن على سنة اسرته وما لبث ان تخرج في الازهر بعد ان درس علوم الدين والفقه واللغة وبرع ايضا في الحساب والهندسة وعلم الفلك . فصار من كبار علماء الازهر بعقد حلقات التدريس لطلابه ومريديه .

وقد قتل له ولد فبكاه مر البكاء حتى ذهب بصره ولم يطل عمره حتى قتل غيلة في شارع شبرا اثناء عودته الى القاهرة في الليلة السابعة والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ ٢٢ يونيه ١٨٢٢ م خنقا وألقى تبعة قتله على محمد علي لانه عرف بعض رأي الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجع والاخبار) وكان يقوم بتأليفه اذ ذاك وقد الف عدة كتب هي:

١ ــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

٢ ــ عجائب الآثار في التراجم والاخبار (٤) اجزاء .

٣ ـ مختصر تذكرة الشيخ داود الانطاكي .

٤ ـ نقد كتاب الف ليلة وليلة .

ان الذي يعيننا من تاريخ الجبرتي الجزء الاول منه موضوع بحثنا وهو مخطوط يوجد في مكتبة متحف الآثار العراقي تحت رقم ١٦٣٦ ويحتو على ٤٠٥ صفحة من القطع الكبيرة وتحتوي كل صفحة على ٢٥ سطرا .

وقد كتب في الورقة الاولى من المخطوط عدة سطور بخط مغاير للاصل . وقيل ان هذه الاسطر كتبها الاب انستاس الكرملي يقول فيها :

(هذا المخطوط بخط مؤلفه الجبرتي وهو يختلف كثيرا عن المطبوع لانه لما طبع حذف منه اشياء كثيرة ما كانت توافق آراء اهل الحل والربط فتصرفوا فيه . اما هذا المخطوط فهو المعول عليه اذ هو الاصل) .

وجاء في الورقة الاخيرة من المخطوط عدة اسطر كتبت بخط مغاير للاصل ايضا . (هذا آخر ما يسره الله لي من تدوينه في هذه السنة بنا الله جل جلاله حسن الخاتمة والحمد لله تبارك وتعالى في البدء والختام والصلاة والسلام على سيدنا محمد من هو للانبياء ختام وعلى آله واصحابه الائمة الاعلام . قاله بضمه وحرره بقلمه الفقير الحقير راجي رحمة ربه الغني عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي غفر الله له وعامله بلطفه) ولتاريخ الجبرتي قيمة اجتماعية واقتصادية كبيرة فضلا عن قيمته السياسية فهو صورة مفصلة لحياة الشعب المصري في ذاك الوقت .

وترجع قدرته في رسم هذا المجتمع الى وضعه الاجتماعي الذي سهل عليه الاحاطة بما يحدث حوله . وبيئته العلمية التي نشأ فيها والظروف التي احاطت به وهي بلا شك ظروف مناسبة اتاحت له فرصة الانصراف والتفرغ لطلب العلم والمعرفة . فدرس علوما متعددة معتقدا بأن المؤرخ لا بد

له ان يكون ملما بعلوم كثيرة فاذا كان لا يعرف الا التاريخ (روايةالاخبار) كان قاصا فقط .

دون الجبرتي في تاريخه هذا حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه واوائل القرن الثالث عشر على شكل مسودات جمع فيها بعض الوقائع والامور التي شاهدها بصورة اجمالية واخرى محققة تفصيلية ومعظمها محن ادركها وامور شاهدها وكتب ضمن ذلك سوابق سمعها وتلقاها من افواه المشايخ وجاء فيه بعض تراجم الاعيان والمشهورين من العلماء والمفسرين ولمح من اخبارهم واحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفاتهم .

ثم جمع شملها وقيد شواردها ـ كما ذكر ـ في اوراق متسعة النظام مرتبة على السنين ليسهل على الطالب المراجعة والاستفادة وكان يهدف من هذه الاخبار والاحداث الى العظة والعبرة في بعض الاحيان ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ويستفيد من يريد المنفعة ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فلا ييأس اذا اصابته مصيبة ويتعظ بحوادث الدهر .

واهذا سماه (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) .

ولما عزم الجبرتي على جمع ما كان قد سوده اراد وصله بشيءقبله فلم يجد بعد البحث الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الاجناد ركيكة التركيب مختلفة الترتيب والتهذيب وقد اعتراها النقص في مواضيع في سرد بعض الوقائع . فقال فيه (وكنت قد ظفرت بتاريخ من ذلك الفرع لكنه على نسق بالجملة مطبوع لشخص يقال له احمد جلبي بن عبد الغني مبتدأ فيه من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية وينتهي سنة ١١٥٠ هـ) .

ولكن هذا الكتاب استعاره بعض الاصحاب (وزلت به القدم ووقع

في صندوق العدم) فرجع يجمع التاريخ ويدونه مرة اخرى معتمدا على ذكريات الشيوخ والمسنين والوثائق الرسمية وصكوك دفاتر المكتبة والمباشرين والكتابات التي على شواهد القبور . مدونا بذلك اخبار اول القرن الثاني عشر الى عام ١١٧٠ هـ .

أما ما بعد عام ١١٧٠ هـ فأنه اعتمد في تدوينها على مشاهداته الخاصة حتى تم تأليف الكتاب وقد ذكر المؤلف حوادث مرت به وهو حدث صغير ، ويفصل الكلام عن الحوادث ابتداء من عام ١١٩ هـ ولذلك كان لكتابه شأن الجريدة المعاصرة لهذه الفترة لانه دون فيه كل الحوادث التي شاهدها . ومما لا شك فيه بأن نزاهة احكام الجبرتي أمر اكيد فهو من بيت علم يعرف قدر الرواية المحكمة اذ رواها شاهد عيان .

على ان الجبرتي لا ينكر في مواضع من كتابه أنه استفاد ممن جاءوا قبله وتناولوا كتابة التاريخ بالدراسة والبحث كالاسحاقي والدمرداشي وابن اياس وابن زينل وابن خلدون وان لم يشير اليه بصراحة الا ان ذلك واضح كل الوضوح في ثنايا كتابه وبذلك اتيحت له فرصة كبيرة لمراجعة الكثير من الكتب التي تعني موضوعه ، كمرج الزهور وبدائع الزهور وتاريخ القرماني ومقدمة ابن خلدون وغيرها . فكل هذه كتب اسهمت في تغذية افكاره وتوجيهها .

من ذلك يتضح ان الجبرتي اعتمد في جمع تاريخه على مصدرين اساسيين اولهما كتب التاريخ استعان بها في كتابه التمهيد والمقدمة ولا سيما فيما يتعلق باستعمال العرب للتاريخ الهجري وفي تقسيم المجتمع الى طبقات وغير ذلك . وثانيهما شهود عاصروا الاحداث وهؤلاء ينقسمون الى : اما شهود سماع سمعوا الاحداث وروها او شهود شاهدوا الاحداث او ساهموا فيها فوصفوها وصفا دقيقا . واهم من هذا

كله ما كتبه الجبرتي للاحداث المعاصرة التي شاهدها او ساهم فيها وهذا اوثق قسم من الكتاب .

ومن الاشخاص الذين بذلوا المساعدة للجبرتي في كتابة تاريخه هذا وامدوه بمادة غزيرة صديقه اسماعيل الخشاب وكان هذا الصديق من عدول المحكمة وقد حوت هذه المحكمة صكوكا كثيرة ووثائق رسمية ودفاتر الكتبة والمباشرين فطلب منه ان يدون له اسماء الناس واعمارهم ولم يكتفي الجبرتي بذلك بل طاف في المقابر لقراءة شواهد القبور والاتصال بأهل الموتى وذويهم لاستقاء المعلومات الصحيحة والاستفادة من ثأرهم ومخلفاتهم ان وجدت .

وقد تجنب الجبرتي اخطاء المؤرخين الذين سبقوه وهي الثقةالمطلقة برواة الاخبار فأخذ يمحص كل خبر ويدققه بعناية جيدة واعتقد انالخبر نفسه يحتمل الصدق او الكذب وبذلك اعطانا صورة امينة وموضوعية في تحريه للحقائق التاريخية التي لا يمكن للانسان الوقوف عليها كاملة فقال : (فلا اكتب حادثة حتى اتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار وغالبها من الامور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف وربما أخرت قيد الحادثة حتى اثبتها ويحدث غيرها وانساها فأكتب في طيارة (فيشة) حتى اقيدها في محلها عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطف) .

وقد كتب الجبرتي للحقيقة والتاريخ دون ابتغاء مرضاة الآخرين وابتعد كل الابتعاد عن الهوى او المصلحة ولم يتأثر كما تأثر غيره من المؤرخين في سردحوادث التاريخ بمذهبهالديني او السياسياو الاجتماعي وانما كان نزيها في كل ما كتب ، ولم يتكسب بكتابة التاريخ فيكتب على النحو الذي يرضى الرؤساء والعظماء او الاغنياء تقربا منهم او تزلفا اليهم او منافقا . ومن هنا طغى على كتاباته الجانب الاخلاقي .

وقد اكد هذه الحقيقة في نهاية مقدمة المقدمة حيث قال (ولم اقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير أو امير او ان فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق لميل نفساني او غرض جسماني) .

وقد تميز الجبرتي فضلا عن ذلك بواقعيته وحبه للحقيقة وتحريه للواقع فلم يجعل من تاريخه كتابا . لعلية القوم او خاصتهم كما لم يوقفه على الامور الجليلة الهامة او الاقتصاد على سرد اسماء الملوك والامراء او وصف المعارك والميل للمبالغة في اعمال الملوك والامراء واعداد الجيوش وغيرها وانما جعله سفرا عاما يؤرخ فيه كل حدث ضخم كبير او تافه صغير ولم يترك شيئا وصل له مهما كان قيمته العلمية الا ودونه في هذا السفر .

فأن هذا القول الذي أورده الجبرتي يدل دلالة واضحة على انه يعلم علم اليقين قيمة هذا البحث وهو يعتز بجهده الذي عالج فيه التاريخ غاية الاعتزاز ، ولا يمنعه التواضع من التنويه عنه بأسلوب المؤرخ القدير الذي يعرف كيف يصل الى اهدافه وغاياته بسهولة ويسر .

وتأتي اهمية هذا الكتاب من أن صاحبه عاصر تلك الحوادث وشاهد اكثرها شهادة عين ودونها بلحظاتها ، ولا سيما اخبار الحملة الفرنسية واوائل ولاية محمد علي .

وبعد هذا الكتاب من حيث الحوادث التاريخية المصرية كالتكملة لتاريخ ابن اياس .

طبع تاريخ الجبرتي سنة ١٢٩٧ هـ وبعدها في اربع مجلدات ويقال انه طبع طبعة قبل هذه السنة صادرتها الحكومة لان فيها طعنا في اعمال محمد علي رأس الاسرة الخديوية ثم اصدرت الحكومة هذه الطبعة بعد حذف الطعن وكل ما اظهر من الطبعات منقولة عنها وقد نقل هذا التاريخ الى اللغة الفرنسية شفيق منصور وعبد العزيز كحيل ونقولا كحيل

واسكندر عمون وطبع في القاهرة سنة ١٨٨٨ م .

ومن ميزات كتابه هذا انه اسهب واطال في تراجع الاشخاص فقد ترجم هل من عرفهم او لا يعرفهم وبغض النظر عن قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية من امراء واعيان ومن كل رفيع او وضيع . ولقد غالى في الاستشهاد بالشعر والشعراء من متقدمين ومعاصرين حتى زادت على بضعة مئات والذي يبدو انه لا يعاني نظم الشعر وانما يحفظه ويتذوقه .

ولم يهمل الجبرتي الاحوال الاجتماعية والحياة الاقتصادية الفاعلة في سير التاريخ التي كثيرا ما كان يجهلها بعض المؤرخين اما غفلة فهم عن ملاحظتها أو جهلا بتلك الاحوال جملة .

فذكر اسعارالمحصولات الزراعية بشكل دقيقوالازمات الاقتصادية التي مرت في البلد والمشاكل والفتن الاهلية التي كانت تثيرها هذه الازمات .

وتكلم بشكل مفصل عن السكة والنقود فعدد انواع العملة واسماءها وذكر اوزانها .

يحتوي الجزء الاول من تاريخ الجبرتي على فصلين كبيرين .وجعل للكتاب مقدمة ثم جعل لهذه المقدمة مدخلا صغيرا او تمهيدا يقع في احدى عشرة صفحة عرف في بدايتها التاريخ تعريفا علميا دقيقا وعين بشكل واضح وحدد اغراضه واهدافه ومراميه وبين فائدته .

فعرف التاريخ بأنه علم يبحث فيه معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وانسابهم ووفاتهم .

وقال في تمديد موضوعاته (انها تشمل احوال الاشخاص الماضية من الانبياء والاولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم) .وهو من هذه الناحية يختلف في فهمه للتاريخ مع ابن خلدون،

اذ يراه تاريخا بالاشخاص بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية وتأثيرهم في الاحداث في البلد .

في حين ان ابن خلدون رفض المبدأ رفضا قاطعا واكد بقوة على ان التاريخ دراسة للاحداث من حيث اثرها الاجتماعي ومعناها الفلسفي ،اذ انه نص على ان التاريخ (علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الانساني) ثم اوضح سبب ذهابه هذا المذهب حين قال ان دراسة التاريخ تستلزم تعليل الحوادث وربط بعضها ببعض وانه يجب ان يتناول وصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيها من تيارات سياسية واحداث عسكرية وصناعة وتجارة وعلم وفن ومن حركات اجتماعية عامة او دينية او اقتصادية او فكرية .

اما فائدته واغراضه فهي المعبرة بتلك الاحوال والنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحرز العاقل عن مثل احوال الهالكين من الامم المذكورة السالفين ويستجلب خيار افعالهم ويتجنب سوء افعالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي) .

قال الشافعي : من علم التاريخ زاد عقله .

وتمثل بالابيات الشعرية قائلا :

اذا عرف الانسان اخبار من مضى
توهمته قد عاش من اول العمر
وتحسبه قد عاش آخر دهره
الى الحشر ان ابقي الجميل من الذكر

فكن عالما اخبار من عاش وانقضى
وكن ذا نوال واغتنم آخر الدهر

وقد اوضح في هذا التمهيد موضوع بداية التاريخ الاسلامي ، واكد على ان اول من وضع التاريخ في الاسلام الخليفة عمر بن الخطاب

(رض) وذلك حين كتب ابو موسى الاشعري الى عمر انه يأتينا من قبل امير المؤمنين كتب لا ندري ايها نعمل فقد قرانا صكا محلـه شعبان فما ندري اي الشعبانيين هو الماضي ام القابل وقيل رفع لعمر صك محلـه شعبان فقال اي شعبان هذا ؟ هذا هو الذي نحن فيه او الذي هو آت ثم جمع وجوه الصحابة رضي الله عنهم • وقال ان الاموال قد كثـرت وما قسمناه غير موقت فكيف التوصل الى مـا يضبط بـه • وبعد ان استعرض الصحابة تواريخ الفرس والروم واليهود وغيرهم استقر الرأي على ان يجعلوا تاريخ دولة الاسلام من وقت هجرة الرسول •

وقد انهي هذا التمهيد بقوله سنورد انشاء الله تعالى ما ندركه من الوقائع حسب الامكان والخلو من الموانع الى ان يأتي امر الله وان مردنا الى الله ولم اقصد بخدمته خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير او اميـر ولم أدان فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق اميل نفسـاني او غرض جسماني وانا استغفر الله من وصفي طريقا ولم اسلكه وتجارتي برأس مال لم املكه) •

ثم استشهد بهذين البيتين من الشعر :

ومن يحدو وليس لـه بعيـر
ومن يرعى وليس لـه سـوام

ومن يسقي وقهوتـه سراب
ومن يدعو وليس لـه طعـام

وبعد التمهيد تأتي مقدمة الكتاب وتقـع في سبـع صفحات وهي محاولة لمحاكات مقدمة ابن خلدون فقد تطرق فيها الى علم الاجتماع حيث تحدث عن ضرورة تكوين المجتمع البشري واهميته واسـباب نشوئه • واوضح فيه انه لا يمكن للانسان ان يعيش بدون المجتمع ان الانسان يولد عضوا في اسرة او قبيلة او انه انضوءة تحت لواء الجماعة بالفطمة

ليوفر على نفسه اسباب العيش فقال :

(ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها واخرج منها ماءها ومرعاها وبث بها من كل دابة وقدر اقواتها أحوج بعض الناس الى بعض في ترتيب معاشهم ومأكلهم وتحصيل ملابسهم ومساكنهم لانه ليس كسائر الحيوانات التي تحصل على ما تحتاج اليه بغير صفة فأن الله تعالى خلق الانسان ضعيفا لا يستقبل وحده بأمر معاشه لاحتياجه الى غذاء ومسكن ولباس وسلاح فجعلهم الله يتعاضدون ويتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذاك ويخبز ذلك لهذا وعلى هذا القياس تتم سائر امورهم ومصالحهم) .

ومعنى هذا ان الانسان مدني بالطبع او اجتماعي بالطبع وهو نفس الرأي الذي ذهب اليه ابن خلدون وعبر عنه في مقدمته المشهورة قال :

(ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسك بفطرته ربما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير صوفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحين والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري وهب انه يأكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج في تحصيله ايضا حبا الى اعمال اخرى أكثر من هذه الزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة ..) هذا هو كلام ابن خلدون ، وقد استوفاه الجبرتي بعبارة

موجزة مقتضبة ، واخذ منه فحواه ولبه .

ثم ينتهي الجبرتي بعد ان يبرهن على ان الانسان اجتماعي او مدني بالطبع الى حاجة هذا المجتمع بعد تكوينه الى حاكم عادل يدير شؤونه وبالتالي ظهور الدولة والقوانين والانظمة لتحكم هذا المجتمع وتسيره وفق المطلوب . فيقول :

ثم مست الحاجة بينهم الى سائس عادل وملك عالم يصنع بينهم ميزانا للعدالة وقانونا للسياسة يوزن به حركاتهم وسكناتهم وترجع اليه طاعتهم ومعاملاتهم . والجبرتي في هذا يتبع ابن خلدون فيما ذهب اليه من احتياج الناس الى السلطان والحكم ، لتنظيم حياتهم ، وتسييرامورهم فيقول ابن خلدون :

ان الملك منصب طبيعي للانسان ذلك ان البشر لا يستطيعون الحياة الا باجتماعهم وتعاونهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة وقد يطمع كل منهم فيما يملك غيره بما في طبيعة الانسان من ظلم وعدوان ويمانعه الآخر بمقتضى الغضب والانفة والقوة البشرية فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة والهرج وسفك الدماء وانقطاع النوع الذي خصه الباري سبحانه بالمحافظة ومن هنا برزت حاجتهم الى حاكم قوي يسلمون له قيادهم ويخضعون لاوامره ونواهيه ليعيد الى مجتمعهم النظام ويقي الضعيف بطش القوي .

ويرى ابن خلدون انه لا بد لكل حاكم عندما يتولى امر الناس ان يضع قانونا لهم يسيرهم وفق مبادئه لان هذا القانون مما يعجل باستتباب الامور ويجمع القلوب على حبه .

ثم قسم الجبرتي المجتمع الى طبقات خمس سماها اصنافا مستشهدا بالآية الكريمة (رفع الله بعضهم فوق بعض درجات) واستشهد بقوله تعالى ايضا (هو الذي جعلكم خلائق في الارض ورفع بعضكم فوق

بعض درجات) مخالفا بذلك جمهرة علماء الاقتصاد الذين يجعلون التفاوت الاقتصادي اساسا لتقسيم المجتمع • وجعل الانبياء الطبقة الاولى : لانهم عمد الدين وامناء الله في خلقه وهم السرج المنيرة على سبيل الهـدى وحملة الامانة عن الله الى خلقه بالهداية وبعثهم رسلا الى قومهم •

أما الطبقة الثانية : فجعلها للعلماء الذين هم ورثة الانبيـاء وهم احباب الله وصفوته •

وجعل الملوك وولاة الامور في الطبقة الثالثة • لانهم يراعون العدل والانصاف بين الناس والرعايا توصلا الى نظام المملكة وتوصلا الى قوام السلطنة لسلامة الناس في املاكهم وابدانهم وعمارة بلدانهم ولا قهرهم ولا سطوتهم تسلط القوي على الضعيف والذي علـى الشريف •• لان الظلم والجور كامن في النفـوس ولا يظهـر الا بالقـدرة ثم استشهد قائـلا :

لولا الخلافة ما قامت لنا سـبلا

وكان اضعفنا نهبا لاقوانـــا

أما الطبقة الرابعة : فهم اوساط الناس ، يراعون العدل في معاملاتهم بالانصاف منهم ويكافئون الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها •

والطبقة الخامسة : هم القائمون بسياسة نفوسهم وتعديل قواهـم وضبط جوارحهم وانخراطهم في سلك العدل لان كل فرد من الافـراد مسؤول عن رعايته كما قال الرسول (ص) كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، وكما قيل صاحب الدار مسؤول عن اهل بيته وحاشيته •

وختم الجبرتي هذه المقدمة (بتوضيح) كما سـماه ، عرف فيـه الانسان تعريفا علميا دقيقا وميزه عن الجماد والبهائم بفضله النطق والعلم• واشار الى الغرائز وبين تأثير التربية والمران ودورهما على تنشيط هذه الغرائز وتمنحها وتوجيهها الى جهة الخير او الشر ، فقال :

ان الانسان من حيث الصورة التخطيطية كصورة في جدار وانما فضيلته بالنطق والعلم ولهذا قيل ما لانسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة فبقوه العلم والنطق والفهم يضارع الملك وبقوة الاكل والشهوة والنكاح والغضب يشبه الحيوان فمن صرف همته كلها الى تربية القوة الفكرية بالعلم والعمل فقد لحق بأفق الملك فيسمى ملكا وربانيا كما قال الله تعالى (ان هذا الا ملك كريم) .

ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوانية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فحقيق بأن يلحق بالبهائم .

وينفرد الجبرتي في هذا الفصل عمن سبقه من المؤرخين بما فيهم ابن خلدون في اسداء النصح فيه للحكام والملوك الذين يسوسون الرعية واوضح لهم سبل السياسة واكد عليهم بالتشاور والتعاون مع ذوي الالباب فقال (من استعان بذوي العقول ادرك المأمول) واكد على العدل بين الناس بقوله (من عدل في سلطانه استغنى عن عوانه) وانه يرى ان من استشار ذوي الرأي والالباب اصحاب الصواب وسلك سبيل الرشاد .

وحذر الملوك والحكام من ابعاد ذوي الفضائل واصطناع ذوي الرذائل والغرور والاستخفاف بعظمة الناصح أو الاغترار بمدح المادح ومن استغنى بعقله ضل ومن اكتفى برأيه زل .

كما حذرهم تحذيرا شديدا من اصطناع السفلة فانهم سبب هلاكهم وزوال نعمتهم .

وربط صلاح الامة والشعب بصلاح الملك ضرب لنا امثلة متعددة استخلصها من تاريخنا الاسلامي في وجوب النصح للملك او الامير فقال (كتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصري انصحني فكتب اليه ان الذي يصحبك لا ينصحك والذي ينصحك لا يصحبك) .

وسأل معاوية الاحنف بن قيس كيف الزمان فقال له أنت الزمان ان صلحت صلح الزمان وان فسدت فسد الزمان •

وأكد الجبرتي على ان آفة الملوك سوء السيرة وآفة الوزير خبث السريرة وآفة الجند مخالفة القادة وآفة الرعية مخالفة السادة •

ثم انتقل الجبرتي بعد ذلك الى الغرائز الانسانية واثر البيئة والتربية فيها • فذكر بأن الاخلاق صفة غريزية في الانسان الا انه يمكن تنميتها وتهذيبها وتوجيهها الوجه المطلوبة بالرياضة والممارسة والتدريب فهي تتأثر بمعاشرة الاصدقاء اما بالصلاح او الفساد فرب طبع كريم افسدته معاشرة الاشرار وطبع لئيم اصلحته مصاحبة الاخيار واستشهد بقول الرسول (ص) (بأن المرء على دين خليله) واستشهد ايضا بقول علي بن ابي طالب يوصي ابنه الحسن (الاخ رقعة في ثوبك فانظر بمن ترقعه) •

وبعد أن طلب من الله ان يسير له حسن الختام ويصرف عنه سوء القضاء انتقل مباشرة الى موضوع آخر لا يمت الى الموضوع الذي سبقه بصلة فدخل الى صلب تاريخ البشر • وسرد الحوادث التاريخيةواعتبرها بداية او مدخلا لموضوعه فقال : (وهذا او أن انشقاق كمائم طلع التاريخ عن زهر مجمل التاريخ ، ثم بدأ بعد هذا يتكلم عن الخلافة والرسل والانبياء واعتبر آدم اول خليفة في الارض ثم توالت بعده الرسل وان واجب هؤلاء الرسل مقررون شرائع الله بين عباده وان محمدا (ص) خاتم الانبياء •

ثم تكلم عن دور الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول واشار الى قول الرسول بأن الخلافة من بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضودا •

وبعدها استعرض الدولة الاموية وثم الدولة العباسية حتى دخول التتر الى بغداد وسقوطها ومقتل الخليفة العباسي •

وبعد هذا العرض الذي قدمه لنا الجبرتي ينتقل الى الدويلات التي انفصلت عن الخلافة العباسية فأحمد بن طولون واولاده بمكة والشام ومصر ثم الاخشيديون ٠

وقد استعرض في بقية الفصل تاريخ مصر من الاخشيدين الى سنة ١١٤٢ هـ الى السلطان سليم بن السلطان سليمان وكتب عن ملوك هذا الدور اخبارا عن حياتهم واعمالهم واستعرض الحياة السياسية العامة في البلد واوضح التكالب على المناصب والمؤامرات التي تحاك ضد بعضهم البعض وسرد لنا احداثا وقعت في هذا الخصوص ثم ذكر الجبرتي في نهاية الفصل ثبتا كبيرا بمن توفي في هذه السنوات من بداية القرن حتى سنة ١١٤٢ هـ وقد تضمن ثبت الوفيات قصائد كثيرة جدا في رثاء من مات ٠

ومن أهم ما ذكر في هذا الفصل من احداث مهمة كان لها تأثيرا مباشرا على حياة الناس هو تدهور الوضع الاقتصادي والمالي الذي ساد البلاد في هذه الحقبة من الزمن وارتفاع الاسعار والمجاعات التي حلت بالبلاد نتيجة سوء الادارة الاجنبية وهي سياسة معروفة اتصف بها المستعمرون ٠

لقد حلت في البلاد مجاعة في الثاني عشر من رمضان سنة ١١٠٢هـ فهاجر اهل القرى والارياف الى مصر حتى امتلأت بهم الازمة واشتد الكرب على الناس حتى اكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع وخلت القرى من اهاليها ٠ فبيع من الحنطة بستمائة نصف فضة والشعير بثلاثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والارز بثمانمائة نصف فضة ٠

وخطف الفقراء الخبز من الاسواق ومن الافران من على رؤوس الخبازين ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيدهم العصي حتى يخبزوه في الفرن ثم يعودون به ٠

وظل الامر كذلك الى ان عزل علي باشا في الثامن عشر من محرم سنة ١١٠٧ هـ وتولى بعده اسماعيل باشا . ومن الطف ما اذكر عن اسماعيل باشا طريقة معالجته لهذه المجاعة الرهيبة وهي طريقة مبتكرة وطريفة فقال الجبرتي : (فلما استقر ـ اسماعيل باشا ـ بالولاية ورأى ما فيه الناس من كرب وغلاء فأمر جميع الفقراء والشحاتين بأن يحضروا بقرا ميدان . فلما اجتمعوا امر بتوزيعهم على الامراء والاعيان كل انسان على قدر حاله وقدرته واخذ لنفسه جانبا ولاعيان دولته جانبا وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء الى ان انقضى الغلاء) .

وقد اعقب هذه موجة الغلاء والقحط هذه وباء عظيم فتك بالآف الناس فأمر الباشا بيت المال ان يكفن الفقراء والغرباء فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ويذهبون بهم الى مغسل السلطان الى ان انقضى امر الوباء . وذلك خلاف من كفنه الاغنياء واهل الخير والتجار وغيرهم .

وفي سنة ١١١٦ هـ ارتفعت الاسعار بشكل غريب فبيع الاردب من القمح بمائتين واربعين فضة والفول كذلك والعدس بمائتين فضة والشعير مائة ونصف فضة والارز اربعمائة نصف فضة وبيع لحم الضان كل رطل بثلاثة انصاف فضة والجاموس والبقري بنصفين والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلاثمائة فضة وخمسين والدجاجة بثمانية انصاف . وكل ثلاث بيضات بنصف ، ورطل الشمع والدهن بثمانية انصاف .

وفي سنة ١١١٨ هـ شح النماس الهندي والبن اليماني حتى بلغ القنطار منه الفين وسبعمائة وخمسين بسبب تأخير وصول مراكب اليمن والهند الى مصر .

اما الفصل الثاني فقد افرده لذكر حوادث مصر وولاتها وتراجم اعيانها ووفياتهم مبتدئا من سنة ثلاث واربعين ومائة والف (١١٤٣ هـ)

ويقع في ١٣١ صفحة • وقد ابرز الجبرتي فيه بعض السمات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي في هذه الحقبة • فذكر ان في سنة ١١٤٦هـ ابطل قابجي باشا سكة الذهب الفندقلي وحزب الرز محبوب كامل وصرفه بمائة نصف وعشرة انصاف وكذلك سكة النصف محبوب وصرفه بخمسة وستين نصف فضة • وزاد الفندقلي الموجود بأيدي الناس فصار يصرف بمائة وستة واربعين نصف فضة ص ٢٧٨ •

وفي هذه السنة رفعت الجزية عن اليهود والنصارى وهي اربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون • والدون مائة •

وفي سنة ١١٤٧ تولى باكير باشا ولايته الثانية وجاء الى السويس يوم السبت رابع عشر من شوال وصرخت العامة في وجهه من جهة فساد المعاملة (العملة) وهي الاخشاو المرادي والمقصوص والفندقلي • فأن الاحسا صارت بستة عشر جديدا والمراوي بأثنى عشر والمقصوص بثمانية جدد وصار صرف الفندقلي بثلاثمائة نصف والجنزرلي بمائتين • بسبب ذلك الاسعار التي كانت بالمقصوص بالديواني • ص ٢٨١ •

وفي نفس السنة فرضوا ضرائب على قطاع معين من الشعب (فجعلوا على كل عثماني نصف جنزرلي فبلغت ثمانية واربعين الف عثماني فكانت اربعة وعشرين الف جنزرلي ،وقد قسمت بين الحكام وارسلوا الى عثمان بيك ورضوان بيك الف جنزرلي فأبيا من قبولها وقال هذه دموع الفقراء والمساكين فلا نأخذ منها (ص ٢٨٣) •

وفي نفس السنة وقع الطاعون المسمى بطاعون كووسمي ومات كثير من الاعيان وغيرهم بحيث توفي من عائلة واحدة مائة وعشرون نفسا . وسارت الناس تدفن موتاهم بالليل خلافا عن النهار • (ص ٢٨٩) •

وبعد ان استعرض في هذا الفصل الولاة الاتراك الذين حكموا مصر والفتن الداخلية والمؤامرات ختمت بثبيت من الوفيات ذكر فيه من

مات في هذه السنين من اعيان العلماء والاكابر والعظماء ، مع ترجمة وافية لحياة كل واحد منهم .

وقد اشغل هذا الثبت اكثر صفحات الفصل الثاني .

ثم كتب ثبتا آخر بعد الثبت الاول في ذكر من مات في هذه السنين من الامراء المشهورين والاعيان المعروفين واخبارهم وتراجمهم وقد تخللت هذه التراجم قصائد شعرية لشعراء مختلفين قيلت في رثاء من مات منهم .

المراجع

١ ــ ابن خلدون ــ المقدمة

٢ ــ رضا كحالة ــ معجم المؤلفين . ط دمشق ١٩٥٨ .

٣ ــ جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ط اولى ١٩١٤ .

٤ ــ مجلة تراث الانسانية م ٤

٥ ــ عبدالفتاح ابراهيم دراسات في الاجتماع ــ ١٩٥٠

٦ ــ دائرة المعارف الاسلامية .

٧ ــ عبدالرحمن الجبرتي ــ عجائب الآثار في التراجم والرجال ــ الجزء الاول (مخطوط) .

٨ ــ عمر فروخ تاريخ الفكر العربي . دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٠ .

٩ ــ علي عبدالوحد وافي ابن خلدون منشيء علم الاجتماع ــ القاهرة مكتبة نهضة مصر .

١٠ ــ حسن الاشموني ــ الدولة بن الرأي ابن خلدون ورأي ميكافيلي .

حادثة الأميرة عزة وأثرها في انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦

بقلم الدكتور محمد أنيس

من الأمور التي تدعو الدهشة حقا أن الكثيرين من المهتمين بتاريخ العراق الحديث والذين قدر لي أن ألقاهم لا يعرفون حادثة الأميرة عزه • وحتى أولئك الذين سمعوا عن هذه الحادثة وقت وقوعها يترددون كثيرا في أثر هذه الحادثة على انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ •

لقد حدث الانقلاب في اواخر ذلك العام وهو ليس بأول انقلاب عسكري في الثلاثينيات في تاريخ العراق بل ربما يكون أهمها • وتفاءل به الكثيرون ولا سيما الكاتب اللبناني يوسف يزبك الذي كتب كتابه بعد حدوث الانقلاب مباشرة تحت عنوان (المحررون) كما تشاءم البعض من حدوث هذا الانقلاب ومنهم طالب مشتاق الذي كتب كتابه (أيام النكبة) •

كذلك افاض مجيد خدوري ــ وهو استاذ لتاريخ العراق الحديث في احدى الجامعات الامريكية ــ عن هذا الانقلاب في كتابه الذي كتبه أصلا باللغة الانجليزية تحت عنوان (العراق المستقل) • كما أطال في تحليل وسرد هذا الانقلاب الاستاذ محمد يوسف في رسالته للماجستر من جامعة القاهرة عن (تاريخ جماعة الأهالي) • وهناك حديث طويل للمرحوم الوطني الكبير كامل الجادرجي في مذكراته • هذا الى جانب مارواه الدكتور هاري سندرسون في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٣ تحت عنوان (عشرة آلاف ليلة

وليلة) وكان سندرسون طبيبا خاصا للاسرة المالكة في العراق من أيـام الملك فيصل الأول • هذا كله الى جانب ما ذكره الاستاذ الكبير عبدالرزاق الحسني في تاريخ الوزارات العراقية ولعل أهم ما كتب حتى الآن حول هذا الموضوع ما ورد في مذكرات ناجي شوكت التي يتوقعها الرأي العام العربي بعد بضعة أسابيع • لكن أحد من رواة هذا الانقلاب لم يشر من بعيد أو قريب الى علاقة حادثة الأميرة عزه بانقلاب بكر صدقي • وفي يقيني أن حادثة الأميرة عزه لها أثر على ذلك الانقلاب وهو أثر على كـل حال يفتح الباب أمام المؤرخين والمعنيين بتاريخ العـرب الحديث لمناقشة الموضوع إما بالسلب أو الايجاب • وبصفة عامة فان هذا المقال لا يضـع حكما تاريخيا مرة والى الأبد ولكنه يفتح باب المناقشة أمام المجتهديـن في تاريخ العراق الحديث وتبدأ الأحداث غير المستقرة في تاريخ العـراق الحديث بوفاة الملك فيصل الأول • ذلك لأن فيصل كان مهتما بالسياسة والقضايا السياسية فلم يتفرغ لتربية اولاده وترك ذلك لخدم القصر الأمـر الذي أدى الى تربية ابناءه تربية سيئة وهـذا بدوره أدى الى انحلالهـم وكبتهم على نحو تفجر بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٣ •

تولى الملك غازي العرش بعد وفاة والده وعلى الرغم مما كان يتمتع به غازي من محبة لدى غالبية الشعب العراقي وعلى الرغم من انه كـان يعادي السياسة البريطانية في العراق ـ وقد أنشأ بالفعل في قصر الزهور محطة اذاعية تهاجم هذه السياسة ـ الا أن كافة المصادر تكاد تجمع علـى أنه كـان عابثا في حياتـه الخاصة يكثر **من شرب الخمر ويعاني من شذوذ جنسي حاد** وكان يمارس هذا كله في قصر الحارثية وهو غير بعيد عن قصر الزهور • [redacted]

المهم في هذا كله أن موقف الأسرة المالكة كان قد انهـار الى حـد بعيد بعد وفاة الملك فيصل • وحقيقة ان الملك غازي كان اكبر أبناء فيصل

الذكور ولكن يسبقه في العمر ــ من أولاد فيصل طبعا كل من الأميرة عزه والأميرة راجحة وكان من الضروري أن يشيع جو الانحلال الخلقي على كافة أفراد الأسرة بما في **ذلك الأميرة عزة وان كان هذا الافلاس الخلقي حادا لدى الأميرة عزة بالذات .**

وتروي الوثائق البريطانية المحفوظةفي .P.R.O أن الأميرةالعراقية عزة كانت اكثر ابناء فيصل الأول تذمرا من حياتها ووفق الرواية البريطانية فان الأميرة غزه عام ١٩٣٥ طلبت أن تعالج في أوروبا (النمسا) وفي الطريق الى هناك تعرفت على خادم ايطالي الجنسية يعمل في أحد الفنادق في رودس ويدعى أنستاس هار الافكي ومن الواضح أن علاقة حب عميقة جرت بينهما : أنستاس من جانبه كانت تستهويه فكرة الزواج من أميرة عراقية والاميرة العراقية ــ وقد كانت قبيحة المنظر ــ استهواها جمال هذا الشاب الذي كان أصغر منها سناً فقد كانت في الثلاثين من عمرها وكان أنستاس أصغر منها سنا كما تروي الوثائق البريطانية أنهما تواعدا على أن يطلق اها تدبير هذا الزواج في العام التالي .

وبالفعل في عام ١٩٣٦ طلبت أن تذهب الى أوروبا العلاج مع اختها راجحة (والاخيرة زوجها بكر صدقي بعد الانقلاب لأحد اصدقائه من ضباط الجيش العراقي) وعند هذه النقطة يحسن أن تترك المجال لفيكتور باحوش ملاحظ الديوان الملكي والذي كان مرافقا للوفد الذي يضم الأميرتين والوصيفات ذلك الوفد الذي كان قد وصل حتى وقوع الحادثة الى رودس وقد رفع فيكتور باحوش تقريره هذا الى رستم حيدر رئيس الديوان الملكي آنذاك .

يقول التقرير بتاريخ ١٤ حزيران ١٩٣٦ :

حضرة صاحب المعالي رئيس الديوان الملكي المحترم ــ شخصي وسري للغاية .

تحية واحتراماً

امتثالا لأمر معاليكم أعرض فيما يلي بصورة موجزة تفاصيل سفري برفقة صاحبتي السمو الملكي الأميرتين شقيقتي حضرة صاحب الجلالة الى اوروبا والحادثة المؤلمة التي اكتنفت قضية هرب الأميرة عزة وزواجها من الرجل المدعو أنستاس خر الامبوس كما تعلمون معاليكم سافرنا من بغداد صباح الاثنين الموافق ٤ آيار ١٩٣٦ ووصلنا دمشق ٥ منه • بناء على طلب الأميرة عزة حضر السيد موفق الألوسي قنصل العراق في بيروت وهو الذي اقترح سفرنا الى حيفا عن طريق بيروت بالنظر الى القلاقل الراهنة • بتنا الليلة في بيروت وتوجهنا الى حيفا ظهر اليوم التالي في ٦ منه يرافقنا السيد موفق وقد استقبلنا الشيخ كاظم الدجيلي في الحدود • غادرنا ثغر حيفا عصرا ووصلنا الاسكندرية في اليوم التالي نحو الساعة السادسة بعد الظهر • تناولنا طعام العشاء في بيت شيخه هاشم قرطاس باشا وعدنا الى الباخرة ــ بارحنا الاسكندرية صباح ٨ منه وصلنا البيرت (بيرة) ظهر يوم الاحد •

استقبلنا على ظهر الباخرة حسن بك بيكات سكرتير القنصلية التركية العامة في اثينا وتوجهنا معه حالا الى فندق سيسل في كيفيا حسب المنهاج المقرر في بغداد • وكيفيا من أجمل مصايف أثينا تبعد عنها نحو نصف ساعة • غير انه لشدة البرد هناك ــ وهذا خلاف ما يتوقع عادة في شهر مارس ــ اضطررنا بعد ٣ ايام الى الانتقال الى أثينا نفسها واستقر بنا في فندق اكروبول بالاس حتى يوم عودتنا الى بغداد في ٢ حزيران ١٩٣٦ •

اما سكنانا في فندق سيسل أو في فندق اكروبول فكنا جميعا في جناح واحد وكانت احدى (كلمة غير مقروئة لكن معناها الوصيفات) الثلاث وهي طليعة عمر ملازمة للاميرة عزة •

اما الاميرة عزة فقد بدأت تأكل وتشرب وتنام بكل انتظام سوى انه الليلة الثانية من وصولنا الى كيفيا شعرت بالم في معدتها وكانت الساعة ١١ تقريبا بحسن الحظ وجدت في الفندق طبيباً اسمه باباس جور جيوس وهو مدير مستشفى المهاجرين قيل لي انه ماهر ولكن الاميرة لم تقتنع من

وصفته واصرت على استدعاء طبيب اخصائي كبير ــ فلم يكن لدى بُد من ان اطلب حضور البروفسور سيروس ليفيراتوس وهو من اشهر اطباء اوربا وكان طبيبا خاصا لفنزويلس ، فايد وصفة زميله وقد أبدى بعض الاستغراب لاستدعائه بتلك الصورة المستعجلة لهذا الغرض التافه والذي لا يستوجب الاهتمام . اخذت الاميرة عزة بضعة قطرات من الدواء وقضت الليلة بكل هدوء واستقرار وما عدا ذلك فانها كانت تتمتع بصحة كنا نغبطها عليها .

أما من جهة تصرفاتها فاني لم أر منها شيئا يسترعي الانتباه أو الشك غير أني أرى ضرورة ذكر بعض النواحي من احاديثها لاطلاع معاليكم .

عندما جاءنا حسن بك على ظهر الباخرة في البيروت ذكر لنا بأن في انتظارنا جمعا غفيرا من الناس والصحفيين والمصورين علموا بمجيئنا بواسطة برقية سحبت من حيفا وبالرغم من الحيطة التي اتخذتها مع حسن بك فان المصورين تمكنوا من أخذ صورة الاميرتين والانستين راسمة وطليعة ولكن لم ينشر الا قسم منها في جريدة واحدة لا أهمية لها وذلك بفضل المساعي التي بذلها حسن بك وتشبثاتي معه لدى مدير المطبوعات ــ أما الاميرة عزة فعند سماعها بوجود الصحافيين في الميناء غضبت جداء وفي يوم آخر تطرقت في حديثها الى شؤون العائلة الهاشمية والشرفاء وقضية زواج الأميرة سارة وهرب اختها وأمور عائلية تخص سمو الأمير عبدالله ثم نزلت تقريعا عليه وعلى بقية الشرفاء متمنية تفسخ تلك العائلة . وفي يوم آخر أردنا النزهة بزورق بخاري الى محل يبعد (١٠) دقائق عن أثينا ولم فلم تذهب (ربما لم نذهب) فقالت اذهبوا لوحدكم عساكم تغرقون فاسترح منكم . هذا وعندما كنت آلفت نظرها الى بعض النواقص على سفرة الأكل او عندما كانت تتكلم بصوت عال أو غير ذلك كانت تقول لي (لا يهمني ذلك ولا يهمني لقب اميرة) .

وفي اليوم الثاني من وصولنا الى كيفيا أصرت الاميرة عزة على قبض

مبلغ لها من المصرف مقداره (١٥٠) دينارا تقريبا بالرغم من ممانعتي إياها ذلك اذ كان لديها صكوك شركة كوك تبلغ نحوا من (١٠٠٠) دينار وهي بمناسبة أوراق نقدية ولوجود الاضراب في ذلك اليوم رفض المصرف دفع المبلغ ولكن الاميرة قبضته في اليوم التالي •

وما عدا ما ذكرته آنفا فان عيشتنا في اثينا كانت منتظمة كل الانتظام• لم تترك الاميرتان وحدهما يوما ما حتى واننا لم نتعرف على أي شكل اذ كنا مكتفين برفقتنا غير أن القدر شاء خلاف منتظر اذ في صبيحة الأربعاء الموافق ٢٧ آيار جاءت الآنسة طليعة عمر وأخبرتنا بان الاميرة عزة ليست في غرفتها فاخذنا نتحرى عليها في الفندق فلم نجدها وعندما بادرنا بالخروج سلم للاميرة راجحة غلاف معنون اليها ففضته حالا فكان فيه كتاب مخطوط باللغة الانكليزية بتوقيع الاميرة عزة تخبرها فيه بانها بالنظر لفقدانها والدها وانها لم يكن لها بد من أن تلتحق بالرجل الذي تحبه وقد تزوجت منه وتنصرت • وبما أن الكتاب كان مخطوطا على ورق فندق (اطلانطيك) توجهنا حالا اليه ولكن بالرغم من الحاحنا فان الاميرة عزة أبت مواجهة اختها وبعد الانتظار طويلا ارسلت بورقة مكتوبة باللغة الانكليزية أيضا تقول لاختها (عبثا الانتظار لاني تزوجت وانتهى الأمر) •

هناك تشبثات قمت بها أنا وحسن بك والمحامي مافريدي بمساعدة المفوضية البريطانية تجدون التفاصيل عنها في تقرير المحامي اما السيد تحسين قدري ومع (ذلك) نرى ضرورة ذكر ملخص مواجهتنا • أنا الاميرة راجحة والآنسة راسمة ابراهيم والمحامي مع الأميرة عزة في فندق اطلانطيك كانت الاميرة عزة في غرفتها الخاصة يحيط بها زوجها ومحاميهما وبعض المناصرين لهما وقد فهمت بعدئذ بان أحد موظفي المفوضية الايطالية كان بين هؤلاء • لم تتأثر الأميرة عزة قط من رؤيتنا وخاصة من حالة اختها الكئيبة بل أخذت تجيب على اسئلة الشرطة والمحامي بكل جرأة ومنطق وكانت بين آونة وأخرى تتكلم مع زوجها باللغة الانكليزية أما الاميرة

راجحـة فلم تتمالك نفسها من رواية أختها بل اغرورقت عيناها بالدموع وأخذت ترتجف ولما هدأت قليلا شجعتها على التكلم مـع اختها وصارت تحدثها بكل لطف وحنان ذاكرة لها أعمال المرحوم والدها ومجده وشرف سيدنا الملـك والوطن والعائلة ونصحتها لاعادة النظر فيما عملته والعودة الى العراق وعدم اعطاء مجال لهذه الاهانة العظمى • ولكن الاميرة عزة لم تتأثر من كل ذلك وكانت عنيدة وبعيدة عن استماع نصيحة اي كان إذ قالت لاختها (ليس عندي لا أخ ولا أخت ولا أقارب ولا وطن اعتبروني ميتة ـ هذا هو نصيبي فهولي الكل في الكل ـ لقد تنصرت وتزوجت من هذا الرجل الذي أحبه وليس بمقدور أحد ان يفصلني عنه واذا كان عندكم حق ما فعليكم جلبي بواسطة المحاكم وان أعود الى العراق بعد الآن • واذا ما جبرت على ذلك انتحرت أولا •) ولم تتمالك الأميرة راجحة نفسها عند سماعها هذا الكلام وخشية من أن يغمى عليها تركت الغرفة وأنا والآنسة راسمة معها وعدنا الى فندقنا • نوهت الأميرة عزة عند استجوابها من قبل الشرطة عن المجوهرات بان عندها الماس كانت أودعتـه الى خر الامبوس السنة الماضية في جزيرة رودس •

أما المفوضية البريطانية فانها عملت كل جهدها لمساعدتنا ولكن بصورة غير رسمية • رافقني المستر نيكولس سكرتير المفوضية الايطالية صبـاح الخميس الموافق ٢٨ ايار وقابلنا سكرتيرها المدعو سينور سيرامتين طالبين منه تأجيل منح سمة الخروج الى الأميرة عزة (وذلك ريثما تصلني تعليمات من بغداد) إلا أن السنيور لم يقبل أخذ تلك المسئولية على عاتقه فوعد بمفاتحة وزيره حالا عند قدومه الى المفوضية واقناعه (لاجابة مطلبنا • أجل التأشير بالفعل ٢٤ ساعة فقط • قيل لنا بأن المفوضية الايطالية درست خلالها أوراق زواج الأميرة عزة فوجدتها قانونية وبالنظر لذلك رفضت الاستمرار على تأجيل التأشيرة متعذرة بشتى الاعتذارات غير ملتفتـة الى رجاءات المفوضية البريطانية لاتخاذ تدابير ادارية لخطورة القضية وصرف النظر من الوجهة القانونية • وهكذا سافرت الاميرة عزة وزوجها الى رودس بعـد

ظهر الجمعة الموافق ٢٩ أيار على متن طائرة ايطالية وقد أخذها من الفندق مدير شركة الطيران الايطالية بباقة زهور بيد أحد موظفيها • ومع أن في البيرة مطارا يبعد عن أثينا بضعة دقائق فان طائرة الاميرة عزة حلقت من مطار يبعد عن العاصمة نحوا من ثلاثة أرباع الساعة ومن هذا كله يستدل بان المفوضية الايطالية في أثينا أسدت كل التسهيلات لسفر الزوجين بالسرعة الممكنة وكذا اعتقاد المفوضية البريطانية •

أما السلطات اليونانية فانها أبت ابداء اية مساعدة لقضيتنا ولو منع خروج الأميرة عزة ريثما يصل السيد تحسين قدري وبالرغم من(اقتراحات التي أبدتها المفوضية البريطانية لها لاتخاذ تدابير ادارية فان السلطات المذكورة تمسكت بالوجهة القانونية هذا وان المفوضية عبثا استشارت مشاهير محامي اثينا قصد ايجاد حل أو عذر ترتكز عليه بهذا الصدد •

أما الجرائد فقد أخذت تقص روايات غرامية يقشعر لها البدن وقد فهمت بان الاميرة عزة وزوجها والمناصرين لهما هم الذين أدلوا لارباب الجرائد تلك الاخبار تشويها للوضع الراهن من جهة ومن جهة اخرى استقطاب الرأي العام • اكد لي مصدر بان الاميرة عزة صرفت من خالص ما لها مالا يقل عن (٥٠٠) دينار خلال تلك المدة القصيرة •

ظهر لي جليا من اباحة زوج الاميرة عزة الى الجمهور والصحف وما سمعته أنا من الأميرة راجحة والاوادت (يبدو أن معناها المرافقات) الثلاث عن اوضاع الأميرة عزة بضعة أشهر قبل سفرنا ومما ذكرته انفا أن علاقاتها مع خر الامبوس هي علاقات قديمة تكونت بينهما الصيف الماضي في رودس حيث اتفقا على الزواج فدبرت ألف حيلة وحيلة ووضعت منهاجا دقيقا كان بدعه من نوعه لنيل هدفها •

ومما يزيد هذا الاعتقاد مما نعتها توديعي دراهم الصرف في بغداد وقبضها مبلغ اعتمادها حال وصولنا الى اليونان واقناعها الاميرة راجحة

بعدم وجود ثقة في المصارف لايداع حليهما فيها ولذا أخذت كل منهما حليها معها • ثم عدم قبولها شراء ولا بدله واحدة للتهيـأ للسفرة كما كان مقررا في بغداد وعدم قبولهما شراء حقيبة للالبسة لائقة بمقامها بالرغم من إلحاحي عليها وذلك لان حقيبتها لا تليق لاستعمال أصغر الشخصيات •

أما استمرار اتصالها مع خر الامبوس بعد عودتها من رودس السنة الماضية فكانت مؤمنة بواسطة المراسلة ــ حسب الاعتقاد وعندما كنا نذهب الى دائرة البريد لوضع تحاريرنا كانت الاميرة راجحة والاوانس الثـلاث يعهدن لي بتحاريرهن الا أن الاميرة عزة كانت تأبى ذلك متعذرة بانهـا تأنس من شراء الطوابع ووضع الكتاب في الصندوق بنفسها •

هناك أمور اخرى أترك البحث عنها الى السيد تحسين قدري الذي وصل اثينا على ظهر الباخرة (ايونيا) صباح يوم الاثنين الموافق ١حزيران ١٩٣٦ •

اربط طيه صورة من البرقيات التي تبودلت بيني وبين معاليكم وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

فيكتور بحوش
ملاحظ الديوان الملكي

في نفس الوقت ــ بعد أن هز الحادث العالم العربي والاسلامي طلب رشيد حيدر رئيس الديوان الملكي من الطبيب الخاص للعائلة المالكة تقريرا عن الحالة النفسية والصحية للاميرة عزة الذي جعلها تقدم على هذه المغامرة فكتب هاري سندرسون التقرير التالي :

بغداد في ١٣ حزيران ١٩٣٦ سري

رئيس الديوان الملكي ــ البلاط الملكي ــ بغداد

سيدي :

الحاقا بمحادثتنا أمس فيما يلي تقريرا عن صحة صاحبة السمو الملكي الاميرة عزة •

كانت الأميرة عزة دائما عصبيةالمزاج وقد جابهت فيالسنواتالأخيرة هزات عقلية نادرة لم تمر دون أن تؤثر في أعصاب رقيقة كأعصابها ؛ لقد سببت وفاة والدها الفجائي المغفور له الملك فيصل قبل ثلاث سنوات اضطرابا نفسيا لازم سموها الملكي وجعلها طريحة الحزن [1] لعدة اسابيع• وقد تلت هذه الصدمة أخرى لم يقل شأنها من الأولى وهي وفاة والدتها جلالة الملكة فجأة أيضا • وذلك قبل سنة ونصف مما سبب لها انحلالا عصبيا شديدا ــ كانت الأميرة عزة شغفة بوالديها غاية الشغف وقد أظهرت منذ وفاتها اضطرابا عصبيا متزايدا • وقد جاءت وفاة شقيقتها وعمها الملك (علي) صدمة اخرى على الصدمات السابقة مما أثر عليها تأثيرا عميقا• وكانت نتيجة هذا الحزن المستمر وتوالي الرجات العقلية التي منيت بها في السنوات الأخيرة أن أصيبت الاميرة عزة منذ ستة أشهر بمرض (هستريا) عنيف، وقد رافق هذه الحالة العصبية انقباض نفس وعدم قابلية ضبط النفس وضعف الارادة وكانت تعاودها هجمات (هستيرية) بصفة عامة •

وبعد عقد سلسلة استشارات طبية (كونسلتا) قر الرأي اخيرا على ضرورة تغيير مناخ ومحيط الأميرة لمدة طويلة • وبالنظر لقرب موسم الحر اشير عليها بالاقامة في مصيف صحي في أوروبا على أن تستشير خلال وجودها في أوروبا اخصائيا فيما يختص بحالتها العصبية •

لا اشك في أن زواج الأميرة عزة ان هو الا برهان اضافي على أصابتها

---

(١) كتبت اصلا طريحة الفراش ثم حرفت في الترجمة بكلمة الحزن.

بشذوذ عقلي وهو حالـة تـلازم اكثريـة الأشخاص المصابين بمـرض الهستريا •

لي الشرف في أن اكون سيدي
خادمكم المطيع
ا • ح • س • سندرسون
الطبيب الخاص لجلالة الملك (١)

في نفس الوقت أرسل الديوان الملكي العراقي الاستاذ تحسين قدري رئيس التشريفات الى اثينا حيث جرى الزواج على الطريقة المسيحية في الكنيسة • وقد بقي تحسين قدري في اثينا يحقق في الموضوع وكتب تقريرا ليس به جديد عما جاء في تقـرير فيكتور بحوش (وهو في نفس الملف السابق الذكر) •

وكان من الواضـح أن السفارة الايطاليـة في اثينا بل والحكومـة الايطالية تعمل على حماية عزة وزوجها انستاس • والواقع أنني حتى كتابة هذا المقال لا أعرف السبب في هذا التشجيع : هل هو سياسي أم شخصي • والغالب أنه سياسي لانه كان تشجيعا حكوميا وشاهدي على ذلك ما ذكره هاري سندرسون في مذكراته التي ذكرناها سابقا من أن الحكومة الايطالية كانت تمنح الاميرة عزة (التي أسمت نفسها انستاسيا) معاشا متواضعـا بعد ان تركها زوجها ــ راجع مذكرات سندرسون في ٢٥١ ــ ٢٥٢) •

كانت سياسية للرد على موقف العراق السلبي من احتلال إيطاليا للحبشة

ولقد حاول تحسين قدري إبطال هذا الزواج فلم يفلـح كما جـرت مفاوضات مع الحكومة الايطالية لم تؤد الى تنيجة ــ لذلك لم يكن غريبـا على الاطلاق أن يرسل نوري السعيد وزير الخارجية آنذاك في وزارة ياسين الهاشمي الى ناجي شوكت الذي كان يشكل رئيس المفوضية العراقيـة في انقرة البرقية التالية :

---

(١) هذه التقارير موجودة في دار الوثائق الوطنية في بغداد في ملف : البلاط الملكي ــ الديوان تسلسل ٦٥ •

فخامة السيد ناجي شوكت المحترم

ان المعلومات التي وصلت الينا حول تصرفات المفوضية الايطالية في حادثة الاميرة عزة تدل على وجود تقصد من جانبهم لابد ان يكون موجها لهدف وحيث ان الاطلاع على حقيقة هذا الهدف يهم سياسة الدولة نرجو أن تستعملوا كل ما في امكانكم للحصول على المعلومات اللازمة حول ذلك من المصادر الموجودة في جانبكم بالطرق التي ترونها مناسبة ومن دون احساس الهدف الذي نستهدفه •

والحقيقة أن المهمة كانت جد عسيرة امام ناجي شوكت في انقرة• ذلك أن الصحف التركية دأبت على نشر أدق التفاصيل لحادثة الاميرة عزة • وربما يكون لذلك اكثر من سبب فالمؤكد أن الاتراك كانوا يكرهون الاشراف ومن المحتمل ايضا أن تركيا في هذه المرحلة وهي تتجه ناحية الغرب كانت تريد التشنيع على الاسلام والمسلمين •

غير أن ما فعله ناجي شوكت هو أن قابل وكيل الخارجية التركية سراج أوغلي وناشده ان يوقف الحملة الصحفية بشأن هذا الحادث• ويقول ناجي شوكت أنه بالفعل توقف حديث الصحف من انباء هذا الحادث في الصحافة التركية ، وما يلي جزء من المراسلات بين الهاشمي وناجي شوكت فقد كتب ناجي شوكت الى حكومته يقول :

خارجية بغداد ٢٩/٥/١٩٣٦ الساعة (٢٠)

ما يلي للهاشمي شخصيا مهم جدا • نشرت امس بعض الصحف التركية في استانبول نقلا عن جريدة (ديمقراطيا) الرومية خبرا مفاده ان احدى الاميرات العراقيات أثناء سياحتها في اليونان احبت كارسون يوناني يسمى انستاس هار الامبوس في احد فنادق رودس حيث كانت تقيم الاميرة فيه• قد هربها المرقوم الى اثينا وتزوج بها بعد ان تنصرت باسم (انستاسيا) وان اخت الاميرة عندما علمت بالامر راجعت الحكومة اليونانية طالبة فسخ

العقد المذكور ولكن الحكومة المذكورة لم تتمكن من اتخاذ قرار بهذا الشأن لان الاميرة بالغة سن الرشد وان الكل ينتظرون الاطلاع على نتيجة هـذه الحادثة التي سببت القيل وقال (والقال) في محافل اثينا الراقية •

عندما اطلعنا على هذا الخبر لملاحظتنا احتمال وجود اشتباه في الأمر من جهة ولاجل القيام بما يترتب علينا ازاء هذه النشريات لما لها من الأهمية لمساسها بسمعة العائلة المالكة من جهة اخرى وبالنظر الى أن الامير حسن اخبرنا انه قد بلغه احتمال وجود الاميرتين راجحة وعزة في اثينا الآن رأينا من الواجب تحقيق الخبر من مصدر موثوق فرجونا من المفوضية اليونانية في أنقرة أن تتصل تليفونيا بمدير الأمن العام في اثينا وأن تخبرنا بما نستوصل اليه • نخبركم مع عظيم الاسف أن المفوضية المذكورة قد اعلمتنا بأن الزواج المذكور قد تم بين المرقوم والاميرة عزة (أن الاخرى قد راجعت المحاكم لابطال الزواج ولكن هذا الطلب قد رفض ننتظر تعليماتكم •

عراقيـة ـ ناجي

وكان جواب بغداد ما يلي بالنص :

عراقية ـ انقرة

نشرت الصحف الأوروبية خبر زواج الاميرة عزة بشخص رودس من رعايا الطليان • كانت الأميرة تشكو مرض الأعصاب • ذهبت لاجل ذلك للاستشفاء لليونان (١) وعند مرورها من اثينا اشتدت عليها النوبات ووقع خلال ذلك حادث الاقتنوارة (٢) المؤسف بالشخص الذي اعتنق الاسلام(٣) • سافر تحسين جوا لاستطلاع الحقيقة ولكنهما سافرا أمس الى رودس بطائرة

(١) الوثائق البريطانية تذكر الاستشفاء في النمسا •

(٢) لعل الكاتب يقصد التعميد

(٣) الصحيح أن عزة هي التي اعتنقت المسيحية ومن الصعب استنتاج كيف وقعت الحكومة العراقية في هذا الخطأ •

ايطالية قبل وصول تحسين • سينظر مجلس الوزراء في القضية منعا لنشر تعليقات صحفية غير صحيحة ، نرجو أن تراقبوا الصحف وتوضحوا الأمر •

خارجية

ويعلق ناجي شوكت على برقية الخارجية بقوله(ولم أر في هذه البرقية ما يشفي الغليل) فاجبت عليها بالرد الآتي :

خارجية بغداد ١٩٣٦/٦/٣

جوابا على برقيتكم ٣٠ مايس لقد تمادت الصحف بنشر تفصيلات عن الحادثة المؤلمة نقلا عن صحف اثينا التي تصل في يوم واحد الى استانبول ولها مخابريها هناك بالرغم من توضيحنا الامر لبعضهم وفق امركم رأينا أن نشر تكذيب رسمي مما يؤدي الى مناقشة بين المفوضية والصحف وتماديها في النشر اضطررنا لمراجعة وكيل الخارجية التركية ليوعز الى الصحف أن تكف عن هذه النشريات •

اخبرنا بان الايعاز قد حصل •

عراقية •

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد نقل ناجي شوكت القصة كاملة عن جريدة اثن فتروريا ٢٨ ، ٢٩ مايس وأرسل ما يلي الى حكومة الهاشمي•

(عزة ٣٠ سنة

انا ستاسيوس هار الامبى (هار الامبي ليس يونانيا) من الرعايا الطليان • وبواب (البرغود للاروزا) والاميرة ذهبت مع أختها راجحة الى رودس • وهو من جزيرة (السيمي) من الدوديكانيز • ولم يكن (هار الامبى) يتصور ان ذلك ممكن ولكن الاميرة هي التي شجعته على ذلك • وبعد ان بقيت عزة بضعة أسابيع في رودس رجعت الى بغداد • وكانت تراسل هار الامبي من بغداد • وفي ٨ مايس حضرنا الى اثينا متنكرتين وبعد بضعة ايام حضر الشاب أيضا وكانتا نازلتين في أوتيل (اكروبول)

وقد سجلتا نفسهما باسمين غريبين • مع هذا فقد استخبرت الجرائد انهما أميرتان فكتبت الخبر • وفي ٢٦ مايس عزة ذهبت مع حبيبها الى ضاحية من ضواحي أثينا فقاما في كنيسة صغيرة بحفلة الرافيز ثم الزواج وهي سميت باسم (أناستاسيا) ثم رجعا الى أوتيل أطلانطيك وفي ٢٨ مايس اختها كانت قلقة من غياب طوال يومين فراجعت الشرطة طالبة ان يوجدوا لها اختها فذهب بوليس سري الى الاوتيل أطلانطيك وسألها ما الخبر فاخبرته بزواجها وقد قدمت له ورقة الزواج • فوجد الشرطي الأوراق والوثائق صحيحة فخرج من الأوتيل دون أن يعمل شيئا • فراجعت الاخت الشرطة مرة ثانية بانها قد سرقت منها حلى وجواهر بثمن (٦٠٠٠) ليرة انكليزية كما انها سرقت ١٥٠٠ ليرة انكليزية نقدا • وكانت هذه الشكوى مقصودة لتوقيف الأميرة ولكن ذلك كان صعبا بالنظر الى أنها تحمل بسابورت ديبلوماسي • وعليه فقد اعتبر الادعاء العام قضية سرقة بين الاخوة اي غير خطيرة وطلب من دائرة التحقيق تولى الاستنطاق بهذا المال • وفي الاستنطاق قالت عزة أنه ليست هناك أي سرقة وأن الحلى عائدة لها وهي قد ورثتها من امها التي ماتت • والحلى هي قلادة(٢٠٠٠) دينار ٤ دباندانتيف ذات قيمة ثمينة وكوبة وسوار وغيرها وصلا بقيمة (١٥٠٠) دينار وتصرح الاميرة عزة ان هذه الحلى عائدة لها بالضبط •

وقد اخبرت الدائرة نتيجة الاستنطاق الى الاميرة راجحة بيد أنها اصرت أن لها صم (ربما حصة) من الحلى فذهب البوليس مع الاميرة راجحة للمقابلة مع الاميرة عزة • وكان في المقابلة حضر البوليس اليوناني وموظف من المفوضية التركية وأناستاسي وموظف من القنصلية الايطالية وسكرتير الأميرتين ومحامي المتزوجين فتقاسما الحلى وبها انتهت الحادثة وتركت الشرطة الاهتمام بالزوجين وتعقبهما • وقد سعت الاميرة راجحة لاقناع اختها بالرجوع الى بغداد وقد قالت انها يمكن يرجع زوجها ولكن الأميرة عزة رفضت قائلة أنها لا تقصد أن ترجع مرة ثانية الى العراق لانها تخاف على حياة زوجها • ويقال ان (هار الامبى) قد ذهب

الى العراق ثلاثة أشهر وعليه فقد قرر (هر الامبي) السكن بايطاليا .

الى هنا تنتهي المذكرة التي أرسلها ناجي شوكت الى وزارة الخارجية العراقية والتي عثرنا على مسودتها ضمن أوراقه . غير أنه مما يلفت النظر أن ناجي شوكت كتب في آخر هذه المسودة التي ارسلها الى الحكومة العراقية ملاحظة يقول فيها ان صحيفة جمهوريت التركية نشرت مقالا في ٣١/٥/١٩٣٦ اتهمت أناستاس بانه كان يعمل في الجاسوسية الايطالية في رودس [١] .

هكذا انتهت حادثة الاميرة عزة بزواجها من أناستاس ولم تنجح كافة محاولات اختها أو الحكومة العراقية في فسخ هذا الزواج وسافر الاثنان الى ايطاليا .

وكان لدى ناجي شوكت وهو رئيس المفوضية العراقية في انقرة انذاك فكرة في أن يمسح هذا العار وكانت هذه الفكرة تلقى حماسا من أحد موظفي المفوضية وهو الشريف حسين بن ناصر وفي ذلك يقول ناجي شوكت في مذكراته ص ٢٩٩ .

كان الشريف حسين [٢] خال الاميرة عزة يشغل وظيفة بسيطة في المفوضية العراقية في انقرة فاخذ يتذمر مما حدث ونشر لاني لم آتخذ اي تدبير لمنع النشر واسكات الصحف . فقلت له اي تدبير تريده مني والصحف تشتري مثل هذه الاخبار بالوف الليرات لتذيعها فتزيد من عدد قراءها ؟

---

(١) ليس ذلك ببعيد ومن المحتمل أن ايطاليا أرادت الاضرار بسمعة الأسرة المالكة التي جاءت بها بريطانيا الى الحكم في العراق وجعلت العراق تحت الانتداب البريطاني ثم وقعت معه معاهدة ١٩٣٠ التي بمقتضاها يدخل العراق بشكل آخر في اطار السياسة البريطانية .

(٢) هو الشريف حسين بن ناصر ابن الملك علي وقد تولى رئاسة الوزراء في الأردن اكثر من مرة .

فان كنت حقا تريد الحفاظ على سمعة البيت المالك فلماذا لا تسكت انفاس بنت اختك ؟ وفي الوقت نفسه قلت له : راجعني اليوم ضابط سوري متقاعد وأعرب عن رغبته في وضع نفسه تحت تصرفي لانقاذ شرف العائلة المالكة فهل أنت مستعد للسفر معه ؟ فنكس رأسه ولم يرد فلما كان اليوم التالي قابلت وكيل وزارة الخارجية التركية (١) ورجوته أن يستعمل نفوذه لاسكات الصحف ومنعها من الاسترسال في نشر انباء هذه الفضيحة فوعدني خيرا وأخذت الاخبار تتلاشى شيئا فشيئا • لكن صرت زمنا أشعر بالخجل كلما دعيت الى المآدب والحفلات فاعتذر عن حضورها لهذا السبب •)

ومن الواضح في مراسلات ياسين الهاشمي رئيس الوزراء مع ناجي شوكت أن رئيس الوزراء كان يستحسن بشدة ان يدبر ناجي شوكت بشكل أو آخر اغتيال الاميرة عزة ولكنه من الواضح أيضا أن ناجي شوكت لم يتمكن من هذا التدبير •

وفي مذكرات هاري سندرسون بقية قصة الاميرة عزة وهي في ايطاليا رواها في أطار روايته لزيارة الوصي على العرش عبد الاله لايطاليا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية (٢) • غير أنه من الواضح أن هذا الحادث قد أحدث ردود فعل صارخة في العراق فعلى الرغم من أن الصحف العراقية لم تتحدث عنه الا أن ثمة ردود فعل خفية قد حدثت :

أولا : لدى الملك غازي فالمعاصرون يشيرون الى أن قصة اخته عزة جعلته اكثر افراطا في الشراب واللهو •

ثانيا ــ عند رئيس الوزراء ياسين الهاشمي الذي كانت تحدوه

---

(١) واسمه سراج اوغلى .

(٢) راجع مذكرات سندرسون تحت عنوان (عشرة آلاف ليلة وليلة) نشره عام ١٩٧٣ وتحدث فيه عن مأساة الاميرة عزة ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ .

الفكرة الايطالية في ان يكون بمثابة موسوليني للعرب وان يحكم العراق مبقيا على الملكية كمجرد رمز ومما لا شك فيه أنه على الرغم من ان هذه الافكار كانت تراود ياسين الهاشمي قبل حادثة الاميرة عزة الامر الذي أدى الى اصطدامه بالملك غازي الا أن حادثة الاميرة قد تغلق الصراع بين الرجلين الى مرحلة اكثر عنفا وآية ذلك القانون الذي صدر في ٦/٦/١٩٣٦ [١] • والقانون برقم ٧٥ لسنة ١٩٣٦ ويعرف بمرسوم الاسرة المالكة •

(من الواضح أن السمة الرئيسية في القانون تستهدف حرمان عزة ومن يخلفها من ابناءها من لقب الامارة • انما يهمنا بصفة خاصة في هذا المجال من ذلك القانون المادة الخامسة التي تنص على ما يلي : (يؤلف مجلس خاص من رئيس الوزراء ومن كل من رئيس مجلس الأعيان والنواب ووزيري الداخلية والعدلية ورئيس الديوان الملكي وينعقد تحت رئاسة الملك أو رئيس الوزراء عندما ينيبه الملك وبحضور ثلاثة من اعضاءه على الاقل) ثم تقول المادة السادسة (ينظر المجلس في الأمور التأديبية التي كانت ناشئة والتي ستنشأ مما لها علاقة بافراد الاسرة المالكة وفي قضايا الأحوال الشخصية التي يكون فيها الطرفان أو احدهما من اعضاء الاسرة المالكة) •

ويشهد هذا القانون على أن ياسين الهاشمي كان يزداد في محاصرته لافراد الاسرة المالكة بما في ذلك الملك غازي نفسه ومن الواضح أن القانون قصد به الحد من تصرفات غازي الشخصية التي كان يمارسها في قصر الحارثية •

وأغلب الظن أن هذا الموقف دفع الملك غازي الى التفكير في الخلاص

---

(١) نشر في الوقائع العراقية عدد ١٥٢٠ في ٦ - ٦ - ١٩٣٦ وفي مجموعة القوانين والانظمة لسنة ١٩٣٦ (تصدرها وزارة العدل) ص ٥١٧ - ص ٥٢١ •

من ياسين الهاشمي • وكان من الطبيعي أن يفكر غازي في انقلاب عسكري يطيح بوزارة الهاشمي ويكون هذا الانقلاب برئاسة بكر صدقي الذي كان مقربا للملك غازي •

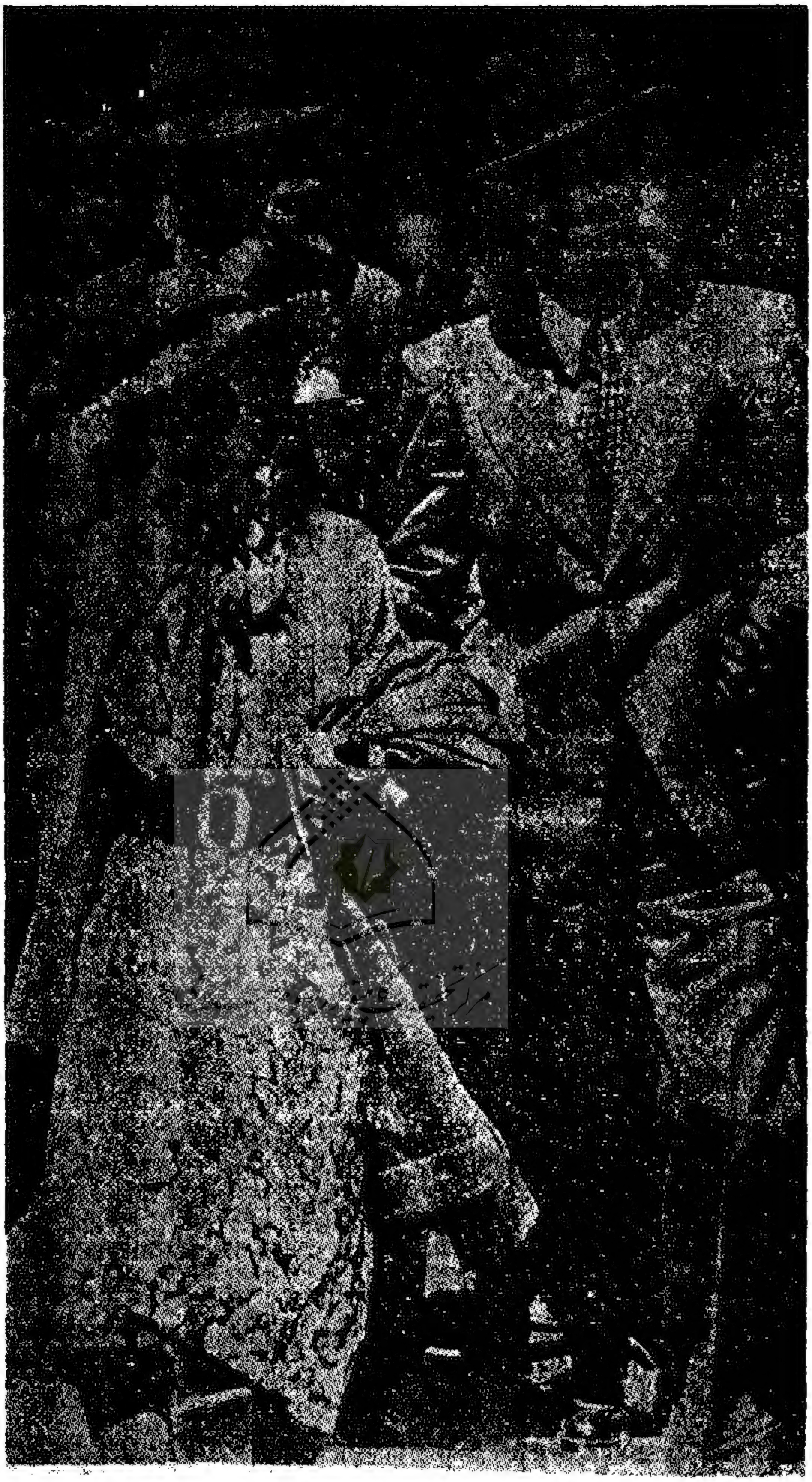
وهذا لا يمنع أن بكر صدقي كانت لديه دوافع خاصة في احداث هذا الانقلاب فهناك اجماع بين المؤرخين على ان بكر صدقي كان دائم الشكوى من أنه لم يكافأ كما يجب نتيجة لخدماته الوطنية وابرزها **الحادث الآشوري** • وتدل الوثائق البريطانية على أن غازي كان على علم كامل بالانقلاب قبل حدوثه ويضيف الى هذه الأدلة ما ذكره الدكتور هاري سندرسون في مذكراته التي سبق الاشارة اليها في فصل تحت عنوان (انقلاب عسكري) فيقول :

(دعيت الى قصر الزهور في الساعة العاشرة من صباح ٢٩ نوفمبر ١٩٣٦ ورأيت الملك غازي في زيه العسكري يحمل مسدسا على أحد جانبيه• وبعد أن أجريت الفحص الطبي كاملا سألته لماذا الاضطراب ياسيدي فأشار الى السماء التي أخذ ينظر اليها بمنظار مكبر حيث كانت بعض الطائرات تلقي قليلا من القنابل • لم يكن لدى اي شك في أن الملك كان يعلم بالانقلاب مسبقا وان كل ما كان يخشاه فشل ذلك الانقلاب امام انقلاب مضاد) ولعل هذا يقف دليلا على أثر حادثة الاميرة عزة في الملك غازي وعلى علاقة الملك غازي بانقلاب بكر صدقي للاطاحة بوزارة الهاشمي • وبالفعل تحقق له ما أراده اذ قدم ياسين الهاشمي بعد هذا الانقلاب بساعتين فقط استقالته وتولى الوزارة حكمت سليمان مع بعض وزراء من جماعة الاهالي وبهذا الانقلاب يدخل تاريخ العراق الحديث في مرحلة جديدة • [1]

---

(١) يذكر هاري سندرسون في كتابه السابق الذكر انه حدث ابان زيارة الأمير عبد الاله الوصي على العرش لايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية أن الاميرة عزة طلبت مقابلة عبد الاله في روما بسعي من السفارة البريطانية وقد سمح لها بذلك ورفض عبد الاله مقابلتها وطلب من سندرسون أن يتولى ←

مقابلتها ومعرفة ماذا تريد . وبالفعل قابلها سندرسون وعرف من قصتها انها انفصلت عن زوجها وعاشت سنوات في غرفة في مدينة نابولي وانها افرطت في الشرب والتدخين وذلك بمعاش ضئيل من الحكومة الايطالية وكانت تضطر احيانا الى بيع شعراتها لأحد حلاقي النساء . وقد قيل لها انه ليس من المحتمل أن تستمر الجمهورية الايطاليةالجديدة في صرف المعاش الذي كانت تمنحه لها الحكومة الايطالية السابقة . ورغم تدخل سندرسون لدى عبد الاله فقد رفض الوصي مقابلتها بدعوة انها جلبت العار على الأسرة المالكة . واضطر سندرسون الى ان يضاعف من ضغطه على عبد الاله الذي وافق اخيرا على مقابلتها شريطة حضور سندرسون المقابلة ـ ويستطرد سندرسون في روايته فيقول : ما ان دخلت عزة على عبد الاله حتى بكيا الاثنان معا وهنا انسحب سندرسون من الغرفة . وكانت عزة تريد الذهاب الى مصر لتقضي فيها بقية حياتها . ولكن سندرسون راى ان ذهابها الى مصر قد يفتح ميدانا جديدا للدعاية ضد الاسرة المالكة العراقية بسبب فضول الصحفيين . واستقر الراي على ان تذهب الى عمان . [لا اعرف اذا كانت قد تركت عمان الى الاسكندرية ولا اعرف اذا كانت لا تزال على قيد الحياة حتى الآن ـ صاحب المقال] .



الاميرة عزة (انستاسيا)
وزوجها انستاس
عقب زواجهما مباشرة
(صحيفة جمهوريت عدد ٤٣٢٨ بتاريخ ٢ حزيران ١٩٣٦)

البرقيات والرسائل المتبادلة بين الخارجية العراقية والمفوضية العراقية في انقرة عام ١٩٣٦ حول حادثة الاميرة عزة

فخامة السيد ناجي شوكة المحترم

ان المعلومات التي وصلت الينا حول تصرفات الموظفين الايطاليين في حادثة الاميرة عزة تدل على وجود تقصد من جانبهم لا بد أن يكون موجها لهدف • وحيث ان الاطلاع على حقيقة هذا الهدف يهم سياسة الدولة نرجو ان تستعملوا كل ما في امكانكم للحصول على المعلومات اللازمة حول ذلك من المصادر الموجودة في جانبكم بالطرق التي ترونها مناسبة ومن دون احساس الهدف الذي نستهدفه •

بغداد في ٢١/٦/١٩٣٦ **وزير الخارجية**

خارجية بغداد ٢٩/٥/١٩٣٦ الساعة (٢٠)

ما يلي للهاشمي شخصيا مهم جدا نقطه نشرت أمس بعض الصحف التركية في استانبول نقلا عن جريدة (ديموقراطيا) الرومية خبرا مفاده نقطة ان احدى الاميرات العراقيات اثناء سياحتها في اليونان أحبت كارسون يوناني يسمى أنستاس هارالامبو في أحد الفنادق في رودس حيث كانت تقيم الاميرة فيه وقد هربها المرقوم الى أثينا وتزوج بها بعد ان تنصرت باسم (أناستاسيا) نقطة وأن اخت الايرة عندما علمت بالأمر راجعت الحكومة اليونانية طالبة فسخ العقد المذكور ولكن الحكومة المذكورة لم تتمكن من اتخاذ قرار بهذا الشأن لأن الاميرة بالغة سن الرشد نقطة وان الكل ينتظرون الاطلاع على نتيجة هذه الحادثة التي سببت القيل وقال في محافل أثينا الراقية نقطة عندما اطلعنا على هذا الخبر لملاحظتنا احتمال وجود اشتباه في الأمر من جهة ولأجل القيام بما يترتب علينا ازاء هذه النشريات

لما لها من الأهمية لمساسها بسمعة العائلة المالكة من جهة أخرى وبالنظر الى أن الامير حسين اخبرنا انه قد بلغه احتمال وجود الاميرتين راجحة وعزة في أثينا الآن رأينا من الواجب تحقيق الخبر من مصدر موثوق فرجونا من المفوضية اليونانية في أنقرة ان تتصل تلفونيا بمدير الأمن العام في أثينا وأن تخبرنا بما تتوصل اليه نقطة نخبركم مع عظيم الأسف ان المفوضية المذكورة قد اعلمتنا أن الزواج المذكور قد تم بين المرقوم والاميرة عزة وأن الاخرى قد راجعت المحاكم لابطال الزواج ولكن هذا الطلب قد رفض نقطة ننتظر تعليماتكم نقطة .

عراقية ـ ناجي

وكان جواب بغداد ما يلي بالنص :

عراقة ـ انقرة ١٩٣٦\٥\٣٠ ١٥/١٥

بالقاعدة العامة نقطة يبدأ نقطة نشرت الصحف الاوربية خبر زواج الاميرة عزة بشخص رودي من رعايا الطليان نقطة كانت الاميرة تشكو من مرض الاعصاب ذهبت لأجل ذلك للاستشفاء لليونان وعند مرورها من أثينا اشتدت عليها النوبات ووقع خلال ذلك حادث الاقتران المؤسف بالشخص الذي **اعتنق الاسلام ؟** نقطة سافر تحسين جوا لاستطلاع الحقيقة نقطة ولكنهما سافرا أمس الى رودس بطائرة ايطالية قبل وصول تحسين نقطة سننظر مجلس الوزراء في القضية نقطة منعا لنشر تعليقات صحفية غير صحيحة نرجو ان **تراقبوا الصحف وتوضحوا الامر كما بيناه** نقطة؟؟

خارجية

ولم أر في هذه البرقية ما يشفي الغليل فاجبت عليها بالرد الآتي :

خارجية بغداد ١٩٣٦/٦/٣

جوابا على برقيتكم ٣٠ مايس لقد تمادت الصحف بنشر تفصيلات عن الحادثة المؤلمة نقلا عن صحف أثينا التي تصل في يوم واحد الى استانبول وعد مخابريها هناك بالرغم من توضيحنا الأمر لبعضهم وفق امركم نقطه رأينا أن نشر تكذيب رسمي مما يؤدي الى مناقشة بين المفوضية والصحف وتماديها في النشر نقطة اضطررنا لمراجعة وكيل الخارجية التركية ليوعز الى الصحف ان تكف عن هذه النشريات نقطة اخبرنا بأن الايعاز قد حصل.

عراقيـة

(برقية الخارجية العراقية الى ناجي شوكت)

تأثير الحركة الوطنية على تطور التشريع التونسي

للأستاذ محمد منصور ★
الجامعة التونسية . مركز الدراسات والأبحاث
الاقتصادية والاجتماعية

تمهيــــد :

ليس بدعا من التشريع ان يحمل بـين نصوصه معالـم النهضة او التخلف في أمة من الامم وان تتسرب في مسالكه العادات التي اكتسبتها هذه الامة والانماط الاجتماعية التي تسودها والآمال التي تتمخض بها ، والمناهج التي ترسمها لتحقيق غاياتها الكبرى في مختلف مراحلها التاريخية اذ يمثل التشريع الصورة الاوضـح لارادة الامة في الفصـل والاختيار والتخطيط والمواجهة .

لذلك كان التشريع ، المسلك الاكثر دقة في رسم حياة الامم وضبط تاريخها ، والانفذ عمقا في تصوير حالاتها الاجتماعيـة والاقتصاديـة والتربوية والسياسية خاصة بعد ان اصبح التشريع في ظل النظام الحديث للدولة المعاصرة حكرا على ارادة الامة ، تعرب من خلاله عما تشاء وعمـا لا تشاء ازاء مختلف مناحي الحياة القومية والدولية ،مما اكسبه ديناميكية المجتمع الذي ينبثق فيه ، وتراوح النزعات التي تظهر فيه من حين لآخر،

★ القاضي بالمحاكم التونسية والباحث بمركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس

لذلك كانت الرابطة وثيقة بين التشريع الوطني والتحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع التونسي ، ويبرز ذلك على الخصوص فيما كان للحركة الوطنية من تأثير فعال في تبلور ارادة الامة وسعيها الاصيل الى تحقيق ذاتها وبناء كيانها القومي في مواجهة الانحرافات الداخلية والتحديات الدولية .

ولتحقيق الدقة في ضبط العلاقة بين هذين الجانبين من تاريخنا القومي ينبغي وضعهما في الاطار الموضوعي . والحضاري لهما ، فالحركة الوطنية بمفهومها الاصلاحي والسياسي الواسع التي كانت تنطلق منه لمواجهة طغيان حكم الاطلاق في عهد الدولة الحسينية واستبداد الاستعمار التوطيني الدخيل في عهد الحماية ، ومظاهر التخلق الفكري التقني في عهد الاستقلال طلبا لتحقيق العدالة الاجتماعية والاستثمار الكامل للموارد القومية والمواكبة الفكرية لآفاق التطور الحضاري الدولي واقرار مناهج سياسية لعمل وطني سليم ، لم تستعن بالعمل التشريعي كمضمون لمطالبها وسند لتأمين مساعيها الا في القرن التاسع عشر على الخصوص .

الفصل الاول : دواعي الفتور في الحركة التشريعية :

ذلك ان المجتمع التونسي كان حينذاك ـ

١ ـ مستمرا على المستوى الاعتقادي لمناهج التشريع الاسلامي ، ومكتفيا بالمقومات الروحية والمنازع الفقهية والاصولية الشاملة فيه ، وطرائق الحكم والتنظيم للسلطتين القضائية والتنفيذية المعتمدة منه ، باعتبار انه التشريع الازلي الامثل الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه . ولم يكن يشعر قط بالحاجة الى ربط رغبته في الاصلاح ومقاومة الطغيان بتشريع وضعي من صنع ارادته يمكن ان يغير ما بحاله او يعدل ويهيء طرائق جديدة لاصلاح وضعه ، والحال ان في محتوى الشريعة الاسلامية بحسب ما يراه المجتمع آنذاك ـ من ضوابط الملك الصالح والوحدة الاسلامية والعدل الاجتماعي ما يغني عن كل تجديد ،

لذلك كانت الدعوات الاصلاحية التي ظهرت أنذاك تنادي بإحياء الشريعة الاسلامية ، لا بالابتداع عليها . وترفض إزالة النظام الفلكيوان توجهت بالانتقاد او اعلان العصيان في وجه ملك ما ــ فقد كان البعض على ما يروي احمد ابن ابي الضياف في الجزء الخامس من اتحاف اهل الزمان بالصفحة ١١٣ ــ ، يرى (أن سيدنا ينظر بنور الله فما يظهر له ، فهو السداد والاصلاح في نفس الامر ، فهمته العقول او لم تفهمه قياسا على الامور التعبدية الدينية التي امر بها من له الخلق والامر ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ،) وباطنه لا يعتقد ذلك وشواهد حاله تكذبه ، الا انه يستر قصوره عن اقامة الدليل بهذا الملق البارد .

٢ ــ معتادا على نظام ملوك الاطلاق ومستكينا لما تمضي به مناهجهم السياسية الطاغية ، من تعسف ظالم وقهر للارادات الفردية او الجماعية الصالحة ، اذا ما تعارضت مع رغباتهم الخاصة ، المستندة للقوة والحيلة فيما تاتي به من ظلم وجور يلقي سنده فيما يبثه ارباب الطرق وادعياء الورع من فتاوي بوجوب الطاعة لاولي الامر ، والنزوع عن الفتنة التي هي اشد من القتل والرضاء بالقضاء والقدر خيره وشره، مما يترك الاثر البليغ في نفس الرعية ويخضد شوكتها التلقائية الى مقاومة الطغيان ومراقبة ذوي السلطان فيما يفعلون ، حتى جبلت الرعية على التسليم بالواقع ، والفتور والتخاذل في رد الظلم وعدم السعي الى تغيير ما طبيعة نظام الحكم ، وطريقة التشريع . اذ لا ارادة للامة الا فيما اراده الله لها من حكم جار وملك نافذ .

٣ ــ منغمسا في خضم من التفكك الاجتماعي ، والانقسام القبلي والطائفي ، والحروب الاهلية المستمرة التي كانت تغذيها عناصر التخلف الذهني . والعصبية الضيقة والبدائية الحضرية . فلم يشعر بالمفاهيم القومية ولا بالتضامن الجماعي ولا بالكيان الوطني ، وقد انتهبته نوازع الشقاق والثارات من كل جانب ، وركن الى اهواء الملوك ، فلم يلقسمعا

الى التنظيمات السياسية المستحدثة بأروبا آنذاك ، لكل ذلك لم يحس المجتمع التونسي ، بالحاجة الى اصلاح تشريعي وضعي يؤسس هياكله السياسية ، وسلطه الاساسية العامة ، على منهج يمكن الشعب من حقه في العدل والسلامة الاجتماعية . والاعراب عن ارادته في بناء مصيره القومي . وفي تحديد إختياراته الاساسية في التنظيم السياسي والاصلاح الاجتماعي والتخطيط الاقتصادي ، حتى كان مفتتح القرن التاسع عشر حيث استفحل تدخل الدول الاروبية في شؤون الدول الاسلامية عموما لتحقيق اغراضها في كسر شوكة هذه الدول المستضعفة سياسيا ،وجبرها على حفظ مصالح المواطنين الاجانب فيها ، واتخاذها كسوق لبيع منتوجاتها الصناعية ، واستثمار مواردها الطبيعية ، واستغلال طاقتها البشرية ، وفتح حدودها امام التوسع العسكري للامبراطوريات الاروبية الممتدة فيما وراء البحار ، وذلك بعد ان ظهرت موجة الاكتشافات الاقتصادية والعلمية الحديثة ، التي قربت المسافات وطورت التقنية الآلية ، وبعد ان برزت النزاعات الفكرية والسياسية المتحررة من رواسب النظم الملكية في المجتمعات الاروبية المتطورة ،وتبلورت المفاهيم الاساسية للنظم الدولية التي تسود علاقات المجتمع الدولي والحصانة الدبلوماسية والمعاملة بالمثل ، وشخصية قانون المواطن الخ . مما فتح آفاقا جديدة امام النخبة المسلمة ، ودعاها الى مراجعة أحوالها ، وتمحيص قيمها ، بمنظار نقدي جديد كشف لها عما كان يرزح به واقعها المرير من أدواء اجتماعية وسياسية واخطاء اعتقادية لا سند لها من الشرع والعدل او التبصر ، فاتخذت للدعوة الى الاصلاح ومواجهة التخلف ، وطغيان الملكية المستبدة ، وتدخل الدول ذات الامتيازات القنصلية التي بدأ يستفحل امرها بالبلاد وخاصة منها بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، مناهج متعددة تمثلت على الخصوص في عرائض الالتماس حينا وفي الثورة حينا آخر دون ان ينتهوا من ذلك لنتيجة تذكر .

لان الامر كان يقتصر دائما على المطالبة برفع مظلمة او تحديد

جباية او رد غارة ، ولا يطمح قط الى تغيير نظام الحكم ، او ضبط طرق حديثة في تنظيم الدولة وتحديد سلطاتها ، وطرائق البت والتقرير في تكييف ميزانيتها ، وفي مواجهة المظالم الخاصة والعامة ، وفي استبيان ارادة الشعب فيما يعرض له من قضايا ، وما يلتزم به في حقه من معاهدات ومواثيق دولية .

الا ان ذلك لم يحل دون تنبه النخبة الوطنية الى اهمية الاخذ بالاسباب التشريعية الوضعية واقرار الارادة الاصلاحية للشعب في التزامات ذات طابع قانوني يصدرها الباي ويتعهد بتنفيذها وذلك تحت تأثير العوامل التالية :

الفصل الثاني : (الدواعي المباشرة للاهتمام بالنشاط التشريعي)

أولا – ظهور الامتيازات القنصلية بالبلاد التونسية : ومسارعة امرائها – قبل السلطنة العثمانية – الى منح الوافدين من الاجانب ، جملة من الامتيازات التي تحقق لهم الامن والسلامة ، فيما يقومون به من نشاط تجاري واقتصادي بالبلاد التونسية ، وذلك لفقدان الوازع الوطني في الحاكمين ، ولضمان استعانتهم بالاجانب على خصومهم السياسيين – عند الاقتضاء – بدعوى اظهار ما للاسلام من سماحة ، دون الاخذ بما يوجبه الاسلام من حيطة وحذر ، وخاصة ازاء أطماع الدول الاروبية فيما زخرت به تونس من خامات نادرة ، وامكانيات اقتصادية وفيرة وتفتح حضاري اصيل ، او الاخذ بما تستدعيه خطورة هذه المواقف ، من استشارات شعبية . فأبرموا مع امارة (بيتز) ، إتفاقيات سنة ١١٥٧ – ١٣١٣ – ١٣٥٧ – لضبط معاهدة سلم وتجارة ، ومع مملكة أراغون إتفاق سنة ١٣١٤ – ومع إمارة جنوة البندقية جملة من المعاهدات ابرزها معاهدة سنة ١٤٣٣ – ومع امارة البندقية جملة من المعاهدات ابرزها معاهدات سنة ١٢٣١ – ١٢٥١ – ١٢٧٠ – ١٣٠٥ – ومع مملكة فرنسا معاهدات سنة ١٢٧٠ – ١٧٢٨ – ١٧٤٢ – ١٧٦١ – ١٨٢٤ –

١٨٣٠ ـ ١٨٣٢ ـ ١٨٦١ ومع مملكة انكلترا معاهدات سنة ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٥ ـ وهي معاهدات (١) تقضي في غالبيتها ، بأن القناصل يقيمون وسط مواطنيهم بالفنادق ، ولهم حق الرئاسة العليا عليهم على نحو كان القناصل معه يمارسون وظائف ضباط الحالة المدنية لمواطنيهم ، ويدافعون عن مصالحهم التجارية ، تجاه ديوان الرسوم وتجاه السلطة التونسية ، كما كان لهم وحدهم صلاحية النظر في القضايا والنزاعات التي تشجر بين بني جلدتهم سواء كان النزاع مدنيا او جزائيا ، أما اذا شجر خلاف ، بين أجنبي محالف وبين تونسي ، فان كان هذا الاخير مدعيا، فانه يتوجه بظلامته الى القنصل ، وان كان التونسي مدعي عليه ، فصلاحية القضاء في الامر ، انما هي للحاكم التونسي وحده . وكنتيجة لذلك نمت الجاليات الاجنبية بالبلاد التونسية عن طريق التوسع التجاري والمهني ، واقامة بعض المؤسسات المرفقية لها ، وتزايد تسامح أمراء البلاد في منح الامتيازات لهم ، حتى لقد جاء بالمادة السادسة من الاتفاقية المبرمة بين حسين بن علي والمملكة الفرنسية سنة ١٧٢٨ ـ (ان امتيازات فرنسا يجب ان تكون اعظم من امتيازات اية دولة اخرى ولا يمكن ان يمنح أي امتياز لاية دولة الا اذا منح نظيره لفرنسا في الآونة نفسها) .

كما جاء بالمادة الحادية عشر من الاعلان الرسمي لوثيقة عهد الامان (أن الوافدين على إيالتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنية والارضين مثل سائر أهل البلاد) .

ولا شك ان لهذه المعاهدات والمواثيق وما كان ينجز عنها من تصرفات السلطة الحاكمة والقناصل والاجانب في شؤون البلاد بالاستناد لمحتوي نصوصها النافذة .... أثر كبير في نفوس الوطنيين على نحو مكنهم من ادراك مدى أهمية هذه المشاريع المستحدثة فيما بين الجانبين ، ومدى

(١) تراجع محاضرة الاستاذ المدني حول الحصانة الدبلوماسية المنشورة بكراس خاص صدر عن وزارة العدل في ١١ فيفري ١٩٦٥ .

تعلق الدول الاجنبية بتشاريعها الاجنبية ، وما توليه فيهـا لمواطنيها من حقوق وأنظمة فعالة وسليمة • مما هيأ النفوس بعدئذ للمطالبة باصلاح تشريعي يتناول أوجه الضعف والطغيان في المجتمع التونسي بالاصلاح والتنظيـم •

ثانيا ــ مقابلة أو مواجهة كثرة التراتيب التنظيمية المستحدثة من طرف المشرع الدخيل :

طرف المشرع الدخيل : لتنظيم الاختصاصات التي اقتطعها من سيادة الشعب التونسي وحريتـه الطبيعية ، واستأثـر بهـا لتدعيـم سياسته الاستيطانية ، وتقوية شوكة مواطنية بالبلاد التونسية ، وتركيز نشاطهـم على حساب الثروة التونسية والعامل التونسي ، فعمد الى تجميع كافـة السلطات الموكولة للمحاكم القنصلية بـين يـدي المحكمـة الفرنسية ، والقضويات الصلحية المتفرعة عنها ، بمقتضى القانون الفرنسي المؤرخ في ٢٧ مارس ١٨٨٣ والنافذ المفعول بتونس بموجب الامر العلني المؤرخ في ١٨ افريل ١٨٨٣ ، وأعتبر أن مواطني الدول الصديقة التي تحذف محاكمها القنصلية بتونس ، يرجعون بالنظر الى المحاكم الفرنسية ، على مقتضـى ما يخضع اليه الفرنسيون انفسهم من الشروط والحالات ، طبق ما جاء به الفصل الوحيد من الامر العلي المؤرخ في ٥ ماي ١٨٨٣ وما ان تهافتت المحاكم القنصلية ــ بتحريض من رجال الكنيسة وخاصة منهـم الكردينال لافيجري ــ على التخلي عن صلاحيتها لفائدة المحاكم الفرنسـية وانفردت هذه الاخيرة بالنظر :

١ ــ في جميع القضايا المدنية والتجارية التي تهم احـد الاروبيين بصفته مدعي او مدعى عليه بموجب الامر العلي المؤرخ في ٣١ جويليـة ١٨٨٤ •

٢ ــ في جميع القضايا الجزائية التي يرتكبها التونسيون ، إما ضد أو بمشاركة فرنسي أو أروبي او مهتم بحماية فرنسا أو إحدى الـدول

الاروبية ، أو كان الفعل الجرمي المرتكب من طرف التونسي حاصلا باحدى قاعات المحكمة الفرنسية ، أو ضد أحد أعضائها ، او بغرض تعطيل نفاذ الاحكام الصادرة عن المحاكم الفرنسية ، كما قررت ذلك فصول الامر العلي المؤرخ في ٢ سبتمبر ١٨٨٢ .

كما إستصدر المشرع الدخيل من الباي ، الاوامر المتتالية لتوسيع صلاحيات نظر المحاكم الفرنسية ، وتخصيصها بالنظر في جملة من الفروع والمواضيع القانونية المختلفة ، ولو كانت النزاعات الواقعية ضمنها بين تونسيين فقط ، ولا تهم أي طرف أجنبي ، كما هو الحال بالنسبة :

١ ـ للامر العلي المؤرخ في غرة جويلية ١٨٨٥ ـ والمتعلق بالاراضي المسجلة .

٢ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨ المتعلق بصكوك الاختراع .

٣ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٥ جوان ١٨٨٩ المتعلق بالملكية الادبية والفنية .

٤ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١٧ جوان ١٨٨٨ المتعلق بصيانة الاسلاك البحرية .

٥ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٦ جويلية ١٨٨٩ المتعلق بصيانة الاسلاك التلغرافية .

٦ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١١ ديسمبر ١٨٨٩ المتعلق بتزويد المواد الغذائية او الطبية .

٧ ـ وللامر العلي المؤرخ في ١١ جويلية ١٨٩١ المتعلق بقضايا ديوان البريد .

٨ ــ وللامر العلي المؤرخ في ٢٦ نوفمبر ١٨٦٤ المتعلق بتزويد الشارات المثبتة للمورد .

٩ ــ وللامر العلي المؤرخ في ١٥ ديسمبر ١٨٩٦ المتعلق بحفظ الامـن بالبـادية .

١٠ ــ وللامر العلي المؤرخ في ١٦ اكتوبر ١٨٩٧ المتعلق بشرطة السكـة الحديديـة .

١١ ــ وللامر العلي المؤرخ في ٨ جانفي ١٩٠٤ المتعلق بالمدينين لبنـك الجزائـر .

١٢ ــ وللامر العلي المؤرخ في ٢٥ فيفري ١٩١١ المتعلق بحماية الصور والنماذج الصناعية .

١٣ ــ وللامر العلي المؤرخ في ٢٤ جـوان ١٩١٢ المتعلـق بشركـة الترامواي .

١٤ ــ وللامر العلي المؤرخ في ٢٧ أفريل ١٩٣٣ المتعلق بمسك الحمـام الجـوال .

١٥ ــ وللامر العلي المؤرخ في ١٠ ماي ١٩٣٤ المتعلق بالرهن البحري .

١٦ ــ وللامر العلي المؤرخ في ١٥ مارس ١٩٢١ المتعلق بحوادث الشغل .

١٧ ــ وللامر العلي المؤرخ في ٢٩ جانفي ١٩٢٦ المتعلـق بالجرائـم السياسية .

١٨ ــ وللامر العلـي المؤرخ في ١٨ جويليـة ١٩٢٧ المتعلـق بالدفاتر التجاريـة .

١٩ ــ وللامر العلي المؤرخ في ١٨ جويلية ١٩٢٧ المتعلق بالملك التجاري

٢٠ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٢٨ فيفري ١٩٣٠ المتعلق بالشركات الخفية الاسم •

٢١ ـ وللامر العلي المؤرخ في ٥ ماي ١٩٣٠ المتعلق بالشركات المحدودة المسؤولية •

٢٢ ـ وللامرين العليين المؤرخين في ٦ اوت ١٩٣٦ و ٢٨ جوان ١٩٣٨ المتعلقين بالحرية العامة من صحافة واجتماع وتكوين الاحزاب والجمعيات [1] •

الامر الذي ترك أبلغ الاثر في نفس الشعب التونسي وهو يرى مقوماته الذاتية نهبا بين أيدي الدخلاء يغتصبونها الواحد تلو الآخر ، من امراء البلاد ، مرة بالزلفي والمغالطة ، واخرى بالتهديد ، في صورة اوامر علية ، تمنح الشرعية لعمل غير شرعي ، وتلغي إختصاص المحاكم التونسية لفائدة المحكمة الفرنسية ، وتضع تحت مراقبة السلط الفرنسية،صلاحيات السلط التونسية ، وأنشطة المؤسسات القومية ذات الارتباط المتين بعقيدة الامة ، ونظمها الشرعية •

فبعد أن أتاحت مجلة الالتزامات والعقود التونسية مثلا في فصلها ٩٨٠ فيما بين التونسيين ـ واستيناد الفتوى شرعية ـ نظام الانزال الذي يجيز لمستحق الحبس العاجز عن استثمار عقاره المحبس لسبب من الاسباب ان يحيله او يسلمه للغير بوجه الكراء المعين المؤبد ، مع إمكانية الزيادة في القيمة الكرائية له بما يتلائم مع تغيير الاسعار أو تحسن حال العقار ، تدخلت الحكومة الفرنسية لدى الباي ، وأجبرته على إمضاء الامر العلي المؤرخ في جانفي ١٩٠٥ والقاضي بإلزام أصحاب الانزال بقبول بيع إنزالهم هذا ، مقابل دفع معين الانزال ضمن مدة يختلف امدها باختلاف

---

(١) راجع الاستهلاك الذي نشره الاستاذ الهادي المدني بالعدد الرابع لسنة ١٩٧١ من مجلة القضاء والتشريع ص ١٤ ـ ١٥ .

قيمة المعين ، فان كان مقداره دون المائة ريال لزم للحصول على شرائه ورفع يد المالك الاصلي الايدية عنه أن يدفع المستلزم قيمة الانزال السنوي مضروبة في خمسة وعشرين عاما ، وإن كان مقداره يفوق العشرين فرنكا فان القيمة السنوية تضرب في رقم العشرين فقط ، وبذلك يتخلص العقار من جميع الحقوق الانزالية والحبسية الموظفة عليه ،ويخرج من يدي جمعية الاوقاف التونسية جبرا ليتمحض لفائدة مشتري الانزال، وغالبا ما يكون مستعمرا اجنبيا ، وذلك بعد ان عمدت سلطات الحماية الى استصدار الامر العلي المؤرخ في ١٣ نوفمبر ١٨٩٣ الذي يجبر ادارة الاوقاف التونسية على ان تقدم في نهاية كل سنة قائمة لقسم الاستعمار بادارة الفلاحة تتضمن أسماء ومواقع الهناشر التي يمكن وضع اليد عليها مما ييسر إحالة أغلب أراضي الاوقاف على المعمرين بثمن بخس يدفع مؤجلا على عشرين سنة بإعانة الصندوق التونسي للقرض .

وفي سنة ١٩٢٦ مثلا وبعد ان اشتكى احد مواطني سوق الاربعاء الى الباي من مظلمة لم ينصفه فيها قائد الجهة ، واستمثل ببيت شعري لاثارة همة الباي اعتبرت السلط الحاكمة ذلك هضما لجانب الحضرة الملكية ، واحالت الرجل من أجل ذلك على المحاكمة لدى المحاكم التونسية. وما إن قررت هذه براءة الرجل وصدق مقالته حتى جن دولاب الاقامة العامة التي طلبت من الباي انتزاع الاختصاص بالنظر في قضايا الاعتداء على امن الدولة الداخلي والخارجي أو محاولة تغيير نظام الحكم القائم او التعدي على الملك أو أحد أفراد عائلته من صلاحيات المحاكم التونسية التي لم تدرك مغازي سياسة الحكومة — حسب رأيها — واحالتها على نظر المحكمة الفرنسية ، فما كان من الباي الا أن أصدر أمره العلي المؤرخ في ٢٩ جانفي ١٩٢٦ بنسخ باب كامل من ابواب المجلة الجنائية التونسية ابتداء من الفصل ٦٠ وانتهاء للفصل ٨٠ منها ، سحب بموجبه من المحاكم التونسية حق النظر في هذه الدعاوي وأوكل أمر البت فيها على حساسيتها

وخطورتها وارتباطها بالكيان القومي لاختصاص المحاكم الفرنسية وحدها(٣) .

مما جعل الوطنيين يعطون أهمية بارزة لهذه التشاريع ويتحسسون من أخطارها ، ويتخذون المواقف العديدة لمواجهتها بالنقد اللاذع وبمشاريع التفتح ، بغرض التخفيف من حدتها .ويطالبون باصدار التشاريع الاصلاحية لرعاية مصالح المواطنين التونسيين ، وحفظ حقوقهم الانسانية والاجتماعية ورعاية القوانين المؤسسة على قيم وطنية من الهدر والتجاوز ، فيهتموا بمناقشة صلاحيات المجلس الكبير وتركيبه وطريقة انتخاب السلط المحلية وتركيب الهيأة البلدية ، وضبط أبواب الايراد والانفاق في مشروع الميزانية العامة ونشر التعليم بين المواطنين التونسيين وتوسيع صلاحيات المحاكم التونسية مما ربط بين الحركة الوطنية والتطور التشريعي برباط وثيق عن طريق زعماء الاصلاح الوطني من خير الدين ومحمد بن حسين وبيرم الثالث وعلي باش والثعالبي والرئيس بورقيبة ... الخ .

ثالثا ـ تأثر زعماء الحركة الوطنية بالنظم الاجتماعية والسياسية السائدة في الدول الاروبية ، ودعوتهم لاقرار تنظيمات صياغية او أو إجرائية مشابهة لما عليه الحال بتلك الدول تستوعب أوجه الاصلاح ، وتضمن للمواطن التونسي حقوقه الوطنية والانسانية الاساسية في وطنه وتفكيره ومكاسبه على نحو يبلور حقه في الحرية السياسية والكرامة البشرية ، مما كان له الاثر الواضح في الحد من اطماع السياسة الاستعمارية والى ان مجموعة من التشاريع التي تحفظ للذاتية القومية كيانها المتميز ولو الى حد ما .

---

(٣) تراجع المحاضرة التي القاها الاستاذ محمد الطاهر السنوسي بطرابلس الغرب في ٣٠ يناير ١٩٥٨ حول موضوع (التشريع التونسي بين القديم والحديث) والمنشورة ضمن كتيب من سلسلة دائرة التشريع التونسي ص ٢٤ وما بعدها .

فالجنرال محمد حسين وشيخ الاسلام محمد بيرم الثالث والشيخ محمود قبادو والوزير الاكبر خيرالدين باشا والوزير مصطفى صاحب الطابع ، والشيخ احمد ابن ابي الضياف ، هالهم ما انحدرت اليه البلاد التونسية من جهالات الحكم الفردي وطغيانه . فجأروا بالشكوى لاحمد باي وطلبوا اليه ان يحرر الانسان من استعباد الانسان ، وان يجري نظاما ديمقراطيا على غرار ما اجراه السلطان محمود ، فأصدر في ديسمبر ١٨٤٢ وفي ٢٦ جانفي ١٨٤٦ أمرين أوجب فيهما تحرير سائر العبيد وتحجير الاسترقاق واعتبار ان كل من يولد بالبلاد التونسية حرا ، غير ان ذلك لم يرض هذه النخبة فألف محمد حسين رسالة في التنويه بمباديء الحرية وذم الحكم الفردي ، كما الف الشيخ محمد بيرم الثالث رسالة في تحبيذ المشورى وفضائلها يسرت على الباي محمد (بالفتح) بن حسين بالاضافة الى مجموعة من العوامل الاخرى .

اصدار منشور في الوعد بابراز قانون عهد الامان، وتشكيل ديواني الجبايات والتجارة . وقد أفاء في ٩ سبتمبر ١٩٥٧ باعلان عهد الامان الموعود . ثم تلاه اخوه الصادق باي الذي التزم عند البيعة بنفاذ قواعد عهد الامان واحترامهما ، وأمر باحداث مجلس الجبايات والاحكام العرفية ومجلس التحقيق ، الذي كان بمثابة محكمة استئناف لاحكام مجلس الجنايات ، وعمم المجالس الابتدائية المنبثقة عن مجلس الجنايات والاحكام العرفية المتمركز بتونس ، بكل من القيروان وسوسة وصفاقس والاعراض وجربة وباجة والكاف وبنزرت والجريد ، تؤازرها مجموعة من محاكم النواحي التي تختص بالبت في القضايا البسيطة والمخالفات . وتدعى بمجالس الضبطية ، كما احدث المجلس الاكبر الذي اوكل اليه قيادة الجهاز العدلي، فأناط بعهدته توضيح المشكلات القانونية وتفسير المقاصد الشرعية وبيان عوائص المسائل المغلقة والسوابق القياسية والاجابة عن جميع الاسئلة التي ترد اليه من مختلف مجالس الجنايات ، على ان يتولى الرائد الرسمي التونسي نشر اجوبته عليها وتفسيراته وتوجيهاته القانونية

فوق صفحاته ، وذلك عملا بمقتضيات الفصلين ٢٤ / ٢٦ من دستور عهد الامان [٤] كما اصدر في شوال سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٧١ م) مجموع

(٤) ورد بالمرسوم الملكي المؤرخ في ١٣ رجب ١٢٧٧ الصادر في بيان مدى الاصلاح القضائي ومرجع النظر الحكمي المخول للمجالس المحدثة بمقتضى عهد الامان ، ما نصه :

(واما الحقوق الذاتية بين افراد الناس مما يقع بين المتداعين ، مما لا يخلو الوجود منه من جنايات تعم وتخص كالحرابة والفساد في الارض والخيانة للدولة والوطن وتدليس النقدين وشهادة الزور ونحو ذلك وتعطيل المصالح العامة ، كمجاري المياه وغير ذلك مما لا يخص مجنيا عليه معينا وكقتل النفس والضرب والجرح والنهب والغصب والتعدي على الاموال والمنافع وغير ذلك من المخالفات التي يلزم فاعلها الحكم عليه بالعقاب والحكم بغصبه على رد المتاع ، فلما كانت النفوس البشرية لا تأمن من الغلط والغفلة من حكم فرد ، جعلنا لفصلها والنظر فيها مجالس الجنايات والاحكام العرفية ، وتطمئن نفس المحكوم عليه اذا كان من انظار متعددة في مجلس يحقق طرق الثبوت وينظر في القرائن ويخص الشهود ويستفسرهم وينظر في الحجج المكتوبة من جهة صحتها وشروطها المقررة في القانون ويلزم من ثبت بطلان دعواه وحجته جميع ما صرفه المحقق ، ولزيادة الا من جعلنا مجلسا آخر سميناه مجلس التحقيق اذا اراد المحكوم عليه ان يرفع له نازلته وذلك قبل مضي ثلاثة ايام من يوم الحكم عليه .

كما جعلنا للمحكوم عليه في جناية شديدة ان يرفع نازلته من مجلس التحقيق الى المجلس الاكبر وبه ينقطع عذر المحكوم عليه ، وجعلنا في بعض البلدان بالمملكة وهي القيروان وسفاقص والاعراض وجربة وباجة والكاف وبنزرت والجريد مجالس للجنايات والاحكام العرفية ، ومجلس كل بلد يباشر نوازل الوطن المحدد له تسهيلا لاصحاب النوازل ومن اراد نازلته في مجلس الحاضرة فله ذلك ومجلس التحقيق وراء الجميع ان طلبه المحكوم عليه ، ومجالس بلدان المملكة لا تحكم في الجنايات الشديدة المقتضية للقتل والسجن المشدد — ويجب عليها تقرير الدعوى وامعان النظر في طرق ثبوتها من القرائن ، وارسالها الى مجلس الجنايات بالحاضرة ، ولا ينفذ حكم في جناية شديدة ولو من المجلس الاكبر الا بعد عرضه علينا ، ولنا التخفيف والعفو ان لم يكن الحق للغير — وقد جعلنا مجلسا للنظر في نوازل التجارة مركبا من رعيتنا وغيرهم ، ثم ان الاجتماع الانساني والطباع البشرية تقتضي كثرة

القوانين المتولدة عن روح عهد الامـان ومنها علـى الخصوص قانـون ترتيبي ذو طابع اجرائي يدعى بقانون الخدمة الداخليـة لمجلس الجنايات ومجلس التحقيق ويحتوي على ٢٧ فصلا ومحلة قانونية جامعـة للمبادىء والاحكام القانونية المدنية والجزائية الواجبة التطبيق من طـرف مجالس القضاء ، ويحتوي ٦٦٤ فصلا منها ١٢٤ فصلا تتعلق بتراتيب اجرائية .

وبالرغم من الدسائس التي حيكت بايحاء من قناصل الدول الاروبية والتي دفعت بالصادق باي في غرة ماي ١٨٦٤ الى الامر بتعطيل سائـر المجالس المحدثة تنفيذا لعهد الامان والذي جاء به (ان المصلحة اقتضت ان المجلس لا يباشر فصل النوازل ، فالعمل ان تنبه على سائر الاعضاء بذلك، والسلام) بعلة ان الرعايا يشتكون من تطويل فصل نوازلهم في مجالس الاحكام ، وتمنوا بسبب ذلك عدم التقيد بتلك المجالس ، لذلك جعلناهم مخيرين في نشر جميع نوازلهـم لدى من شـاؤوا من المحاكم الشرعية ومجالس السياسة والعمال ، ثم من اراد رفع نازلته الى حضرتنا فبـاب محكمتنا مفتوح لكل متظلم كالعادة السابقة ، كما جـاء ذلـك بمنشوره الصادر خلال شهر افريل ١٨٦٤ .

المنازعات لاسيما في الامور الخفيفة الدائرة ، وبكثرتها في مجالس الاحكام تتعطل النوازل المهمة ، فجعلنا لها مجلس الضبطية المحافظ على هناء البـلاد ولهـذا المجلس التمكن على الجاني وايقافه خشية هروبه للحكـم عليه في مجلس الجنايات ، ولا يحكم مجلس الضبطية في المعاملات الاختيارية مثـل الدين والضمان . وانما يحكم في المشاجرات الخفيفة ، وفي كل عمل مـن اعمال مملكتنا مجلس ضبطية متركب من اهل البلد – وكـل مجلس من مجالس الحكم لا يتجاوز القدر المحدد له في القانون ، وحسبه فهم النـازلة وطرق تطبيق ثبوتها وتطبيق الحكم عليها من القانون ، فان لم يجد لها ذكرا او توقف في فهم عبارة من القانون فذلك للمجلس الاكبر ... الخ .

الفصل الثالث :

الفصل الثالث : تأثير الحركة الوطنية على ظهور التشاريع الاصلاحية فان الجذوة الوطنية لم تخبو أمام طغيان الحكم المطلق فاتخذت شكل الاصلاح الاداري على يد المصلح خير الدين الذي انصرف عند توليه الوزارة الى تطهير البلاط من العابثين واخذ على عاتقه إصلاح الامور الادارية والقضائية فكون مجالس قضائية تنظر في مختلف الدعاوي جنائية كانت او مدنية ، وسن لها القوانين : كقانون الفلاحة الذي غير في عهد الحماية بنص لم يدخل عليه من التحوير الا جزءا بسيطا يلائم حاجة المستعمر الى إستغلال أعوان الادارة التونسية في داخل البلاد لتدعيم سطوة معمري الارض من الاجانب ، وقانون الاجراءات لدى المحاكم الشرعية التي خصها بالنظر في الزيجات ، والنفقات والتركات واستحقاق العقار وقانون احداث البلديات(٥) .

وخطط برامج عمل وصلاحيات أقسام الوزارة بين وزارة كبرى ووزارة عدل ووزارة تربية ووزارة خارجية- باصطلاحنا الحديث -ونظم طرق الاشراف على معاهد التعليم وخاصة منها جامع الزيتونة ومعهد الصادقية ، كما نظم الجريدة الرسمية وغيرها من المشاريع التي بذل الجهد في ابرازها ، كما اتخذت الروح الوطنية مظاهر اللوم والتحدي مرة ، والنصح والارشاد أخرى ، لاقناع الباي وسلط الحماية بضرورة الحد من طغيان الحكم الفردي ، وتفويض السلط القضائية لهيئات عدلية مختصة ، وتعيين الحقوق الفردية والعامة ضمن مدونات قضائية قارة ، وتخليص أحكام المحاكم العدلية من مراقبة الكاتب العام للحكومة ،ومن أهواء السياسة الملكية ، في الاذن بتنفيذ عرائضها او تعطيل العمل بها ، مما دفع بالكثير من القضاة الى معارضة توجيهات الكاتب العام

---

(٥) يراجع الاستاذ محمد الظاهر السنوسي في محاضرته المشار اليها سابقا .

للحكومة ، والاصرار على رأيهم في القضايا المعروضة بين ايديهم ، حتى كتبت جريدة الزهرة عند الاعلان عن وفاة القاضي الشهير محمد (بالفتح) بوسن (مات القاضي الذي كان لا يحكم من وراء حجاب) لما عرف به من شجاعة واصر في مواجهة تحديات ادارة الاشراف الاستعمارية .

وكنتيجة لهذه المساعي الدائمة اضطر الباي الى تفويض سلطته في التصريح بالأحكام الى مجموعة من المجالس العدلية المنتصبة لفصل النوازل الجنائية والتي أسست بموجب الامر العلي المؤرخ في ١٨ مارس ١٨٩٦ بعد ان أعترف للخصوم في القضايا المدنية بحق الاطلاع وتسلم النسخ من الأحكام الصادرة فيها وذلك بموجب أمر ٢٧ ديسمبر ١٨٨٤ـ كما أذن بتأليف لجنة لتحرير مشروع مجلة مدنية وتجارية صيغت بنودها المستمدة في معظم الاحيان من احكام مجموعة قوانين عهد الأمان ضمن لائحة طبعت سنة ١٨٩٩ لم يؤشر عليها بالاصدار الى أن أصدر الباي في ١٥ ديسمبر ١٩٠٥ امرا بنشرها وسماها مجلة العقود والالتزامات ، وقد توفرت على اعداد لائحتها لجنة فنية مختصة من اعلام القانون والقضاء من بينها مقرر اللجنة الاستاذ (د . صاتيلانا) الذي أوضح ان (مهمتها تتمثل في ان تجمع وترتب وتنتقي من التشريع الفرنسي ما تراه صالحا للاستعمال في مهمة التدوين النهائية ، على ان تترك جانبا المواد المتعلقة سواء بالاحوال الشخصية أو بنظام الملكية العقارية ، كما كان عليها من ناحية اخرى ان تستخرج من عمل المحاكم الشرعية ومن التشريع التونسي ، كلما يمكن استعماله ، لتماشيه سواء مع مبادىء القانون العصري او مع الظروف الحالية للمجتمع التونسي[٦] وقد توفر على شرح هذه المجلة وتحليلها الاستاذ (اندري موريل) ضمن كتابه

---

(٦) يراجع تقرير الاستاذ (د . صانتيلانا) المنشور بمدونة مجلة الالتزامات والعقود المعلق عليها من طرف الاستاذ محمود بالشيخ ص ٣ .

المطبوع في سبتمبر ١٩١١ .

الا أن ذلك لم يشف غلة الوطنيين . فانبرى أعضاء تونس الفتاة اللذين انضووا تحت راية جمعية قدماء الصادقية سنة ١٩٠٥ بزعامة علي باشا حامبة الى ملاحظة (أن الاصلاح الحق الذي يتمثل في تفريق السلط والتفويض للقضاة التونسيين في محكمتي الاستئناف المدنية والجناحية وفي محكمة الجنايات ، لم يظهر له اثر ، خاصة بعد ان ازداد ضراوة تدخل الكاتب العام للدولة التونسية ومدير العدلية في الاحكام عن طريق المعاريض) والى التنديد (بضعف الاجراءات المدنية والجزائية، وبالهوة التي ما زالت العدلية التونسية ترزح فيها نتيجة لما كانت تعمد اليه السلطات الاستعمارية من انتهاك لحرمة القضاء الوطني واستيلاء على اختصاصاته لفائدة المحاكم الفرنسية ، مؤكدين بأن نشر القوانين لا يكفي لاصلاح الأوضاع ان لم تصحبه الضمانات الكفيلة بتطبيق مضمون تلك القوانين .

فقد كتب علي باش حامبة في جريدة التونسي (أن القضاء من المؤسسات الاجتماعية التي تتأثر اكثر من غيرها بالتطور الذهني والاقتصادي لشعب ما ، وكل شعب متطور هو في أشد الحاجة الى قوانين جديدة والى ضمانات جديدة لتطبيق تلك القوانين .

وقد آزره في ذلك حسن القلاتي الذي طالب على صفحات نفس المجلة (باعداد برنامج كامل في آجال مضبوطة للاصلاحات المزمع انجازها بشأن إعادة تنظيم القضاء الوطني على أن يرتكز الاصلاح على القواعد التالية :

١ ـ حتمية التفريق بين السلطتين القضائية والادارية .

٢ ـ أن القضاء الذي يصدر باسم سمو الباي لا ينبغي مطلقا أن يظل محبوسا .

٣ ــ وجوب انسحاب وسيلة الطعن بالاستئناف على سائر القضايا •

٤ ــ لا يمكن أن يوجد قضاء بدون مجلات قانونية وبدون قضاة قادرين على فهم تلك المجلات وعلى تطبيقها •

٥ ــ يجب أن يشتمل القضاء التونسي على ثلاثة أصناف للمحاكم •

أ ــ محاكم النواحي •

ب ــ محاكم جهوية •

ج ــ محكمة الاستئناف بالوزارة أو دائرة تعقيب ، وان تطبيق هذه المبادىء العامة التي لا يمكن أن تتنازل عنها قيد أنملة ، يمنحنا قضاء سليما[٧] •

واستجابة لهذه الحملة الصحفية وللتدخلات الشخصية التي كان يقوم بها بعض الوطنيين من ذوي النفوذ لدى السلط الحاكمة ، وعلى الخصوص منهم الطاهر خير الدين إبن المصلح خير الدين باشا ، صدر الأمر العلي المؤرخ في ٢٤ ديسمبر ١٩١٠ بنشر قانون المرافعات المدنية المنقح بأمر ٢٦ أفريل ١٩٢١ ، كما صدر الأمر العلي المؤرخ في سنة ١٩٢٠ بتأسيس مدرسة الحقوق لتخريج القضاة الفنيين ، والامر العلي المؤرخ في ٣٠ ديسمبر ١٩٢١ والقاضي بسن مجلة المرافعات الجنائية وبتفويض الباي لسلطاته في مراقبة معاريض الاحكام الجزائية ، واصدار الأمر بتنفيذها من عدمه ، الى المحاكم المختصة بنظر القضايا الجزائية ، كما صدر أمر علي في ٢٤ افريل ١٩٢١ بتأسيس وزارة العدل وفصل صلاحياتها القضائية عن السلط الادارية ، وفي ١٤ جويلية ١٩٢٢ صدرت أربعة أوامر علية إحداها قاضيا بابطال وضيفة الكاتب العام للحكومة التونسية،

---

(٧) يراجع الاستهلال الذي كتبه الاستاذ الهادي المدني بالعدد الرابع لسنة ١٩٧١ من مجلة القضاء والتشريع ص ١٩ وما بعدها .

واسناد صلاحياتها الى مدير الداخلية ، والى مدير الاقسام العدلية ، وإثنان منها قاضيان بضبط وظائف كل من الادارتين ، والرابع قاض بتأسيس إدارة العدلية مستقلة عن الادارة العامة للداخلية اداريا وماديا .

وعلى الرغم من مطالبة النخبة التونسية في تلك المرحلة ـ وضمن إمكانياتها ووسائل عملها المحدودة ـ برفع المظالم الضريبية عن كاهل الشعب التونسي وباصلاح التعليم وتأسيسه على مقومات وطنية وإقرار الحق النقابي للتجمعات العمالية التونسية وإصلاح القضاء الوطني وتوسيع صلاحياته ، وتأكيد حقوقه الأدبية والمادية وايكال السلطة التشريعية لممثلي الشعب ضمن مجلس دستوري منتخب ،وايجاد النصوص التشريعية التي تقتضيها حاجة المجتمع التونسي للاصلاح والرعاية على أن تركز أحكامها على مقتضيات الشريعة الاسلامية والأعراف التونسية ،وما يصحب هذه المساعي أحيانا من مواجهة نقدية وتشهيرية للتشاريع التوطينية المغرضة التي تسنها السلط الاستعمارية مباشرة او بواسطة الباي .

فان عموم التشاريع التي سنت في هذه المرحلة والتي شارك في اعداد بعض مشاريعها مجموعة من القضاة والاطارات القانونية التونسية انئذ كانت تمتاز :

أ ـ بتشتت عناصرها وتوزعها بين أحكام طائفية شرعية او موسوية وأحكام أجنبية أو ملكية تستجيب لأحداث جزئية ومصالح موقوتة مختلفة الطابع والمبنى لا تصدر عن ارادة واحدة ولا لغرض قومي عام .

ب ـ بصدورها عن ارادة فوقية لا ارتباط لها بارادة الشعب واختياراته ومثله ومصالحه ، اذ كانت تنبثق عن نظر فوقي يؤمن بحقه في التوجيه دون معقب ، وبواجب الآخرين في الامتثال له دون مناقشة او

رفض لما يسنه من أوامر عامة أو خاصة تقتضيها ظروفه الملكية والاستعمارية بحسب ما اذا كان مصدر الأمر ملكا او مقيما عاما .

ج ـ بتبلورها في إطار أجنبي عن مصلحة الشعب يهدف الى قهر ارادته وتسخير طاقته وانتزاع ثرواته واذابة شخصيته في بوتقة الاهداف الاستعمارية العليا التي تسعى للمس بمعالم الذاتية الوطنية من لغة ودين وتاريخ ، وتركيز دعائم الاستيطان والتبعية الدائمة للدولة الحامية وجالياتها الاروبية الماسكة بزمام الحظوظ القومية اقتصادية كانت أو ادارية او تربوية .

د ـ بصياغتها في نصوص مستوردة المضمون والبناء لا علاقة لها ، بأرضية المصطلح التونسي ومحتواه تتناول مواضيعها من أفق أجنبي بعيد الصلة عن المؤسسات والمفاهيم التونسية ومبانيها التشريعية الاصيلة .

الفصل الرابع : نشاط الهيكل القضائي للمحافظة على الذاتية الوطنية:

وكانت هذه المشاغل ونداءات الاصلاح تستجيب لأحاسيس القضاة التونسيين اللذين طالما أعنتهم نظام الامتيازات القنصلية والسيادة المزدوجة بما اقتطعه من اختصاصات القضاء التونسي ، وما انتحله من تشاريع لتدعيم المصالح الاجنبية والنيل من الشعور القومي وايكال النظر في قضايا المواطنين لسلطات ملكية غير بصيرة حينا وأجنبية أحيانا(٨) وقد ضؤل كيان القضاء القومي وحددت سلطاته بمحاكم البايات والدايات والقواد التي تناولت فصل النوازل بأوجه ما أنزل الله بها من سلطان ، فعممت الاستثناءات والامتيازات وسلبت القضاء الاصلي سلطته التنفيذية وهي روح الصفة الحكمية ، فأصبح بروز آثار الأحكام الشرعية في

(٨) يراجع خطاب السيد موسى الكاظم بن عاشور رئيس محكمة التعقيب بمناسبة افتتاح السنة القضائية وتوحيد القضاء لسنة ١٩٥٧ المنشور بنشرة القضاء التونسي لنفس السنة .

الحيز الفعلي منوطا بالشهوات والأهواء ، وأمتدت أيدي المكاتب الادارية في الأقسام الى تعاطي القضاء فأرهقت الشعب وسامته الخسف والجور ، وانتصب المحاكم القنصلية من جهتها تذل ابناء البلاد لصولة الأجانب وتعبث بمصالحهم لتحقيق ما للاغيار من منافع غير مشروعة ، وكان الأمل أن يرجع عهد الأمان للقضاء التونسي ما عبثت به سلطة الملك المطلق من صلاحياته وإستقلاله ، إلا أن المكائد السياسية وانتصاب الرقابة الادارية فوق المجالس القضائية ، واستئثارها بحق إبرام الأحكام بطريقة المعاريض الملكية ، حال دون تطبيق أصوله القضائية فبقيت المحاكم القنصلية وأضيفت إليها بدعة المحاكم المختلطة ، وعلى هذا الأساس بنى الاستعمار الفرنسي سياسته في القضاء ، فاعتبر سيادة القضاء التونسي قاصرة محدودة ، فأنشأ على الأرض التونسية محكمة فرنسية يحتج لشطر من حقها بالامتيازات القنصلية وللشطر الآخر بأوهام السيادة المزدوجة التي كانت تسيطر على السياسة الاستعمارية ، فافتكّت المحكمة الدخيلة من مراجع نظر المحكمة الاصلية القضايا التي يكون أحد طرفيها غير تونسي وقضايا المنازعات العقارية في الملك المسجل وغير ذلك ، حتى اصبحت المحاكم الفرنسية تقضي بين طرفين مسلمين في نوازل الحالة الشخصية ، وتقضي بين تونسيين في نزاع حول أرض تونسية ، وبعد ان إستأثر القضاء الأجنبي بما خصص به نفسه ، رد الفواضل على القضاء التونسي ، الذي أصبح منهوكا مشطورا بفصل أحد شقيه عن الآخر ، وسلب القوة التنفيذية عن أحكام القضاء الشرعي والزامه في المظاهر والاجراءات أشكالا جامدة بائدة تقضي به طبعا الى الاضمحلال ، بالحط من رتبة المحاكم العدلية وبوضعها تحت رقابة حكام فرنسيين يشغلون مناصب الادعاء العمومي زيادة على إلزام المحاكم العدلية بالصبغة الادارية المنافية لحرمة القضاء » .

فكان ذلك مدعاة للشعور بالغضب والحسرة لدى القضاة التونسيين،

وحافزا لهم على مواجهة مظاهر الاستبداد والتعسف التي يلقاها المواطن التونسي عن طريق السلط المستبدة أو الهياكل الاستعمارية المفتعلة ، بمجموعة من المواقف الوطنية المصممة والمركزة على دفع شبه القصور والاقليمية والتعسف التي كان يلحقها باطلا المؤرخون الاروبيون المغرضون بأحكام التشريع الاسلامي والقضاء الاسلامي ، زعما بأن ما يحتجون به من مظالم الملك المطلق ومن قصص الاستبداد الشخصي الذي يرتكبه بعض ملوك المسلمين ازاء بعض الأجانب إنما يجد سنده في أحكام الشريعة الاسلامية ، وهو ما يدعو في نظرهم المغرض الى قصر نظر المحاكم الاسلامية دون تناول أحوال الأجانب وقضاياهم ، وذلك تبريرا لظهور المحاكم القنصلية بالبلاد ، الاسلامية ولما أفرطت فيه من تصرف وتجاوز للسلط حتى لكأنها دول مستقلة داخل الدولة المضيفة .

فأكد أولائك القضاة بأن تلك المزاعم لا سند لها من التشريع الاسلامي وأن ما أتاه النظام القنصلي والاستعماري هو أفحش ظلما وأسوأ قصدا مما أسند لملوك الاطلاق من مظالم لا تبرر على اي حال اغتصاب سيادة الدولة ، واقتطاع ثرواتها لفائدة المصالح الاجنبية خاصة (بعد أن تغيرت الاوضاع ابتداء من ظهور عهد الأمان ، واصبح تشريعنا ونظام محاكمنا يقارب شيئا فشيئا ما هو قائم في الاقطار الاروبية ، مما لم يبق معه مبرر لنظام الامتيازات القنصلية ولا للنظام القضائي الذي انشأه الحكم الاستعماري ولا لسيطرة الدولة الحامية على ميادين التشريع والتنفيذ والقضاء)(٩) ويسعوا جهدهم الى التمسك بالذاتية القومية وابراز معالمها وخصائصها في مختلف تصرفاتهم ومبادراتهم فلم يألوا جهدا في :

---

(٩) يراجع خطاب السيد احمد المستيري وزير العدل بمناسبة افتتاح السنة القضائية وتوحيد القضاء سنة ١٩٥٧ . والمنشور بالمرجع السابق ص ١٣٠ .

أ ـ ابراز شخصية القاضي الوطني :

١ ـ من خلال مواجهتهم المصالح الاستعمارية والكشف عن اجابيبها المصطنعة فيما تنشره من قضايا ضد التونسيين بغرض ارهاقهم والضرب على روح المبادرة والرفض فيهم ، فكان القضاة التونسيون يأبون مجاراة السلطة ويحتكمون الى قواعد العدل ومبادىء الضمير القومي فيما يصدرون من قرارات •

٢ ـ ومن خلال تمسكهم بالأحكام الشرعية والعادات القومية فيما يأتونه من أوجه لفصل القضايا المعروضة عليهم ، وفيما يبدونه من أوجه التحليل والنقد لمشاريع القوانين ، ونصوصها بغرض انهاضها على مباديء التشريع الاسلامي ومألوف العرف التونسي ، حتى لا تنسخ الذاتية القومية في التشاريع المستوردة لذلك كانوا لا يترددون في الجهر باعتبار المحاكم الفرنسية ذات طبيعة استثنائية ، وفي التمسك والتنويه بتراتيب واحكام مجموعة القوانين الناشئة عن عهد الامان •

واعتبارها نافذة المفعول[10] وفي المطالبة باسناد سلط الاشراف على

(١٠) يراجع القرار الاستئنافي الفرنسي الصادر عن محكمة الاستئناف الفرنسية بالجزائر ـ بموجب احالة من محكمة التعقيب بباريس ـ في ٥ جوان ١٩٤٩ والقاضي : (بان الدستور السياسي يحتفظ بوجوده القانوني ما لم يقع الغاؤه بنص صريح وان الامر العلي الصادر في ٣٠ افريل ١٨٦٤، انما جاء بايقاف سير المجلس الاعلى الذي احدثه دستور عهد الامان المؤسس سنة ١٨٦١ ، واننا لو فرضنا ان بعض عناصر عهد الامان قد اخذ عليها الدهر فان ذلك الدستور لم يقع ابطاله ، وان كثيرا من مقتضيات هذا الدستور كقانون ال بيت المملكة الحسينيين والترتيب الوراثي للعرش وسلطة ونفوذ رئيس الدولة ودخل العائلة المالكة من ميزان الدولة لا تزال عاملة نافذة الى اليوم ، الخ ...) حسب ترجمة للاستاذ محمد بن عمار رئيس ودادية الحكام التونسيين ادرجت بنشرة القضاء التونسي لسنة ١٩٥٠ ص ٢٥.

ويراجع ايضا القرار عدد ١٠٣٤ الصادر عن محكمة التعقيب التونسية في ١٤ـ٣ـ١٩٥٧ والقاضي (بان دستور عهد الامان كان عاملا ونافذا فيما

المحاكم التونسية من مدعي عمومي ورئيس محكمة تعقيب وكاتب عام للعدلية الى حكام تونسيين .

٣ ــ وحرصهم الشديد على تدعيم حرية الاجتهاد القاضي التونسي وتركيز وجهة نظره في مقابلة ما قد يتعرض اه من ضغوط سلط الاشراف القضائي او الاداري على وجدانه سواء كان بصفته عضوا ضمن المحاكم التونسية او ضمن المحاكم المختلطة ، حتى انه كان يؤثر عن بعضهم انه كان يأبى ابداء رأيه في المجالس المختلطة الا بعد ان تعرب لديه الوثائق ويناقش رأيه في القضايا بكل جدية ، كما كان البعض الآخر يرفض الامتثال لتوجيهات الكاتب العام للحكومة المدرجة على لائحة المعروض فيما يظهر له من اوجه الحكم .

ولتحقيق الاستمرار في هذا المنحى وضمان الرواج له والتداول حواله ، احدثت ودادية للقضاة التونسيين تعمل على جمع كلمتهم وتمييز منحاهم والدفاع عن مصالحهم المهنية والمادية والأدبية ، وعلى تدعيم

←

يتعلق بالجرائم التي يرتكبها افراد العائلة المالكة ، اذ لم يقع ابطاله بالفصل الثاني من مجلة المرافعات الجنائية الصادر بها الامر المؤرخ في ٣٠ ديسمبر ١٩٢١ ولم يقع العدول عن ذلك الدستور بالنسبة لهذا الموضوع الا بالامر المؤرخ في ٣١ ماي ١٩٥٦ وبذلك لم تقع مخالفة المبدأ القائل بان لا عقاب بدون نص سابق الوضع ، والعقاب المسلط موكول لاجتهاد الملك وحده وبذلك فلا حصانة لافراد العائلة المالكة من العقاب . وانما دستور عهد الامان لسنة ١٨٦١ جاء بضبط الاجراءات الخاصة بتتبعهم ومحاكمتهم ، لكن امر ٣١ ماي ١٩٥٦ نسخ هذه الاجراءات الخاصة واحال على اجراءات المرافعات بالنسبة اهم .

(١٠) المعروض هو تلخيص اوراق الدعوى والجواب عنها ، والشهادات والقرائن القائمة الفائدة كل واحد من الخصمين والاتيان على بعض ملاحظات الدفاع ، وعرضه من قبل الحاكم في قالب مرسوم ملكي يعرض على ختم الامير بعد ان ينص الحاكم على نص الحكم مما يجعل الاحكام حتى سنة ١٩٢٢ مقيدة براي الامير ولا حق للحاكم بالبت فيها (محاضرة حول القضاء التونسي . لعمر الستاري منشورة بنشرة القضاء التونسي لسنة ١٩٤٩ ص ٩٢) .

شعور الكمال والاستكمال في نفوسهم وتحريك كوامن ثقتهم بأنفسهم واعتمادهم على جهودهم والتفافهم حول الودادية التي منحتهم القوة والاعتزاز •

ب ـ السعي لتطوير القضاء التونسي عن طريق =

١ ـ الدعوة الى توسيع صلاحيات المحاكم الشرعية والوطنيةوتنمية اطارها الفني ومراكز عملها فطالبوا ضمن لوائح قدمت للباي ولوزير العدل وللكاتب العام للحكومة ، باسترداد ما للقضاء الوطني من الحق الطبيعي في النظر في الاملاك المسجلة والقضايا السياسية وقضايا العائلة المالكة ، وقضايا ادارة البريد والسكك الحديدية وقضايا فواجع العمل والدفاتر التجارية ، وباعتبار وظائف الادعاء العمومي من الوظائفالمفتوحة في وجه الحكام التونسيين ، الى درجة الاحتجاج لدى وزارة الخارجية الفرنسية على القرار السفيري المؤرخ في ٢١ ماي ١٩٥١ والقاضي بقصر تلك الوظائف على ذوي الجنسية الفرنسية ، وبتوسيع المؤسسة العدلية عن طريق احداث دائرة جنائية ثانية ودوائر استثنائية بالآفاق ، ودوائر اخرى بمحكمة الدريبة وبانجاز قانون اعوان التنفيذ ، والقانون الأساسي للحكام التونسيين الخ •(١١) وبتوسيع نطاق اليد العاملة والاكثار فيعدد الحكام لمجابهة الاحتياجات المتزايدة الناشئة عن تطور القضايا وكثرتها بالمقارنة لما عليه العدد الحالي من الحكام •

٢ ـ المطالبة بتوفير المهيئات الماديةوالاعتبارية لعمل القضاءالتونسي على اساس التنظير بينه وبين المحاكم الفرنسية ذات الطابع الاستثنائي من جهة تخليص تنفيذ أحكامها من مراقبة سلط الاشراف الاداري وتوسيع افاق الترشح للخطط القضائية خاصة بالنسبة للمحرزين على شهادة

---

(١١) التقرير الادبي لمجلس ودادية الحكام التونسيين لسنة ١٩٥٠ المنشور بنشرة القضاء التونسي لنفس السنة ص ١١٣ •

الاجازة في الحقوق التونسية اللذين يجمعون في معظم الحالات بين اللغتين العربية والفرنسية ، واختزال سلم الرتب ، ورفع المرتبات وتقرير غرامة الزي وتضعيف الغرامة الفنية وتعميم وسائل المخاطبة اللاسلكية بمكاتب القضاة ، واستبدال الاثاث المهتري في بعض مكاتب الحكام بأثاث يتناسب مع مهمة القضاء السامية . وتخفيف الاعباء الشكلية للنشاط المهني على القاضي من كتابة محاضر ومتابعة اجراءات التداعي وتلخيص وقائع الدعوى بالاضافة الى الحكم وتسنيد الاحكام .

٣ ـ اثارة دواعي التكافؤ لدى القاضي الوطني فيما بينه وبين القاضي الفرنسي لغويا وفنيا وذلك من خلال التأكيد على رفع المستوى التأهيلي والعلمي للحاكم التونسي عن طريق عقد الندوات العلمية وتنظيم المحاضرات المختصة وتوفير مكتبة للمراجع الشرعية والقانونية وتشجيع حركة البحث والمدارسة وتجميع نصوص القوانين التونسيةوتوسيع نطاق دروس الاجازة في الحقوق التونسية بما يلائم ظروف التطور العالمي وضهور الاحتياج في الاوساط العدلية لتحرير الجنسيات وتأثيرها على مرجع النظر وبعض المسائل المالية والاقتصادية والتجارية(١٢) .

٤ ـ اعداد الاحكام الشرعية في صياغة قانونية فنية مع المقابلة بين أحكام المذاهب الفقهية السائدة ضمن مواد متناضرة العدد والموضوع ، وخاصة في ماضي الاستحقاق والاحوال الشخصية بغرض تعصير المادة الفقهية وتيسير تناولها على قضاة المحاكم الشرعية وفق الارجح من المذهبين المالكي والحنفي ، وتمكين قاضي المذهب من التعرف على حكم المذهب الآخر من المدونة عند مطالبته بالحكم وفقه ، وبقصد بيان ملاءمة الأحكام الشرعية المنضبطة لمقتضيات العصر في المجالين الاجرائي والموضوعي ، وكنتيجة لذلك اسس قانون للمرافعات الشرعية ؛ ولائحة الأحكام

---

(١٢) يراجع التقرير الادبي لمجلس ودادية الحكام التونسيين لسنة ١٩٤٨ الذي اعده مستشار محكمة التعقيب السيد الصادق الجزيري والمنشور بنشرة القضاء التونسي لنفس السنة ص ١٠٧ وما بعدها .

الشرعية لمادتي الاستحقاق والأحوال الشخصيـة في المذهبين المالكـي والحنفي سنة ١٩٤٩ •

الفصل الخامس :

دور الحركة الدستورية في بلورة الاصلاح التشريعي

وقد تدعمت الحركة الوطنية بضهور الحزب الحر الدستوري سنـة ١٩٢٠ الذي كان يطالب بضرورة تفريق السـلط حتى أنه عبـر عن ذلك بواسطة رئيس الوفد الحزبي الذي مثل امام الباي في ٢٠ جوان ١٩٢٠ ضمن خطاب جاء فيه على الخصوص (ان الامة مجمعة الارادة على أن تكون مسيرة على ما كان آباؤها من قبل بدستور محرر يعلن ويضمـن الحقوق والحريات السياسية وفصل السلط عن بعضها) •

وما ان ظهرت جماعة الشبان الثوريين بزعامة الاستاذ الحبيب بورقيبة ضمن هيكل الحزب الدستوري حتى برزت معالم جديدة للحركة الوطنية اشد عمقا واصالة مما سبقها ، اتضحت ميزاتها الثورية الخاصة فيما نادت به ضمن جريدة صوت التونسي التي صدرت ابتداء من غرة اكتوبر ١٩٣٠ وجريدة العمل التونسي التي صدرت ابتداء من غرة نوفمبر ١٩٣٢ سواء كان ذلك قبل الانفصال او بعده ، من مقاومة سياسة الاوامر العلية وازالة امتيازات الاروبيين ، وتعميم التعليم ، ومنح التونسيين حق تولي المناصب الادارية ومقاومة حركة تعمير الاراضي ، والقضاء على نظـام الخماسة ، والدفاع عن حرية الصحافة وحرية الاجتماعات ، وحفظ العدلية التونسية باعتبارها المؤسسة الوحيدة التي سلمت من معول الحمايـة ، وضرورة احترام القانون واحترام الافراد الساهرين على تطبيقه ، ومواجهة كـل اعتداء صارخ على القضاء التونسي قد يهدف الى انتزاع صلاحياته[١٣] •

---

(١٣) يراجع كتاب (بورقيبة او مولد امة) لفيلكس قاراس ،تعريب عبد القادر المهيري ومن معه ، ص ٥٠ وما بعدها .

ثم لا تلبث هذه الجماعة ان تتساءل ، (لقد حررت فرنسا شعوب أروبا الوسطى فلم لا تحرر شعبا صديقا لها ، منح لها دماءه ، ان الآمال القومية لا تتحقق الا بفضل الشعب نفسه الذي ما أنفكت تخونه أقلية من ذوي الامتيازات اولائك الذين يلبسون ثياب الحرير المرصعة بالذهب والفضة)[١٤] وان تحتج على اتخاذ الفرنسيين لتونس كسوق لتجارتهم (يستوردون من ايطاليا الطماطم المصبرة بينما يبيع سكان الرأس الطيب بضاعتهم بأبخس الاثمان ، كما يستوردون التمر من مدينة البصرة ، بينما يتخبط أهل الجريد في فقر شديد ، وأقامت الزيوت المستوردة مقام زيت الزيتون ، واستوردت الاحذية من تشيكسلوفاكيا ، فاضطر الحذاؤون التونسيون الى البطالة ، اما البنوك فانها لا تمد بالاموال الا الأوروبيين ليشتروا بأثمان بخسة الشركات التونسية المشرفة على الافلاس ، كما يستوردون المصنوعات الأجنبية بأثمان بخسة لتنهار الصناعة التونسية ، ولن يعول على اعضاء المجلس الكبير لازالة الفساد اذ هم اناس ذوو عقلية بالية ، ديدنهم النفاق ، وغايتهم احتلال المناصب العالية ، بل يجب ان تنبثق قوى جديدة مثل قوى الطبقة الشغيلة وقوى الشباب)[١٥] .

وقد أعربت هذه الحركة عن تطلعاتها الجديدة في مناهج عملية مستحدثة : فتحولت عن مخاطبة القصر الملكي والسلط الحاكمة بمشاكلها وآمالها ، وتحولت بالدعوة الوطنية من مظهر التحكم والتردد ، وجاوزت حدود الشرعية الصورية التي اتخذت قيدا الارادة الامة ، الى بناء استراتيجية دقيقة شاملة تعتمد : الارادة الصلبة في توضيح الاهداف الاساسية للعمل الوطني ، وضبط خطة ثورية متطورة ومتفتحة له ، وبلورة الارادة الشعبية من خلال المساهمة في العمل الوطني ، وتوسيع

---

(١٤) يراجع العدد الاول من جريدة (صوت التونسي) الصادر في غرة اكتوبر ١٩٣٠ .

(١٥) يراجع العدد الاول من جريدة (العمل التونسي) الصادر في غرة نوفمبر ١٣٣٢ .

آفاق المفاهيم الوطنية وتعميق جذورها في مختلف الطبقات الشعبية ، وتحويل مناهج العمل بين يدي الشعب الى طاقة فعالة مؤمنة ومنضبطة بمبادئها السامية .

الأمر الذي اعطى ابعادا جديدة للعمل الوطني ، بحيث وجد فيه العامل والمزارع والمثقف التونسي أصالته ورسالته وآماله الكبرى بما جعل الحركة الوطنية قطب رحى مختلف الاهتمامات ومنارها ، تستوعب كافة مشاعر القلق والسخط والثورة لدى التونسيين ضد العبودية والتخلف والطغيان ، مما ساعد على تكوين الجامعة القومية وبروز معالمها من خلال نشاط كل الطاقات الحية في الامة ، وقضى على اسطورة التناقضات الطائفية والمعارضات القبلية التي كانت السلط الاستعمارية تستغلها لاثارة الفتن بين المجموعات الوطنية ، وكشف خطر استيعاب الدولة الحامية لارادتنافي التحرر عن طريق الصهر في المؤسسات المزدوجة، والتلويح بالامتيازات والمنافع الخاصة ، وترجم أحاسيس الامة ومثلها الطموحة في مبادىء اساسية واضحة ، تتمثل في المحافظة على مقوماتها الذاتية من لغة ودين وتاريخ وآمال ، وفي تحرير الارادة الوطنية من القيود الخارجية والداخلية التي تكبل مصيرها وتطمس اختياراتها التلقائية ، وفي تخليص الوطن من الاستعمار السياسي والتوطيني للدولة الغاصبة ، وفي تحقيق العدالة الاجتماعية والتحول الاقتصادي لعناصر الثروة القومية ، وفي تسخير دواليب الدولة وهياكلها الادارية والسياسية لبعث تطور اجتماعي وتربوي لكافة وحدات الامة .

وكان الحزب قد اعتمد في توضيح هذه الأهداف ، وتركيز الارادة القومية حولها اربعة مناهج :

١ ـ الاتصال المباشر بالمجموعات الوطنية في مواطن تمركزها ، ومشاركتها أحاسيسها واهتماماتها ، وتقييم أسباب ضعفها وتعاستها وخذلانها ، ومحاورتها حول مبادىء الحزب وطرائق الكفاح الوطني .

٢ ــ تركيز خلايا حزبية في مختلف مناطق البلاد تحقق استمرار العلاقة وحيوية المتابعة بين الحزب والمجموعات الوطنية •

٣ ــ تفاعل الاهداف الحزبية مع مشاعر الطبقات الكادحة والطبقة المثقفة ، وادمان منضماتهما في صلب الحركة الوطنية ، مما اكسبها قوة وامتدادا حيويا في شتى المصالح الادارية والاهلية •

٤ ــ اعتماد الوسائل الاعلامية لكشف الاعيب السلط الحاكمة بين يدي الرأي العام القومي وتوجيهه وطمأنة الجاليات الاجنبية والسلط الدولية بشرعية الكفاح الوطني •

وقد تبلورت معالم الذاتية القومية في النطاق الاصلاحي لدى القادة الوطنيين فشكلوها في جملة من الحلول نادى بها الحزب(١٦) وتبنتها المجموعات الوطنية كالاتحاد العام التونسي للشغل (الذي اقترن كفاحه بكفاح الحركة الوطنية فتعرض مناضلوه الى ما تعرض اليه الزعماء الوطنيون من اضطهاد ونفي في كفاحهم ضد الاستعمار ، ولم يتيسر للحركة النقابية ان تسترجع نشاطها الا بعيد الحرب العالمية الثانية على يد أحد ابنائها وهو المرحوم فرحات حشاد مؤسس الاتحاد العام التونسي للشغل ، والذي عرفته تونس وعرفه العالم لا كقائد نقابي فحسب بل كزعيم وطني امن بان لا حقوق للعمال التونسيين ولا كرامة لهم ما لم يعترف لوطنهم بحقه في السيادة والاستقلال) •

وتتمثل تلك المبادىء في المناداة :

١ ــ بضرورة تطوير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية بصفة شاملة تحقق للعمل الاصلاحي الاستمرار والعمق ، وتمكن من تحويل المشاعر الدينية الغزيرة الى طاقة فعالة لتدعيم مناهجنا الاصلاحية ونصرة

---

(١٦) تراجع مجموعة خطب الرئيس بورقيبة المنشورة من طرف وزارة الثقافة والاخبار •

قضايانا الوطنية ، وبان لا شيء يوفر اسباب القوة لأمة من الامم ان لم تستند لطاقات علمية وتقنية تكسبها (القيمة) وتحولها الى ثروة حية نافعة ، خاصة وان الاسلام الذي هو وحدة متماسكة بين شؤون الدنيا والدين ، ودين فكر وعمل لا يحول دون ذلك . ضرورة أنه حث على إعمال الرأي والاجتهاد في جميع الشؤون الدينية والدنيوية حتى تضمن لحياتنا إطراد التقدم والازدهار ونصون ديننا من التحجر والقصور عن استيعاب شؤون العصر والامة .

٢ ـ وبتركيز الاهتمام بالطاقات الشابة من المجتمع التونسي وتوفير الغذاء الفكري والعاطفي والمادي لها ، على اساس من الاصلاح والواقعية والشمول ، وذلك بمراجعة الدور التربوي للبيئات الثلاث في توجيه الشباب وتنشيط عوامل التكامل بينها ، وتدعيم الشعور فيه بالمسؤولية والأصالة والشخصية ، وتغيير المفاهيم الاجتماعية والآفاق الفكرية لديه ، وتأصيل القيم الأخلاقية والوطنية فيه ، وحمايته من التردي في مواطن الأحقاد والاغراض والشعارات والعواطف المشبوبة ، حتى تجد هذه الأمة من يحفظ مناعتها واستقرارها ، ويكبح جماح النزوات الشاذةفيها عندما تشتبه عليها السبل ، ولا يتم ذلك الا بتهذيب أداة التفكيرواصلاح الأسرة وتعميم الثقافة وتحسين مستوى اغلبية القوى الحية في الأمة ، وتنشيط دور منظمات الشباب في الاستيعاب والحيوية ، وتوخي الصرامة في إصلاح المجتمع عند الاقتضاء صيانة للأخلاق العامة من التدهور والتفسخ .

٣ ـ وبمواجهة المظالم الاجتماعية الناشئة عن اختلال الوظائف الاجتماعية للأفراد والمجموعات سواء كان ذلك على أساس العمل او الجنس او الثقافة او السكنى مما يحتم تغيير النظر الى دور المرأة في المجتمع ورفع المظالم التي كبلت طاقتها مئات السنين وذلك بتوعية المرأة وتعديل نظرة الرجل اليها ، والقيام بتقييم صحيح لحقوقها وواجباتها ،

وتخليصها من استبداد الوالدين وتعسف الزوج ومساعدتها على تحقيق شخصيتها في اختيار منهج الحياة الذي تريد ، دون ارهاق لها بالزيجات المبكرة من الغرباء او انجاب العدد الوفير من الأطفال أو حرمانها من العلم والثقافة وتكبيل ارادتها في خدمة المجتمع ومشاركة الرجل اهتماماته .

كما يتحتم تغيير النظر الى العامل والمزارع وتقدير دورهما في النهضة القومية . وتنمية الانتاج القومي ، واقرار حقوقهما الأساسية ازاء الممول وصاحب الارض ، ومساعدتهما بمختلف الخدمات الاجتماعية للرفع من مستواهما المهني والفكري والاجتماعي ، وفسح الفرص أمامهما لتحقيق فرحة الحياة لابنائهما .

٤ ــ بتركيز مقومات السيادة الوطنية واقرار هياكل اساسية وتنظيمية لنشاط دستوري يمنح الشعب فيه حق تقدير اختياراته ومتابعة سلطه وتشخيص سيادته من خلال مجلس برلماني منتخب وحكومة وطنية تمثل رغبات الشعب وآماله ، وقضاء وطني يبلور ارادة الامة في عدالة سليمة وأمن دائم وحق محمي ، ومجالس ادارية وانتخابية ذات اشعاع بلدي او قومي ، وتنظيمات ادارية تعمل لفائدة الشعب وتستجيب لحاجياته وتطلعاته وتشاريع اصيلة ناهضة ذات محتوى قومي سليم .

٥ ــ باقرار خطة قومية ذات مضمون اصلاحي تقوم على جملة من التدابير والمعطيات المالية والعلمية والبشرية لتحقيق مراجعة شاملة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة بالبلاد ، بما يمكن من تطوير الثروة القومية وتنمية طاقتها الانتاجية وتكييف وسائل ضبطها وتوزيعها واحكام مناهج استثمارها وصرفها ، وبما يساعد على رفع المستوى الثقافي للامة ، ونشر التعليم بين افرادها وتطوير العلاقات الأسرية والاجتماعية بينهم ، وتكييف حاجيات المواطن وتطعيمها بالوسائل الحضارية المتعددة ، وتوفير مواطن الشغل والاستقرار له وتحقيق الحماية الصحية والمهنية له ولأفراد عائلته .

وهكذا يتضح المنحى الجديد للحركة الوطنية التي لم تعد تطالب النظام القائم بتحقيق اهدافها الاصلاحية وفق المفاهيم القومية بل اتجهت الى البحث عن شرعية النظام نفسه ورفض وجوده الغير الشرعي مستهدفة بذلك تحقيق التحرر الوطني والثورة على الحكمين الاستعماري والملكي ، والسمو بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادي الى اسمى معطياته الوطنية والانسانية .

وان لم يتح لهذه الحركة أن تؤثر على نحو بارز في السير التشريعي للنظام القديم فانها لم تلبث عندما مسكت بزمام الحكم في الدولة التونسية المتحررة أن أخصبت النشاط التشريعي بمجموعة من الولائد التي تنظم جوانب الحياة السياسية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية المواطن التونسي على نحو يتسم بالشمول ويحرص على تحقيق مميزات الذاتية القومية من خلال الأهداف الأصلاحية التي يسعى اليها التشريع القومي والتي انعكست على مجموعة التشاريع الوطنية للارادة عقب تحرر الارادة الوطنية من التحكم الاستعماري في ٢٠ مارس ١٩٥٦ بغرض :

أ ــ تونسة التشريع السائد وتوسيع مشمولاته .

ب ــ تكييف القوانين الجارية بالمعطيات الجديدة للمجتمع التونسي في الميدان السياسي والاقتصادي والاجتماعي على نحو يحقق لها الفعالية والاصلاح .

ج ــ تقنين المواد التي لم يشملها التقنين السابق تيسيرا لمهمة القاضي والمتقاضين .

د ــ توطيد أواصر الصداقة والتعاون بين تونس والبلدان الأجنبية عن طريق تنشيط الاتفاقيات القضائية معها .

هـ ــ توحيد المحاكم وتقريب القضاء من المتقاضين واكساء عمله

طابعا عصريا مرنا[١٧] .

وقد برز ذلك على الخصوص جملة من التشاريع الاساسية التي تهم حالة الاشخاص المدنية وتنظيم العلاقات الأسرية ومراجعة الوضعية العقارية بالبلاد عن طريق الغاء الأحباس واجبارية المسح العقاري واعادة النظر في أحكام الاستحقاق ، وتنظيم الهيكل القضائي وأجهزته المختلفة من محاكم ومحاماة واشهاد وتنفيذ ، وتنظيم علاقة الدولة بمواطنيها ، وتدعيم النشاط الاقتصادي عن طريق ضمان حق العامل وحمايته من فواجع الشغل وتنظيم علاقة التجار بغيرهم سواء كان ذلك في النطاق الوطني او في النطاق الدولي عن طريق مجلة التجارة ومجلة التجارة البحرية الى غير ذلك مما احتوته مجموعة التشريع التونسي الحديث من قوانين متعددة وهامة تحيط بجوانب نشاط المواطن التونسي في الداخل والخارج ضبطا واحكاما والتي ما زال البعض منها الى الآن قيد المراجعة والتقييم من طرف اللجان الفنية المنكبة على دراستها واعداد المشاريع المختلفة لتعديلها او الغائها وتعويضها بمشاريع اوفر مادة وأدق محتوى .

ويمكن تتبع تأثير الحركة الوطنية على تطور التشريع التونسي وتواكبهما عبر المراحل التاريخية الحديثة للأمة التونسية في مجال الأحوال الشخصية مثلا ، كما يظهر ذلك من الاستعراض التالي :

الفصل السادس :

أ ـ الأحوال الشخصية في عهد الحماية :

لذلك كان تقنين الأحوال الشخصية بتونس نتيجة اختيار ضروري أملته الظروف المصيرية لتقدم الامة وحتمية اقرار العدالة الاجتماعية بين أفرادها واعتبار المحيط الحضاري والدولي للانسان التونسي الجديد ،

---

(١٧) يراجع مجلد القضاء بعد عشر سنوات الصادر عن وزارة العدل لسنة ١٩٦٦ .

فقد كانت تتنازع تـونس سنة ١٩٥٦ جملـة من الظواهـر المتناقضـة الاتجاهات فمن الناحية القضائية بقي المشرع التونسي حتى ذلك التاريخ وعلى الرغم من دعوات ومشاريع اصلاح الاسرة التـي نادى بها دعـاة التحرر ، مغلول اليد بالمصالح الاستعمارية التي عملت على عرقلـة تطور الامة وتفتحها ، وبالاعتبارات الطائفية والدينيـة التي اكدت علـى مزج مصالحها الخاصة بالاصالةالقومية من خلال تمسكها بالتنظيمات الاجرائية، والاحكام الاصلية للأحوال الشخصية ، تلك الأحوال التي كانت تسـود طوائف ونحل المواطنين التونسيينعلى الرغم مما أصاب أحكامها منتشتت في الصلاحية وتناقض في الحلول الشرعية •

اذ كانت هناك ثلاثة انواع من محاكم الأحوال الشخصية :

- محاكم شرعيـة •
- محاكم يهوديـة •
- محاكم فرنسيـة •

فأما المحاكم الشرعية فقد كانت تبت في قضايا الأحوال الشخصيـة للمسلمين من المواطنين التونسيينوفق الأحكام الاسلامية المنبثة فيمضانها من مصادر الفقه ومراجعه ، إلا أن اختلاف المذاهب المعمول بهـا ، وتعدد آراء الفقهاء حتى في الجزئية الواحدة منها ، جعل الأحكام الفقهية غير معلومة لدى المتقاضين • بالاضافة الى حيـرة القاضي في اختيار الاوجه منها رغم جريان العمل بالتنصيصفي أمر توليته على ضرورة الأخذبمشهور المذهب ، ومع ذلك فقد ساد الخلاف بين القضاة في تقدير الأرجح الـى درجة اضطرت الباي في بعض القضايا الى اصدار امـره بالقضاء فيهـا بمذهب دون آخر ولو كان مستنده الفقهيمرجوحا أو ضعيفا وذلك ضمن شبه قانون يصدر عنه ولا ينشر بالجريدة الرسمية يسمى (بالمعروض) ، وكانت المحاكم الشرعية تتخذ شكل المحاكم الفردية بالمـدن الصغيرة ، وشكلالمحاكم المجلسية بالمدنالكبيرة مع محكمة عليا بالعاصمة تتركب من

غرفتين تختص احداهما بتطبيق المذهب الحنفي وتختص الاخرى بتطبيق المذهب المالكي ، وللطالب اختيار التقاضي على أحد المذهبين . كما للمطلوب اختيار نقل الدعوى للغرفة الثانية مما يضطر قاضي التعهد الافتتاحي الى صرف الدعوى لتلك الغرفة نزولا عند رغبة المطلوب مما يؤدي الى بطء في القضاء وتبدد في الثروات وتصدع في العائلة ، الأمر الذي اضطر المشرع الى اصدار قانونين لتحديد الاختصاص الشخصي والاختصاص الموضوعي لهذه المحاكم ، صدر أولها في ٢ سبتمبر ١٩٤٨ وقضى الفصل الثاني منه بأن قضايا الأحوال الشخصية والمواريث التي تنظر فيها المحاكم الشرعية هي التي تكون بين المسلمين اللذين ليسوا برعايا ولا محتمين بدول غير اسلامية ، او بين تونسيين مسلمين وغيرهم في النزاعات المتعلقة بمواريث الرعايا التونسيين المسلمين أما القضايا الاستحقاقية فتنظر فيها سواء كانت بين الرعايا او بينهم وبين غيرهم ممن ليسوا برعايا . فاذا كانت بين رعايا دول غير اسلامية فلا تنظر فيها .

وأما القانون الثاني فقد صدر في ٢٣ سبتمبر ١٩٤٨ وقضى بتخصيص الغرفة المالكية بالنظر في قضايا الطلاق بالاعسار او بموجب الضرورة وصحة التبرع في المشاع ، والوصية للمعدوم وتخصيص الغرفة الحنفية بالنظر في شفعه الجوار واجبار الاب ابنته البكر البالغة على الزواج ، وصحة الوقف على النفس ، ويبقى حق الخيار للمطلوب في غير هذه الدعاوي ساري المفعول ، وان هذا الموقف نتيجة لدعوات الاصلاح الاجتماعي التي ظهرت بالعالم الاسلامي عامة ونادت بالنظر في بناء الأسرة الاسلامية وإحاطتها بضامانات الاستقرار والتطور وذلك بسبك أحكامها بما يلائم العصر صيغة ومضمونا ضمن مدونات قانونية مستقلة تشمل بالنظر كافة متساكني الدول الاسلامية .

وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى طلائع المثقفين التونسيين اللذين عهدوا سنة ١٩٤٣ الى العلامة الشيخ عبد العزيز جعيط بتأليف مجلة

الأحوال الشرعية وتهيئة عناصرها وتحرير فصولها وعرضها على لجنة فنية منتخبة من كبار الحكام والمحامين وأساتذة القانون لتدارسها وابداء الرأي فيها ، وبعد اعداد الشيخ للمشروع وفحص اللجنة[18] له ومصادقتها عليه تداولته الايدي وعملت لأسباب شتى على وضع العراقيل المتنوعة دون إبرازه لحيز الوجود ، الى أن كان الاهتمام به من جديد سنة ١٩٥٦ كمصدر أساسي وتفسيري لمجلة الأحوال الشخصية موضوع حديثنا هذا .

أما محكمة الطائفة اليهودية القارة بتونس فقد كانت تنظر في كل ما يهم الأحوال الشخصية لليهود وفق احكام الشريعة الموسوية يستمدها الحبر من كتب الأصول دون تقيد باجراءات معينة أو تعريف بمصادر الحكم ، وإن كان ملزما باتباع اجراءات التوثيق الوارد بها أمر ٢٨جوان ١٩٣٨ في خصوص المسائل الزوجية والتبرعات بين اليهود ، وقد استمرت هذه المحكمة في عملها الى أن ألغيت في مفتتح عهد الاستقلال بقانون ٢٧ سبتمبر ١٩٥٧ .

وأخيرا المحاكم الفرنسية التي كانت تشمل بنظرها مستوطني البلاد من الأجانب غير التونسيين وتجري في ضبط أحوالهم الشخصية القواعد والاجراءات المقررة بالقانون الفرنسي ، وقد ألغيت هذه المحاكم في فاتح جويلية ١٩٥٧ بمقتضى الاتفاقية المبرمة في ٩ مارس ١٩٥٧ بين الدولتين التونسية والفرنسية .

ب ـ مواطن الاصلاح في التشريع الشخصي الجديد ودواعيه : وقد وجدت هذه الدعوة للاصلاح صداها لدى المشرعين الاصلاحيين الذين واكبوا فترة التحرر السياسي في المجتمع العربي فانصرفوا الى اعادة صياغة أحكام الأحوال الشخصية في قوانين منفردة تتسم بسهولة المصطلح

---

(١٨) يراجع بحث (أحكام الزواج المستحدثة بالتشريع التونسي) لمحرر البحث المنشور بمجلة الحق التي صدرت عن اتحاد المحامين العرب لسنة ١٩٧٤ .

وايجاز العبارة ، ونقاوة مادتها من الاستهجان والاعجام ، وبتناول الكليات والمسائل العامة دون الفروع والجزئيات التي طفحت بها المصادر الفقهية في انتظار من يجلوها بالسبر والنظر من رجال القضاء والفقه ، كما تتسم بتطعيم الأحكام الشرعية ببعض المبادىء القانونية العامة التي تقتضيها ظروف الحياة المعاصرة دون ان تنافي الشريعة أو تعطل أحكامها ، وباجراء بعض القواعد الشرعية على وجه اللزوم بعد ان كانت على وجه الاباحة رعاية للمصلحة العامة : وفي حدود ما تقتضيه المبادىء الأصولية للفقه الاسلامي • ففي تونس مثلا جرى تشريع الأحوال الشخصية على هذا النحو الاصلاحي من الشكل والمضمون الذي برز على الخصوص في :

منح المرأة حق التطليق انشاء •

وفي عدم اجبار الزوجة على مساكنة زوجها •

وفي منع تعدد الزوجات سواء على الصيغة القانونية او غيرها •

وفي تحديد اقصى امد الحمل بعام واحد •

وفي تحديد سن الرشد القانوني للرجل والمرأة بعشرين سنة •

وفي تحديد سن أدنى للزواج بسبعة عشر عاما للمرأة وبعشرين سنة للرجل الا اذا كانت هنالك ضرورة متأكدة بالنسبة للمرأة ، وذلك اعتبارا لما يستلزمه البناء الأسري من نضج عقلي وعاطفي لا يظن حصوله فيمن لم يبلغ تلك السن المذكورة ، فضلا عما ينجر عن الزواج المبكر من ارهاق للطاقة المادية والبدنية للعائلة بسبب تكاثر الاطفال الذين تعجز العائلة والمجتمع عن استيعابهم وتوفير حاجياتهم التربوية والصحية في العصر الحديث •

وفي اقرار نظام التبني لتحقيق التربية والعطف العائلي للمتشردين والأبناء الطبيعيين •

وفي تعميم قواعد الارث الواردة بمجلة الأحوال الشخصية على مختلف المتساكنين .

وفي اقرار مبدأ الرد في الميراث عند فقد العصبة .

وفي اعتبار مبدأ شخصية القوانين بالنسبة للاجانب واخضاع أحوالهم الشخصية لقانونهم الوطني .

كما برزت مظاهر هذا الاصلاح من ناحيتي التنظيم القضائي ومراجع النظر الحكمي في الحاق القضاء الشرعي بالقضاء العدلي وجعلهما قضاءا وطنيا موحدا في هيكل واحد ونسق واحد ينسجم مع مقتضيات التنظيم القضائي المقارن ، ويحقق العدالة ويقربها لجميع الافراد ، ويركزها على اسس متينة سليمة ويخضع كافة المواطنين التونسيين لنظر المحاكم الوطنية وقواعد الاحوال الشخصية الواردة بأمر ٣ اوت ١٩٥٦ بعد ان الغيت محكمة اليهود بقانون سبتمبر ٥٧ مما حقق للقضاء التونسي السيادة والاستقلال على الوجه الاكمل في ادق صلاحياته الوطنية ، وهكذا ينضح من استقراء الحلول المستحدثة التي انتهجها المشرع التونسي وسيرها . ان الاصلاح كان يرمي لتحقيق جملة من الغايات الأساسية للنهوض بالمجتمع، يمكن تعيينها في :

تحديد النسل

استقرار العائلة وتطويرها

ضمان حقوق المرأة

رعاية القصر

الارتباط بمناهج الحضارة القومية

توحيد قانون الاسرة .

وتبرز هذه المقاصد الشرعية على نحو اوضح عند تحليل التعديلات الجديدة واستقصاء اثرها في كل حالة من حالات الأشخاص كما يتضح ذلك بالنسبة لحالة الزواج أو الطلاق او النفقة مثلا (١٩) .

(١٩) لمزيد الدرس والتحليل يراجع بحث الكاتب حول (احكام الزواج المستحدثة بالتشريع التونسي) المنشور بمجلة الحق الصادرة عن اتحاد المحامين العرب سنة ١٩٧٣ .

أهداف الدعوة الاسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الاسلامي منذ عصر مبكر

بقلم الدكتور موسى لقبال
رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الجزائر

لم يكن للدعوة الاسماعيلية التي انتشرت من دار الهجرة في سلمية ، الى الآفاق البعيدة في المشرق ، وفي المغرب هدف مباشر ، ونهائي في دار الاسلام ، غير اسقاط نظام الخلافة العباسية ، واحلال الخلافة العلوية محلها ، احياء لمجد العلويين في المشرق ، وانصافا لهم من العباسيين « المغتصبين »(١) وتحقيقا لمبدأ وحدة الخلافة الاسلامية .

ولما كان هذا الهدف لا يتحقق الا في ظل نظام سياسي علوي قار ، يكون في منطقة ما من بلاد المشرق أو في اقليم وثيق الصلة بها ، مثل مصر ، فقد اتجهت العناية . في المرحلة الاولى من التوسع ، على حساب العباسيين ، لتحقيق الهدف ، نحو تأسيس أنظمة سياسية في الاطراف ، حيث تكون هذه بعيدة عن مركز الثقل العباسي ، وحيث يتوفر الامن ، ويوجد استعداد من السكان الذين كانوا يميلون الى تأييد دعوى العلويين بدافع حبهم لآل البيت . وكانت هذه الخطة متقنة وحكيمة ، لان الفاطميين، استغلوا الأوضاع المختلفة ، في المناطق البعيدة ، في التمكين لأنفسهم ، ولحركتهم ، وفي الاعداد ، وفي التهيئة المعنوية ، والمادية ، قصد التسرب الى المناطق الأخرى المجاورة ، تدريجيا . كل ذلك في اطار الاحتراز من الاحتمالات السيئة والمفاجآت غير السارة .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢ ، ص ٥٣ – س ٣ ط ١٩٧١ .

ومن ثم لم يكن رجال الدعوة الاسماعيلية منذ البدء ، راغبين في استقرار الدولة الفاطمية باليمن ، لقفرها ، وتطرفها ، حتى لو نجحت هجرة المهدي اليها واعلن منها الدولة العلوية ، كما لم يفكر أي خليفة من الخلفاء الفاطميين في الاستقرار نهائيا في بلاد المغرب ، رغم أهمية موقعه ، وغناه، وسعة مجالاته ، وتفتح أراضيه ، على عالم البحر المتوسط ، وافريقيا ، والارض الكبيرة ، وانما كان الفاطميون يعدون ليوم العودة الى بيئتهم الشرقية التي غادروها ، مضطرين ، وفي المشرق ، أنصارهم ومؤيدوهم ودعاتهم المنتشرون في الجزائر المختلفة ومنها مصر ، وباقي أراضي الخلافة العباسية .

ومن ثم لم يكن للفاطميين خطة أخرى ، ثم حملهم عداء المالكية، وثورات زناتة ، وفشلهم في حكم بلاد المغرب ، وبعدهم عن المشرق ،على تغييرها ، لان الوجهة المشرقية للحركة الاسماعيلية ، ظهرت منذ عصر مبكر ، على لسان المهدي قبل دخوله أرض مصر أثناء فراره الى بلاد المغرب فقد خاطب احد ولاة مدينة الرملة المتشيعين ، الذي خشى عليه من رقباء العباسين في الطريق ، بقوله « طب نفسا ، وقر عينا ، فوالذي نفسي بيده ، لاوصلوا الي أبدا ، ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس ، ولتدوسن خيولي بطونهم[٢] » ومثل هذا القول ، لا يدل إلا على وجود خطة ثابتة ضد العباسيين في المشرق ، كان من المفروض لها فيما يبدو ، أن تنفذ من سلمية ، لولا انكشاف أمر الحركة للعباسيين ، وكانت « هجرة » المهدي الى المغرب ، مفاجأة مذهلة لأخلص رجاله ، وأكبر دعاته ، لأنهم كانوا على علم بالخطة الأصلية وبأهداف الحركة الاسماعيلية ، ولم يكن في نيتها فيما يبدو ، اعلان الامامة العلوية ، في أقصى دار الاسلام ، أي في بلاد المغرب .

وتصرفات المهدي ، بعد اعلان الخلافة الفاطمية في رقادة ، وارساله

---

(٢) اليماني : سيرة جعفر ١١٢ .

الحملات ضد برقة ، ومصر أكثر من مرة ، ومجازفته بحياة ابنه ابي القاسم في ميادين بعيدة عنه ، كانت التزاما بالخطة الاصلية[٣] .

وكان رد المهدي على ابنه ، الذي تـــردد ، وخاطب أبــاه « يا أمير المؤمنيين قد خولك الله ، وملكك من الدنيا مافيه سعة وكفاية ، فعــلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك . دع هذا حتى يأتـــي اليه بــه عفوا » ردا جازما ، وعمليا فقد قبض يده اليسرى ، وقال : نعم هذا المغرب في قبضتي هذه وبسط اليمين وقال ، ولكن كفي هذه من المشرق صفر ، ان ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسي[٤] .

ومثل هذا الرد لا يدل الا على الاصرار على مضايقــة العباسيين ، وعلى الرغبة في تعبيد طريق المشرق لمن يأتي بعده ، رغم أنه كـــان يعلم ، أنه ينطلق من قواعد غير مستقرة ، الى مناطق يسودها الأمن والاستقرار ، في ظل ولاة مصر العباسيين ، وأن الخلافة العباسية في هذه الفترة علــى جانب كبير من القــوة ، تمكنها من الاحتفــاظ بأراضيها ، ورد الأخطار عنها .[٥] ولم يشأ ابنه أن يشذ عن الاتجاه العام ، فاستجاب لرغبة ابيه ، رغم اقتناعه بعدم جدوى العمل في هذا الوقت وناضــل ضــد ولاة العباسيين في مصر ، بالقلم ، وبالسيف ، ولقي الهزائم المنكرة ، وقوبــل بالسخرية[٦] ، وعير من طرف السكان[٧] ، وكان المهدى ، يقابل كل ذلك

---

(٣) وقد عبر بعض الباحثين عن بعض أهداف الفاطميين بقوله : فتح مصر كان هدفا رئيسيا Objetif Principal انظر : Huaht : Cl Histoire des Arabes T 1 P 340

(٤) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١٩ ـ ٢٠ وقدكان رد أبي القاسم على أبيه « بل أنفذ لما امرت به يا امير المؤمنين واسارع اليه» .

(٥) نفسه وقد عبر المعز لدين عن نشاط المهدي ضد مصر بقوله « علم المهدي انه لا يصل الى ذلك لكنه أحب الا يضيع الحزم » .

(٦) المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ٦٩ ، ومن فرط تأثره لهجو الصولي وتجريحه له قال « والله لا ازال حتى املك صدر الطائر ورأسه أن قدرت والا أهلك دونه» ، ومن هذا القول تتضح الأهداف البعيدة للدعوة الاسماعيلية .

بعدم الاكتراث ، لأنه مقيد بخطة قديمة بانت ملامحها في بلاد المغـرب في أول صلاة جمعة دعي له فيها بأمرة المؤمنين « اللهم فانصره على اعدائك المارقين ، وافتح له مشارق الارض ، ومغاربها كما وعدته ، وايده علـى العصاة الضالين[8] • واهتمـام المهدي وخلفائه باقليم برقة يدخل فـي اطار السياسة الشرقية للخلافة الفاطمية • ومن برقـة ، انطلقت البعوث الاستطلاعية ،ضد حدود مصر ، والحملات العسكرية البرية والبحريةلضم اراضيها في الجنوب ، وفي الشمال ، واليها التجـأت العناصر المواليـة للفاطميين ، أو الثائرة ضد ولاة العباسيين ، في مصر •

وأهمية قاعدة برقة ، باب مصر ، في الاستراتيجية الفاطميـة للنضال ضد العباسيين في المشرق تماثلها أهمية قاعدتـي فاس وطنجـة ، باب الأندلس ، للنيل من الأمويين ، ثم صقلية ، وقلورية باب أوربا ، للنشاط الثغري ضد البيزنطيين • وبينما فشلت قواعد فاس ، وطنجة ، وصقلية ، وقلورية ، على المدى البعيد ، في أداء مهمتها نجحت قاعدة برقة في أداء دورها كاملا غير منقوص •

ولم يرث القائم بأمر الله عن ابيه ، لقب الخلافة فقط ، بـل أصبح ملتزما بنفس سياسته واتجاهاته الشرقية ، وباقلاق راحة العباسيين مـن مركزهم في مصر ، غير انه ــ بعد أن خبر ميدان الحرب في الجبهةالمصرية، كان يميل ايضا لاستخدام اساليب السياسية والدعوة الهادئة لكسب ولاء مصر[9] ، وجلب ولاتها الاخشيديين للاعتـراف بالسيادة الفاطميـة ، والتعاون مع الفاطميين جيرانهم في المغرب ، ولذلك أرسل الى محمد بن

---

(٧) ابن عذارى البيان ١ ، ٢٦٠ س ١٨ .

(٨) ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان ١ ، ١٢٢ .

(٩) وقـد شغله عن مصر ، اضطراب وضع بلاد المغـرب ، ودسائس الأمويين : انظر ماجد ظهور خلافة الفاطميين ٩٨ ــ ١٠٠ .

طغج الاخشيد الذي انزل هزيمة منكسرة من قبل برجاله ، يطلب منه الاعتراف بالولاء للفاطميين بوصفه تابعا وحليفا ، او جارا صديقا ، ايثار لجانب السلم ، بين الجيران ، واشاعة لروح المودة والألفة ، والتعاون بينهم ضد الاخطار . ولم ينس أن يهون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين باعتبار ان الولاء لهم أصبح عادة تقليدية قديمة،فضلا عن كونهم لايقدرون قيمة المخلصين من رجالهم ولقد تضمنت الرقعة التي كتبها القائم بأمر الله بخطه ولم يطلع عليها أحدا قوله يخاطب الأخشيد « وأنا أعلم ان طول العادة في طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فانني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك تسكن اليه في أمرك وتعول بمثل ذلك ، واذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطؤ لك وقبول الميسور منك ، انما هو الرغبة فيك ، وانت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته[١٠] .

ورغم ان الاخشيد ، تأثر بمضمون الرسالة ، الا أنه كان بعيد النظر، عندما لم يسارع بالاجابة عنها ، واعتذر بأنه أمي ، ومن الصعب عليه نظرا لعلاقاته الخاصة بالعباسيين ، أن يبوح بسر خطير ، لأي كاتب من كتابه[١١] ،قد يستغله ضده ، وترك نفسه حر التصرف،يتأمل ابعادالمشروع الجديد ، ومكاسبه ، ويبدو أنه مال في فترة مامن صفاء ذهنه ، الى البقاء على موقف التحفظ ، لان ارتباطه بالعباسيين يتيح له قدرا كبيرا من الاستقلال بالتدبير ، أما عندما طلع نجم محمد بن رائق الخزري وقلده

---

(١٠) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ١ ، ١٧٥ وما بعدها وعن قصائد القائم ومكاتباته لاهل مصر ليخذلهم عن التبعية للعباسيين ، انظر عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ٤١ ، ٤٣ ومن ضمنها مارد به الصولي على القائم بأمر الله .

(١١) نفسه ١ ، ١٧٦ ، عاشور : مصر في العصور الوسطى ١٨٩ .

الراضي الخليفة العباسي ولاية الشام التي تعتبر امتداد النفوذالاخشيديين ومجالا حيويا لتوسعهم فانه هم بقطع الصلة مع الخلافة العباسية ؛ واعلان الخطبة للخليفة القائم بأمر الله الفاطمي(١٢) ، لو أن رجاله نصحوه بالعدول عن تنفيذ هذا الاتجاه الخطير ، الذي سيزيد ، بدون شك من غضب العباسيين ، ويعلي شأن خصمه ابن رائق ، الذي قد ينقلب الى بطل انقاذ قد يرمي به في ميدان مصر الثائرة ضد السلطة الشرعية في بغداد(١٣) واذا كان الاخشيد قد استجاب لرأي المخلصين من نصحائه فأبقي على الرباط الشكلي مع العباسيين ،واحتفظ باستقلاله عن الفاطميين فانه استجاب الى حد ما ، للعرض الثاني الذي تضمنته رسالة الخليفة الفاطمي ، حيث اقترح في رده على القائم ، أن يقبل الأخير زواج ابنه ، وحجته ولي عهد المسلمين أبي طاهر اسماعيل بابنته ، فاستجاب القائم بأمر الله وحبذ الفكرة على أساس انها تتيح فرصة لربط المغرب ، بمصر ، عن طريق المصاهرة ، التي تتضمن الحلف والتبعية في نظره ولذلك نلاحظ أنه عندما انطلق بالفكرة ، الى أبعادها السياسية وأرسل الى الاخشيد يقول له « وصل كتابك وقد قبلنا مابذلت ، وهي وديعة لنا عندك ، وقد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة الف دينار فوصل ذلك اليها »(١٤) . لم يرتح لمضمون الرد ، الذي انبى على أساس تبعيته للفاطميين ، وكان ينتظر من الخليفة القائم ، ان يقبل مشروع الزواج ، تشريفا له ، وطريقا

---

(١٢) نفسه س ٤ وقد عبر عن موقفه بقوله « قد تأذيت بالراضي ، وبهذا الصبي ابن رائق ، وقد أمرت الخطيب أن يدعو لابي القاسم صاحب المغرب » .

(١٣) نفسه ١ ، ١٧٧ ، س ١٦ ــ ١٧ وقد قالوا للاخشيد « لانك اذا عملت هذا كاتبه من مصر ، من يكره هذا ، وكتب بذلك الى العراق فان كان الراضي لم يقلده قلده ، وانفذ اليه الاموال والعساكر ، وصيرت له شيعة وخاصة ولكن دع هذا الى وقت آخر » .

(١٤)ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١ ، ١٧٧ .

للمصافاة بين البلدين ، وان يهادية باموال ، وألطاف كثيرة ، نظير هذا العرض السخي ليفاخر بها ويزايد امام بعض خصومه ، وليشعر الخليفة العباسي بأهمية مركزه ، وعظمته ، وقوته ، فلا يبالغ في اضفاء كل الأهمية على خصمه محمد بن رائق .

وما دام الامر لم يتم مع القائم بأمر الله ، كما توقعه الاخشيد ، مكسبا ماديا وأدبيا ، فانه بقي على تحفظه ، ووضعه القديم واليامستكفيا من طرف العباسيين(١٥) .

وكان يمكن للخليفة المنصور أن يواصل العمل ، في نفس الخط الذي رسمه أبوه ، وجده ، نضالا بالقلم ، وبالسيف ، في سبيل نشر الدعوة ، وتنفيذ مشاريع الدولة ، واعلاء كلمتها في المشرق العباسي ، لولا التياث أمر بلاد المغرب(١٦) بسبب ثورة أي يزيد وابنه فضل وانتفاض محمد بن خزر ، واضطراب أوضاع صقلية ، وعندما تغلب على معظم هذه المشاكل(١٧) ، لم يمتد به أجله ، ومع ذلك فان أهتمامه بارجاع الحجر الاسود الى مكانه ، أكسب خلفاء الفاطميين سمعة في الشرق ، فتعاطف معهم جمهور غفير من سكانه ، وكان خير وسيلة للأبانة عن أهميتهم «للابقاء على سلامة المقدسات الاسلامية» بعيدا عن أيدي المغامرين حتى ولو كانوا من بين الاسماعيلية ، وقد أوصى ابنه وحجته المعز لدين الله ، بالاهتمام بأمر مصر ، والشرق ، تنفيذ الوصية جده القائم(١٨)

---

(١٥) وبموت الخليفة الراضي ٣٢٩ هـ : وموت محمد بن رائق ، صفا الجو السياسي للاخشيد ، وخلصت له ولاية مصر وبلاد الشام انظر ابن سعيد المصدر السابق ١ ، ١٧٩ .

(١٦) ماجد ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها : ٩٨ ـ ١٠٠ .

(١٧) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩١ ويشير الى أن المنصور الفاطمي ، يشبه في الحزم وتصفية المشاكل ، سميه ابا جعفر المنصور العباسي .

(١٨) نفسه ١ ، ٦٩ .

وباشراف المعزلدين الله ، ثم تنفيذ الخطة الاصلية للحركة الاسماعيلية ضد العباسيين في المشرق .

وقد كان هذا الخليفة أوفر خلفاء الفاطميين نشاطا في العمل ضد العباسيين ، فلم يقتصر على ميدان الدعوة ، وارسال الدعاة لتخذيل رعاياهم ، واستفساد ولاتهم ، وتمهيد نفوسهم لقبول التشيع أو الولاء للخلافة الفاطمية ، بل أرسل الجيوش لنجدة سكان جزيرة اقريطس التابعين لهم ، كي يظهرهم على حقيقتهم عاجزين عن حماية الاسلام ، او عن فرض هيبتهم على بعض ولاتهم في مصر الذين تباطأوا في نجدة سكان الجزيرة وعندما استقبل رسول ملك الروم ، في المنصورية ، أوعز اليه بسر خطير « لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها »[١٩] .

وتركزت خطته لتحقيق هذه الغاية ،على التمهيد الكامل لذلك ، في بيئة المغرب ، بحشد القوى وتربية جيل جديد من كتامة وصنهاجة يكون جديرا بأن يمثل رجاله الدور الايجابي في المشرق ، نظير ما فعله أسلافهم في بيئة المغرب . أما التمهيد لذلك في بيئة المشرق ، فيكون بمتابعة نشاط الدعاة ، وتسقط أخبارهم ، والاعتماد على الماهرين منهم في اكتساب ثقة ولاة مصر الاخشيديين ومن هؤلاء ابو جعفر ابن نصر الذي أثر على أحمد بن علي بن طغج ، وحوله الى المذهب الشيعي ، وحمله على مكاتبة المعزلدين الله بعد أن صوره امامه بشابة والدرحيم ، سوف يخفف عنه مشقات الحكم وعبث الجند[٢٠] ، وبواسطة هذا الداعي وغيره

(١٩) نفسه ١ ، ٢٢٦ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨ ، ٢٣٩ — ٢٤٠ . وعندما عاد اليه هذا الرسول بعد انتقاله الى القاهرة : قال له : لتدخلن علي بغداد وانا خليفة .

(٢٠) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ١١ ورقة ٢٤ ، خ دار الكتب رقم ٥٥١ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٤ ، ٧٣ . كامل حسين : في أدب عصر الفاطمية ١٦ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ١٣٩ وقد أصبح ابو جعفر ، من بين المقربين الى المعز لدين الله ، ومن مرافقيه .

كان يعرف المعزلدين الله ، سير الأوضاع في مصر وعن بعض مكاتباتهم ، وردوده عنهم تحدث الى شيوخ كتامة بقوله « واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق ، والمغرب أجيب عليها بخطى[٢١] •

وفي أكثر من مرة ، كان يشرح أمام شيوخ كتامة ما يعلقه عليهم من آمال في ميدان مصر والمشرق بعد أن تحقق الشيء الكثير على أيـدي أسلافهم في المغرب • « واعلموا أنكم اذا لزمتم ما أمرتكم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم[٢٢] •

وشعوره بأن التعبئة المادية ، والمعنوية لم تكتمل بعد ، لم يستجب لرغبة دعاته في المشرق ، بأن ينتقل بسرعة الى مصر لتطـور الأوضـاع في صالح الحركة الاسماعيلية « اننا لم نتخلف عن ذلك الا انتظارا للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها ، ولو حضرت ما تخلفنا » • وكي يوضـح أمامهم أن التأخر لحكمة ، وأن الانتقال الى مصر هدف أساسي الحركـة الاسماعيلية ، ذكرهم بالسابقة التاريخية التي ارتبطت بالمهدي جد الخلفاء الفاطميين تعبيرا عن وجوده السياسي ، وبأنه وإن لم ينجح ـ هو صاحب حق شرعي في هذه البلاد ، وذلك ما أصبح تقليدا متبعا بالنسبة لخلفائه، وأمانة موروثه عنه[٢٣] •

وعندما شعر المعزلدين الله بأنه أصبح في مركز قوة ، بعد اكتمـال الاستعدادات المادية ، والمعنوية ، افتعل حادثة الجارية التي قيـل أن أم

---

(٢١) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٥ •

(٢٢) نفسه ١ ، ٩٦ •

(٢٣) المجالس السايرات ٢ ورقة ٤٧٤ وما بعدها ، اما النعمان فقد عبر عن الوضع قبيل فتح مصر بقوله « ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق ... الا انه لم ير العزم في أمره فاما لو عزم على ذلك ما حال دونه حائل » .

الأمراء ، (زوجة المعز) وجهتها من المغرب ، لتباع في مصر ، فاشترتها امرأة مثلها هي بنت الاخشيد ، لتتمتع بها ، وقد كانت هذه الحادثة ، محور الحديث دعائي قوي شنع فيه على ولاة مصر ، ونظام العباسيين ، وعلى المجتمع المصري ، امام جمع من شيوخ كتامة وقادتها ، وقد ختمه بقوله « يا اخواننا انهضوا اليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء ، واذا كان قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم »(٢٤) .

وهذا الاسلوب الدعائي الملتهب ، كان جزءا من خطة كاملة ، غايتها التمهيد لغزو مصر ولانتقال الخلافة الفاطمية اليها ، اما الوسيلة ، فكانت التشهير بالمجتمع والاساءة الى عناصر السلطة الداخلية ، والخارجية، حتى كان المعزلدين الله في مجالسه يصف العباسيين بالملاعين ، ويحرص على أن يتحف رجاله بما يحط من قيمتهم كخلفاء ، ومن ذلك مالاحظه من أن كتب التاريخ ، والاخبار ، التي سجلت عن العباسيين ، واطلع عليها ، تذكر ميل بعض الخلفاء الى اللهو ، والشرب ، والتمتع بالغلمان ، وعقب على ذلك بقوله « هذه محاسن القوم فكيف بمساوئهم وهذا قول من قصد بقوله مدحهم ، فكيف بمن قصد ذمهم (٢٥) .

ولم يتورع عن الطعن في مشروعية خلافتهم ، او عن الاشارة الى أن هدف الخطة الاسماعيلية منذ عصر المهدي ، كان القضاء عليهم « لو أراد

---

(٢٤) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٠٠ .

(٢٥) النعمان : المجالس١ ورقة ١٧٠ــ ١٧١ ، وقد لاحظ المعز بدهشه كيف أن الكتب التي أهداها اليه بعض العلماء المعاصرين لم تتضمن غير سير بني أمية ، وبني العباس ، واخبارهم ، ولم يوجد فيها ما ينسب الى أي خليفة فاطمي ، مع أن الرجل الذي الف هذه الكتب ، صحب المهدي والقائم ، وكبر في عصر المنصور ، انظر : ورقة ٨٤ ــ ٨٥ منه .

الله بني العباس خيرا لقطع امرهم يومئذ على يديه وهم في عنفوان أمرهم، وتمـــام سلطانهم وعزهم »[٢٦] .

وتدل بعض التوقيعات التي اصدرها المعز لدين الله الى النعمـــان بن محمد ، يمنيه بالخير الكثير ، والبناء الرفيع في مصر ، ردا على طلبه الحصول على أرض للبناء ليجتمع شمل أسرته بالمنصورية ، على أنه كان يعتبر نفسه مؤقتا في بلاد المغرب ، وأن ساعة الانتقال الـــى مصر قريبة ، « فالله ، يهبك السلامة حتى تبتني في أيامنا ، ومعنا ، حيث يختاره الله ويرضاه له من ارض المشرق الأبنية الواسعة المنيفة »[٢٧] .

ومن هذا القبيل قوله أمام جمع من رجاله وجدهم عند جوهر متأثرين لمرضه الشديد ، « لا تغتموا ، فانه يبرأ ، ويفتح مصر بمشيئة اليه[٢٨] . ويرتبط بالخطة الاصلية للحركة الاسماعيليـــة ، في عصر المعز لدين الله ، التدخل في شؤون الحجاز ، تمهيدا لفرض الحماية على الحرمين الشريفين، واكتساب مودة الأشراف ، اذ تشير بعض النصوص ، الى توسط المعز لدين الله ، لتحقيق الصلح بين فرعي بني الحسن ، وبني جعفر بن أبي طالب ، الذين اقتتلوا فيما بينهم ، وقد انفذ اموالا ورجالا تحمل ديات القتلى ، وكان أكثرهم من بني الحسن ، « فصار ذلك جميـــلا عنـــد بني الحسن للمعز » قابلوه بالدعاء له في مكـــة عقب فتح مصر ، وتولى ذلك منهـــم حسن بن جعفر الحسني ، الذي أرسل اليه المعز لدين الله « بتقليد الحرم وأعماله »[٢٩] .

وكانت مكاتبات الدعاة ، وبعض عناصر المجتمع في مصر ، لا تنقطع

---

(٢٦) نفسه ٢ ، ٤٧٨ وما بعدها .

(٢٧) نفسه ٢ ، ٦٣٤ ــ ٦٣٥ .

(٢٨) لمعة في سيره المعز ورقة ٣ مخطوط مكتبة جامعة القاهرة . رقم ٢٤٠٢٢ .

(٢٩) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٠١ .

عن المعزلدين الله ، ومن هؤلاء الوزير ، ابو الفضل جعفر بن الفرات ، المعروف بابن حنزابة ، الذي حثه على فتح مصر نكاية في الأميرالاخشيدي الحسن بن عبد الله بن طغج أمير الرملة والشام الذي ضيق عليه ، وآذاه، وقصد به شرا(٣٠) ، وتضمنت بعض المكاتبات تعبيرا عن سهولة فتح مصر وطواعية سكانها للفاطمين ، بعد اختفاء كافور الاخشيدي فولا نصه « اذا زال الحجر الاسود ، ملك مولانا المعزلدين الله مصر(٣١) وكان هذا الخادم المتغلب الذي عرف بالاستاذ وكني بأبي المسك وقلد مصر نهائيا من طرف الخليفة العباسي ، بعد وفاة ابني الاخشيد ،من الدهاء والحكمة، بحيث أدرك قوة تأثير الحركة الاسماعيلية في مصر(٣٢) ، وأحس بثقل الفاطميين المجاورين له في برقة ، فلم يظهر العداء ، لكنه لم يتعاون مع المعزلدين الله لنجدة مسلمي كريت ، خوفا من غضب العباسيين ، واحتفظ بتوازنة أمام القوتين المتصارعتين ، فكان « يهادي المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله اليه ، وكذا بذ عن بالطاعة لبني العباس ، ويداري، ويخدع هؤلاء ، وهؤلاء(٣٣) . وما كان من أمر بقي خافيا في مصر

(٣٠) ابن أيبك الدواداري : الدرة المضية ٦ ، ١٢٠ ـ ١٢١ ، العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١٩ ، القسم (٢) ورقات ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، و ٥٠٧ ـ ٥٠٨ من القسم ٣ ،

(٣١) العيني : المصدر السابق ج ١٩ (ق٢) ورقة ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ، سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج ١١ ، ٢٣ وفيه « الدنيا كلها » المقريزي: المصدر السابق ١ ، ١٠٢ نقلا عن ابن زولاق وفيه (الارض كلها) .

(٣٢) وكان من جلسائه انشط دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر الذي أثر عنه قوله « كافور الاسود غدا يؤخذ بأذنه انما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ منها التبعة على كل تابع ومتبوع ، وذيل مرفوع تغير فيها الاحوال وتحمل اليها الاموال » ـ انظر كامل حسين : ادب مصر الفاطمية ١٦ .

(٣٣) ابو المحاسن : المصدر السابق ٤ ، ٦ .

ويريد المعزلدين الله أن يعرفه ، قبل ارسال حملة جوهر الضاربة ، فقد استفاده أخيرا من يعقوب بن كلس ، الذي فر من مصر ، ناجيا بنفسه ، من فتك الوزير ابن الفرات ، الى بلاط المعز لدين الله في المنصورية (٣٤) ، ولم يرجع الى مصر الا في ركابه ، وقد ظهر التعبير العملي عن اهداف الخطة الاسماعيلية في المشرق ، في الاعمال العسكرية التي وجهت ضد مصر ، منذ عصر المهدي واستمرت حتى أواخر عصر المعز لدين الله وكانت مصر في نظر الحركة هي الطريق الطبيعي للنفاذ الى قلب الخلافةالعباسية في بغداد ، بعد التهام اطرافها في الحجاز والشام •

ولم تكن حملة جوهر الناجحة ، في عصر المعزلدين الله ، غير الحلقة الأخيرة ، في سلسلة طويلة من الجهود المختلفة التي انتهت بفتح مصر وبلاد الشام وضمانة ولاء الحجاز واليمن • أما العراق قلب الخلافة العباسية والعالم الاسلامي فقد أصبحت أطرافه هدفا للدعاة الاسماعيلية وللحملات العسكرية وللحركات التخريبية •

ولقد كانت الخاتمة الحميدة لجهود الفاطميين ضد العباسيين ، من اجل الظفر بخلافة علوية شاملة للعراق ولسائر المشرق الاسلامي • في منتصف القرن الخامس للهجرة(١١ م) وبالتحديد يوم الاحد ٨ ذي القعدة ٤٥٠ هـ • وذلك عندما نجح مؤقتا الأمير ابو الحارث ارسلان البساسيري في الدعاء ، وفي الخطبة للخليفة الفاطمي المنتصر بالله من على منبر جامع المنصور في بغداد ، وقطعها عن الخليفة العباسي القائم ، الذي أصبح مضيقا عليه في الأسر •

وتعتبر هذه الحادثة قمة لنجاح الدعوة الاسماعيلية ضد العباسيين ، لكنها من ناحية أخرى ونظرا لكونها وقعت في عصر هرم الخلافة

---

(٣٤) ابن الجوزي : المصدر السابق ج ١١ ورقة ١٥٢ — ١٥٣ ، العيني المصدر السابق ١٩ (ق٣) ورقة : ٥٠٧ — ٥٠٨ •

الفاطمية ، كانت على حد تعبير بعض المؤرخـين « آخـر سعادة الدولة الفاطمية »[٣٥] .

(٣٥) عن تفاصيل هذه الحادثة واصـدائها انظر : المقريزي : اتعـاظ الحنفا ٢ ، ٢٥٢ وما بعدها ط ١٩٧١ م .

قانون
اتحاد المؤرخين العرب

نحن ممثلي الجمعيات والمنظمات التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية في الاقطار العربية المجتمعين في بغداد في المدة من ١٥ ــ ١٨ أيار (مايو) ١٩٧٤ •

انطلاقا من رسالتنا العلمية وتحقيقا لاهدافنا القومية ،وايمانا بتراثنا الخالد ، وتنفيذا لتوصية المؤتمر الدولي للتاريخ المنعقد في بغداد في اذار (مارس) ١٩٧٣ وتقديرا للواجب الملقى على عاتقنا في توحيد الجهود العلمية العربية لاحياء التراث العربي والاسلامي ،

قررنا تكوين اتحاد المؤرخين العرب •

اولا ــ في انشاء الاتحاد

المادة الاولى :

تنشأ في الوطن العربي منظمة عربية دائمة للمؤرخين العرب تسمى (اتحاد المؤرخين العرب وشعارها العلم ــ والحقيقة ــ والعروبة) ويكون مقرها الدائم في بغداد وينتقل المكتب الدائم اثناء انعقاد المؤتمر الى مكان انعقاده •

المادة الثانية :

يتكون اتحاد المؤرخين العرب من مجموع الاعضاء في الجمعيات

التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية المنتسبين الى الاتحاد في الاقطار العربية التاليــة وهي : الاردن ، البحرين ، تونس ، الجزائر ، سوريــا ، الصومال ، العراق ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، المغرب ، اليمن[1] وكذلك الجمعيات التي تتكون مستقبلا في باقي الاقطار العربية والتــي ستنتسب اليه وفق احكام قانونه وانظمته .

ثانيــا ــ في اهداف الاتحاد

المــادة الثالثة :

أهداف الاتحــاد :

١ ــ العمل لرفعة الوطن العربي عن طريق النهوض بالفكر التاريخي .

٢ ــ العمل على توفير حرية البحث في الحقول التاريخية .

٣ ــ ابراز الوجه المشرق للتراث العربي بأسلوب علمي موضوعي .

٤ ــ السعي الى كتابة تاريخ الامة العربية بشكل موضوعي يبرز الجوانب الايجابية التي ساعدت على نهوضها والعوامل التي أدت الى انهيارها والوسائل التي تعمل على بعثها من جديد .

٥ ــ التعارف بين المؤرخين العرب وتوثيق عــرى الزمالــة والتجاوب العلمي بينهم .

٦ ــ العمل على نشر رسالة المؤرخ العربي من نواحيها العلمية والانسانية في كل مكان من الوطن العربي وربطها بالمجتمع والعمل على نشرها بين جميع ابناء الشعب العربي .

٧ ــ السعي الى تنسيق منهــاج تدريس التاريخ في مراحــل التعليــم المختلفة في الوطن العربي .

---

(١) شارك ممثلان من جمهورية اليمن الديمقراطية وجمهورية اليمــن العربيــة .

٨ ـ العمل على توفير المراجع والمؤلفات التاريخية العربية في مكتبات الاتحاد والجمعيات التاريخية •

٩ ـ اقامة صلات بين اتحاد المؤرخين العرب والمنظمات العربية الفكرية وبين المنظمات الدولية المعنية بشؤون التاريخ •

١٠ ـ عقد مؤتمر للتاريخ كل سنتين بشكل دوري بين الاقطار العربية في أي من الاقطار العربية بشكل يجعله مجالا للاشعاع العلمي والتفاعل والبناء •

١١ ـ العمل على اصدار مجلة دورية سنوية للاتحاد وتكون عنوانا لنشاطه •

١٢ ـ دراسة الموضوعات التاريخية ذات الطابع المشترك بين الاقطار العربية وتبادل المعلومات والخبرة في مختلف الميادين العلمية •

١٣ ـ دعم الجمعيات التاريخية القائمة في الوطن العربي والاسهام في مساعدة المؤرخين على تشكيل الجمعيات التاريخية في الاقطار العربية التي لم يتم فيها تنظيم •

١٤ ـ العمل على تصوير المخطوطات العربية في مكتبات الوطن العربي والعالم والوثائق الرسمية التي تتعلق بالتاريخ العربي وحفظها في مكتبة الاتحاد وتوزيع صور منها على مكتبات الجمعيات التاريخية المنظمة للاتحاد •

ثالثا ـ في اجهزة الاتحاد واختصاصها :

المادة الرابعة :

يباشر الاتحاد اختصاصاته ، ويعمل على تحقيق اهدافه بواسطة هيئاته الاساسية التالية :

١ ـ المؤتمر العام

٢ ـ المكتب الدائم

٣ ـ الامانة العامة .

المادة الخامسة :

المؤتمر :

المؤتمر العام هو الهيئة العليا في الاتحاد التي ترسم سياسته وتوجه نشاطه ، وتتخذ القرارات الكفيلة بتحقيق اهدافه ويتكون المؤتمر العام من ممثلي الجمعيات التاريخية المنظمة الى الاتحاد والباحثين في الحقول التاريخية في الاقطار العربية بحيث يمثل كل قطر عدد لا يزيد على خمسة أعضاء .

المادة السادسة :

ينعقد المؤتمر العام مرة كل خمس سنوات في احدى العواصم العربية في دورة عادية وتجوز دعوته لدورة غير عادية بقرار من المكتب الدائم ، وتنظر هيئته العامة بشكل خاص في الامور التالية :

١ ـ وضع الخطوات الرئيسية لنشاط الاتحاد واصدار القرارات في الامور التي يقترحها المكتب الدائم .

٢ ـ دراسة القضايا العربية المصيرية وتوضيحها ومساندة اهداف الامة العربية ودعم حقوقها الحضارية .

٣ ـ بحث توصيات لجان المؤتمر واتخاذ القرارات النهائية بشأنها ومتابعة تنفيذها .

٤ ـ مناقشة تقرير الامين العام الذي يعده المكتب واقرار الميزانية والحساب الختامي للاتحاد

٥ ـ اقرار القانون الاساسي وتعديله وفق الطريقة الموضحة في هذا

القانون والانظمة الملحقة به •

المـادة السابعة :

المكتب الدائم هو الذي يدير الاتحاد ويشرف على اعمـاله ويعمل على تنفيذ قراراته وتحقيق اهدافه وذلك في نطاق قانونـه الاسـاسي وانظمته وضمن توجيهات وقرارات المؤتمر العام •

ويتكون المكتب الدائم من الامين العام ومن ممثل واحـد من كـل جمعية تاريخية عضو في الاتحاد او من الباحثين في الحقول التاريخيـة في القطر الذي ليست فيه جمعية تاريخية وللامين العام صـوت مستقل عن صوت القطر الذي ينتمي اليه •

المـادة الثامنة :

الامانة العامة وتتألف الامانة من :

١ ـ الامين العـام

٢ ـ الامناء المساعدون

٣ ـ امين الصنـدوق

المـادة التاسعة :

١ ـ ينتخب المكتب الدائم امينـا عاما وخمسة امنـاء مساعدين لمـدة خمس سنوات قابلة للتجديد ويعتبر الامين العام والامناء المساعدين مسؤولين امام المكتب الدائم •

٢ ـ يعهد المكتب الدائم للامانة العامة مهمة تشكيل اللجان التالية حسب الحاجة القائمة :

آ ـ لجنة دراسة قضايا الوطن العربي

ب ـ لجنة الشؤون العلمية والابحاث التاريخية

ج ـ لجنة المجلة والمنشورات التاريخية

د ـ لجنة التبادل الثقافي في البلاد العربية

هـ ـ لجنة الاعلام

و ـ لجنة الاشراف على تحقيق المخطوطات والوثائق ونشرها .

المادة العاشرة :

ينعقد المكتب الدائم بشكل دوري مرة كل سنة على الاقل في احدى الاقطار العربية بدعوة من الامين العام . ويرأس اجتماعاته رئيس الجمعية في القطر الذي ينعقد فيه وتحصر مهمته فيما يلي :

١ ـ العمل على تحقيق اهداف الاتحاد وتنفيذ قرارات وتوصيات مؤتمراته .

٢ ـ تحديد مكان وزمان انعقاد مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب .

٣ ـ تنظيم المؤتمرات العلمية التاريخية وتعيين شروط الاشتراك فيها وتقرير جدول اعمالها وموضوعاتها ولجانها .

٤ ـ تنظيم الموازنة المالية للاتحاد وتحديد موارده ومصروفاته وتعيين بدل الاشتراك فيه وتعيين مراقب للحسابات والنظر في تقرير مراقبة الحسابات واقرار الحساب الختامي .

٥ ـ البت في طلبات انتساب الهيئات والجمعيات التاريخية في عضوية الاتحاد والفصل فيها وفق احكام انظمته وقبول الباحثين في الحقول التاريخية اعضاء في الاتحاد .

٦ ـ اقتراح الانظمة الداخلية والمالية للاتحاد واصدار القرارات التنظيمية تطبيقا لاحكام القانون والانظمة لعرضها على المؤتمر العام .

٧ ـ ارسال جدول اعمال المكتب الدائم الى الاعضاء قبل الانعقاد بشهر واحد على الاقل .

المادة الحادية عشرة :

يختص الامين العام بما يلي :

١ ـ تمثيل المكتب الدائم امام المنظمات والهيئات الحكومية والدولية .
٢ ـ تنفيذ قرارات المكتب الدائم وما يعهد به اليه من اعمال .
٣ ـ تعيين الموظفين اللازمين للاتحاد والمؤتمر والاشراف على اعمالهم وتحديد مكافاتهم ودرجاتهم وفقا للنظام الخاص الذي يقره المكتب الدائم .

٤ ـ دعوة المكتب الدائم الى الاجتماع بالتنسيق مع الجمعيات والهيئات التاريخية العربية المنظمة للاتحاد في دورته العادية وتحديد مكان انعقاده وزمانه ، وعليه دعوة المكتب الى الانعقاد في دورات غير عادية كلما اقتضت الظروف ذلك او كلما طلب اليه ثلثا اعضاء المكتب الدائم او الجمعيات والهيئات التاريخية على الاقل وذلك في موعد لا يتجاوز شهرا من تاريخ وصول الطلب الى الامانة العامة .

٥ ـ تنظيم جدول اعمال المكتب والاشراف على تحضير اجتماعاته وضبط وقائع جلساته ومراسلاته وصيانة المعاملات والمحفوظات والدراسات والوثائق وضبطها وتدوينها في سجلاته الخاصة والقيام بجميع الاعمال الادارية التي تتطلبها هذه الامور .

٦ ـ تقوم الامانة العامة بطبع المحاضرات والابحاث المقررة من قبل المكتب الدائم وكذلك تقارير مقرري اللجان وتوزيعها على المؤتمر قبل انعقاده بشهر على الاقل .

٧ ـ توقيع اوامر الصرف بالاشتراك مع امين الصندوق وفق النظام المالي

الذي يقره المكتب الدائم .

المـادة الثانية عشرة :

ينيب الامين العام احد الامناء المساعدين لتمثيله في حالة غيابه عن الاتحاد او تعذر قيامه بأختصاصاته وفق قانون الاتحاد وقرارات المؤتمرات والمكتب الدائم .

المـادة الثالثة عشرة :

يختص امين الصندوق بما يلي :

١ ــ حفظ اموال الاتحاد والمؤتمر والاشراف على تنفيذ الموازنة المالية ومراقبة الانفاق في حدود الاعتمادات المفتوحة من قبل المكتب .

٢ ــ اجراء الصرف في حدود الاعتمادات المفتوحة من قبل المكتب بموجب اوامر صرف توقع منه ومن الامين او من ينيبه الامين العام .

٣ ــ تحصيل الاموال بموجب ايصالات ذات نسخ توقع منه ومن الامين العام او من ينيبه الامين العام .

المـادة الرابعة عشر :

تحفظ اموال الاتحاد في مصرف رسمي ، ولا يجوز لامين الصندوق ان يحتفظ بأكثر من مبلغ مائة دينار عراقي او ما يعادله لتأمين النفقات العاجلة .

رابعا ــ مالية الاتحاد :

المـادة الخامسة عشرة :

١ ــ رسم تسجيل لكل قطر لايقل عن خمسة دنانير عراقية او ما يعادلها

٢ ــ الاشتراك السنوي ، لا يقل عن عشرة دنانير عراقية او ما يعادلها .

٣ ـ الهبات والتبرعات المالية التي لا تتعارض مع اهداف الاتحاد ونشاطاته
٤ ـ اثمان مطبوعات الاتحاد .

خامسا ـ في تعديل القانون الاساسي :

المادة السادسة عشرة :

يجوز تعديل القانون الاساسي للاتحاد بموافقة ثلثي اعضاء المؤتمر العام للاتحاد وبناء على توصية من المكتب الدائم بأكثرية ثلثي اعضائه الحاضرين في اجتماع قانوني .

سادسا ـ في الانظمة واللوائح التنظيمية :

المادة السابعة عشرة :

يضع المكتب الدائم جميع الانظمة اللازمة لممارسة اجهزة الاتحاد اختصاصها ولتنفيذ قرارات المؤتمر وتحقيق اهداف الاتحاد .

المادة الثامنة عشر :

يقترح الامين العام جميع اللوائح التنظيمية اللازمة لممارسة اختصاصاته وادارة الاعمال الموكولة لاقرارها من المكتب الدائم .

المادة التاسعة عشرة :

في حالة حل الاتحاد تؤول امواله وممتلكاته الى الجمعية التي يكون المركز الدائم في بلدها .

المادة العشرون :

مادة مؤقتة :

عند اول اجتماع يعتبر المجتمعون مهما كان عددهم هم المكتب الدائم ويمارسون صلاحياته وعليهم انتخاب الامين العام والامناء المساعدين وفق الفقرة ١ من المادة التاسعة .

١ ـ الدكتور عوض محمد خليفات — الاردن
مدرس في الجامعة الاردنية وممثل الجمعية التاريخية الاردنية

٢ ـ الاستاذ عبد العزيز فخرو — البحرين
ممثل الجمعية البحرانية للتاريخ والآثار

٣ ـ الدكتور الحبيب الجنحاني — تونس
رئيس الجمعية التونسية للتاريخ والاثار

٤ ـ الاستاذ محمد المسعود الشابي — تونس
عضو الجمعية التونسية للتاريخ والاثار بتونس

٥ ـ الدكتور لقبال موسى — الجزائر
رئيس قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ الجزائر ـ نائب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية

٦ ـ الاستاذ محمد الدروبي — سوريا
رئيس الجمعية التاريخية السورية

٧ ـ الاستاذ محمد علي عبد الكريم — الصومال
مكتب العلاقات والنشر ـ وزارة التربية (مقديشو)

٨ ـ الدكتور حسين امين — العراق
رئيس الجمعية العراقية للتاريخ والاثار

٩ ـ الاستاذ ابراهيم طاهر البغلي — الكويت
مدير ادارة الاثار والمتاحف

١٠ ـ الدكتور خالد ناصر الوسمي	الكويت جامعة الكويت
١١ ـ الدكتور يوسف ابراهيم يزبك	لبنــان مؤرخ
١٢ ـ الدكتور مراجع الغناى	ليبيـا جـامعة بنغازي
١٣ ـ الدكتور محمد زنيبر	المغـرب رئيس قسم التاريخ بجامعة محمـد الخامس
١٤ ـ الاستاذ شايف عبده سعيد	اليمن رئيس قسم التاريخ ـ كلية التربية ـ عـدن
١٥ ـ الاستاذ عبد الرحيم عبدالعزيز	اليمـن مدير العلاقات الخارجية في هيئة الاثار ودور الكتب ـ صنعاء

بغداد في ١٨\٥\١٩٧٤